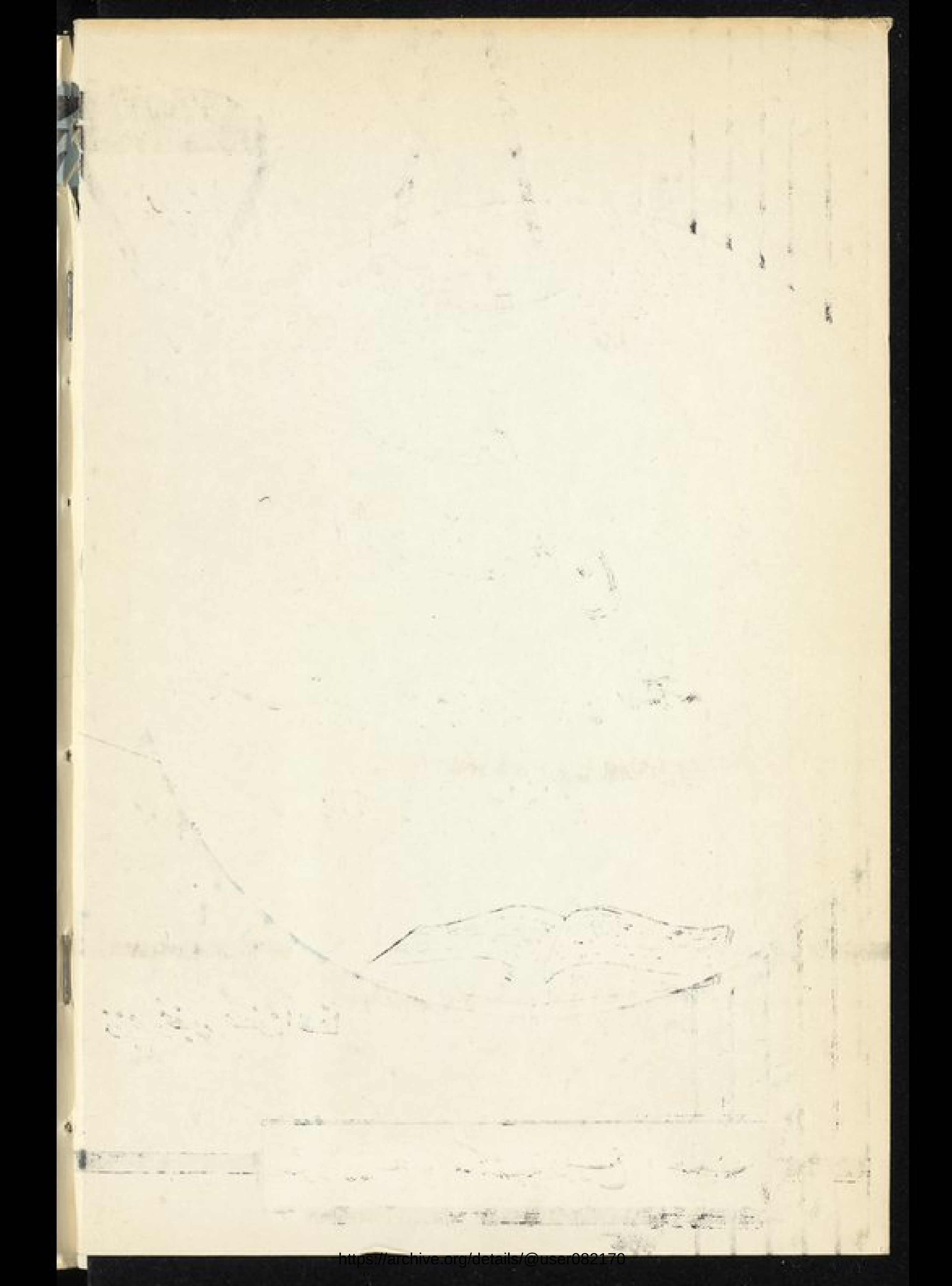


دار الزهراء للتاليف
شرح
نور اليقين
في سيرة سيدنا محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم
تأليف المرحوم الشيخ محمد الخضري
تقديم وتحقيق : صفوة السقا
نشر وتوزيع : مكتبة ربيع ، حلب



شرح

نور اليقين

في سيرة سيدنا محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم

تأليف المرحوم الشيخ محمد الخضري

تقديم وتحقيق : صفوة السقا

نشر وتوزيع : مكتبة ربيع ، حلب

السعر ٤٠٠ ق.س.ل

الطبعة الاولى

١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة كتاب شرح نور اليقين
في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم

الحمد لله الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وافضل الصلاة والتسليم على سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي وضح لنا الطرق السليمة من الغواية والضلال وبين للامة المحمدية الهداية والارشاد والدين في مضمار ثلاث وعشرين عاما استغراقاً في خدمة تعاليم الدين وهي الاسلام والايمان والاحسان .

فوجب على كل من يقول لا آله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يطلع على سيرة هذا النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم .

وخدمة للأمة المحمدية بدأت بتوضيح ما اشكل على قراء اللغة العربية من كتاب نور اليقين الذي هو خلاصة مختصرة وموجز ليس له مثيل في كتب التاريخ وان مؤلفه رحمه الله الشيخ محمد الخضري .

قد أوجز بعض الأماكن من الابواب وأطال بعضها .

فلذا : وفقني الله لتحقيق سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم الذي تشمل على حياته من الدعوة المحمدية الى ان انتقل الى عالم البرزخ .

وان الامة الاسلامية بحاجة ضرورية لمعرفة حياة نبيهم صلى الله عليه وسلم وخاصة في هذا الزمن الذي بدأت الافكار الغامضة لا تدري الى اين تسير فتمدح زعيم من زعمائها وتسطر اقلام الكتاب في حياتهم بدون جدوى فأجمل توضيح للامة العربية الاسلامية سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم الذي انقذ العالم بأسره من الهوة الساحقة الى نور رب العالمين . والله موفقي لسبيل الرشاد وبه المستعان .

صفوة السقا

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا من اوضحت لنا سبل الهداية ، وازحت عن بصائرنا غشاوة الغواية . ونصلي ونسلم على من أرسلته شاهداً ومبشراً ونـذيراً ، وداعيـاً الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان يبتغون من الله الفضل والرضوان ، والأنصار الذين آووا ونصروا وبذلوا لاعزاز الدين ما جمعـــوا وما ادخروا .

أما بعد : فيقول محمد الخضري بن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري : كنت أجد من نفسي منذ النشأة الاولى ارتياحا لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين واجدها لعقل الانسان أحسن مهذب وأنصح معلم ، وكنت أرى في تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام وما لقيه من اذى قومه حينما دعاهم الى الحق وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده أعظم مرب لأفكار المسلمين فأنه يدلهم على ما يجب اتباعه وما يلزم اجتنابه ليسودوا كما ساد سابقوهم ، وخصوصاً ما يتعلق بالحـــكام من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة . ومايتعلق بقواد الجيوش من تأليف الرجال وإحكام المعدات حتى يتم لهم النصر على اعدائهم ، وما يتعلق بالعامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على من سواهم . فكنت اجد من قراءتها ارتياحا عظيما وكانت نفسي كثيرا ما تأسف على ترك المسلمين لها ؛ فقلما اجد من يشتغل بها ولكني كنت اقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع . فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك سالم القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحول الرجال وتتأخر عن مسابقته فيه

الابطال ، فقلما توضع مسألة دينية الا وجدته مبرزاً فيها مفصحاً عن الجواب عنها ، أما علمه بسيرة الرسول الأكرم صلى الله عيه وسلم فعنده منها الخبر اليقين. وكنت كثيرا ما اسمعه يتشوق لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين فقلت : يا الله ! لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي ولكنني كنت ارى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم امنيته فان المقـــام عظيم وصعوباته اعظم ، ولكن لم ار من الأمر بداً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة ، فانهم اكثروا من الاماني لعمل هذا الكتاب العميم النـــفع الجزيل الفائدة . فقمت معتمدا على الله راجياً منه أن يوفقني لما فيه رضاه ، وواصلت السير بالسرى ، حتى بلغت المنى ، فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة ، وترجع إليه الخاصة . وقد كان مـوردي في تأليفه : القرآن الشريف وصحيح السنة مما رواه الامامان البخارى ومسلم ولم أخرج عنها إلا فيما لا بد من تفهيم العبارات فكان يساعدني الشفاء للقاضي عياض والسيرة الحلبية والمواهب اللدنية للقسطلاني وإحياء علوم الدين للغزالي ، هذا ، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإحياء معالم دينه حتى يؤيدوا بروح من عند الله . وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول :

النسب الشريف

السيد الاكرم الذي شرف الناس بوجوده هـو (١) (محمـد بن عبدالله) من زوجة آمنة بنت وهب الزهرية (٢) القرشية (ابن عبد المطلب) من زوجه

(١) اراد المولى سبحانه وتعالى ازلا ايجاد محمد صلى الله عليه وسلم بكليته جسماً وروحاً في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء ومن جملة ما كتب في الذكر وهو أم الكتاب إن محمداً خاتم النبين .

اه ملخصا من الانوار المحمدية ص ٩ (ش)

(٢) من بني زهرة بن كلاب من قريش

فاطمة بنت عمرو المخزومية (١) القرشية وكان عبد المطلب شيخا معظما في قريش يصدرون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدمونه في مهامهم (ابن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمر النجارية (٢) الخزرجية (ابن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت السلمية (٣) (ابن قصى) من زوجه حبى بنت حليل الخزاعية (٤) وكان إلى قصى في الجاهلية حجابة البيت وسقاية الحاج واطعامه المسمى بالرفادة والندوة وهي الشورى لا يتم أمر الا في بيته ، واللواء لا تعقد راية الحرب إلا بيده ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار ، لكن : بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على أن لا يتركوا بنى عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر وكاد يفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين فأعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبقيه من بعده . أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار وأقرها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن وهم بنو شيبة بن عثمان ابن أبي طلحة بن عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار . وأما اللواء فدام فيهم حتى ابطله الاسلام وجعله حقا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة . وقصى (ابن كلاب) من زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزد شنوءة (ابن مرة) من زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن مالك (ابن كعب) من زوجه وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً (ابن لؤى) من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قضاعة (ابن غالب) من زوجه أم لؤى سلمى بنت عمرو الخزاعى (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل ، وفهر هو

---

(١) من بني مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش

(٢) من بني النجار من الخزرج والخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان بالمدينة وهما الاوس والخزرج وهما اخوان ، وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا انصارا

(٣) من بني سليم بن منصور إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر .

(٤) من بني خزاعة بن عمرو إحدى قبائل قمعة بن الياس بن مضر وهم الذين كانوا يتولون البيت قبل قريش .

قريش — في قول الأكثرين — وكانت قريش اثنتي عشر قبيلة : بنو عبد مناف وبنو عبد الدار بن قصى ، وبنو أسد بن عبد العزي بن قصىّ ، وبنو زهرة ابن كلاب ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرّة . وبنو تيم بن مرّة ، وبنو عدى بن كعب ، وبنو سهم بن هصيص بن عمرو بن كعب ، وبنو عامر بن لؤي ، وبنو تيم بن غالب وبنو الحارث بن فهر ، وبنو محارب بن فهر . والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح والذين بضواحيها قريش الظواهر (ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحرب من جرهم (ابن النضر) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان (ابن كنانة) من زوجه برة بنت مر بن إد (ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من قيس عيلان (ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة (ابن اليـاس) من زوجه خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعـة (ابن مضر) من زوجه الرباب بنت جندة بن معد (ابن نزار) من زوجـه سودة بنت عك (ابن معد) من زوجه معانة بنت جوشم عن جرهم (ابن عدنان) .

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين ؛ أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق . غاية الامر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهي الى اسماعيل بن ابراهيم أبي العرب المستعربة . نسب شريف كما ترى : آباء طاهرون وأمهات طاهرات ، لم يزل عليه السلام ينتقل من اصلاب أولئك الى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً فهو من صميم قريش التي لها القدم الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراما ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة ، وكذلك أمهات آبائه من ارفع قبائلهن شأناً ولا شك ان شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوّة وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية ولم ينل نسبه شيء من (١) سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله

(١) اي زنا لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدت من نكاح لا من سفاح .
وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني الا نكاح الاسلام (ش) .

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبدالله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه فزوجه آمنة، بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وسنه ثماني عشرة سنة وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولما دخل عليها حملت برسول الله ﷺ ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدى بن النجار. فأنه كان ذهب بتجارة الى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت ولدها فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بث في أرجائه روح الآداب وتمم مكارم الأخلاق، وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل (١). وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم وكانت قابلته الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه محمداً ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب ولكن أراد الله أن يحقق ما قدّره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والانجيل فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذا لأمره، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبدالله وأول من أرضعه ثوبية أمة عمه أبي لهب.

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد: وكانوا يقولون إن المربى في المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة

(١) حادثة شهيرة حصلت بمكة فأرخت بها العرب كعادتهم هم وكل أمة في التاريخ بالامور المهمة. وقد ذكر القرآن هذه الحادثة في سورة الفيل، وحاصلها ان ملكا من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حمير أغار علي مكة وقصد هدم كعبتها وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله فاكراماً للنبي المنتظر وغيرة على بيته الكريم جعل الله كيد الاعداء في تضليل وارسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارةمن سجيل فجعلهم كعصف مأكول واراح قريش منعناء مقاومتهم اه

وهـو الذي كانت قريش تنسب له الرسول ﷺ حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء . ودرت البركات على أهـل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات (١)

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفا فردته الى أمه وحدثتها قائلة بينما هو وإخوته في (٢) بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيـه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (٣) فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه (٤) فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بني ؟ فقال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟؟ قال نعم . فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو .

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم إن أمه أخذته منها وتوجهت به الى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي ابن النجار وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء (٥) فحضنته أم أيمن وكفله جده عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له في ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً عظيما في المستقبل وكان يكـرمه غاية الاكرام ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله

---

(١) السيرة الحلبية (٢) البهام جمع بهم والبهم جمع بهمة وهو ولد الضأن ذكراً كان او أنثى والسخال أولاد المعز فإذا اجتمعت البهام والسخال قيل لهما جميعا بهام وبهم أيضا اه المختار من صحاح اللغة ص ٩٤ اي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يرعى غنما مع اخ له في الرضاعة تهذيب السيرة ١ـ٤

(٣) يحركانه السوط : قال صاحب الانوار المحمدية : ثم أدخل يده في جوفي واخرج قلبي فامتلأ نوراً وذلك نور النبوة واما الحكمة في ذلك في شق صدره في حال صباه واستخراج العلقة منه تطهيره عن حالات حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية. (٤) شبيها بالنقع وهو التراب .

(٥) قرية بين مكة والمدينة وهي اقرب الى المدينة

عليه وسلم فكفله شقيق ابيه أبو طالب فكان له رحيما وعليه غيورا وكان أبو طالب مقلا من المال فبارك الله له في قليله ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الاطفال عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له .

السفر الى الشام

ولما بلغت سنه عليه السلام اثنتي عشرة سنة أراد عمه وكفيله السفر بتجارة الى الشام فاستعظم الرسول ﷺ فراقه فرقّ له واخذه معه ، وهذه هي الرحلة الأولى ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بصرى (١) بحيرا الراهب فسألهم عما رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبيٍّ من العرب في هذا الزمن فقالوا إنه لم يظهر للآن وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول (فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ) (٢)

حرب الفجار

ولما بلغت سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفجار وهي حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس . وسببها أنه كان للنعمان ابن المنذر ملك العرب بالحيرة (٣) تجارة يرسلها كل عام الى سوق عكاظ (٤) لتباع له وكان يرسلها

(١) قرية على الحدود بين بلاد الشام وبلاد العرب

(٢) سورة البقرة .

(٣) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس ، فتحها خالد بن الوليد في السنة الثانية عشرة (راجع اتمام الوفاء)

(٤) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيها تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما اشبه ذلك من مفاخر العرب ، وهي اشبه في ذلك بمعارض اوربا الان .

في أمان رجل ذي منعة وشرف في قومه ليجيزها فجلس يوما وعنده البراض بن قيس الكناني وكان فاتكا خليعا خلعه قومه لكثرة شرّه وعروة بن عتبة الرحال فقال : من يجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض . أنا أجيزها على بني كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها على الناس كلهم ؟ فقال : عروة أبيت اللعن (١) أكاب خليع يجيزها لك ؟ أنا اجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد (٢) وتهامة (٣) فقال البراض : أو تجيزها على كنانة يا عروة ؟ قال وعلى الناس كلهم فأسرّها في نفسه وتربص له حتى اذا خرج بالتجارة قتله غدراً ثم أرسلوا رسولا يخبر قومه كنانة بالخبر ويحذرهم قيسا قوم عروة . وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها حتى ادركوا قريشاً وكنانة بنخلة (٤) فاقتتلوا ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله . ثم إن قيساً قالوا لخصومهم ؛ إنا لا نترك دم عروة فموعدنا عكاظ العام المقبل وانصرفوا الى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً . فلما حال الحول جمعت قيس جموعها وكانت منها ثقيف وغيرها وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش وهم حلفاء قريش وكان رئيس بني هاشم الزبير ابن عبدالمطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم ، وكان على بني أمية حرب بن أمية وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفا وسنا . وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ثم تناجزوا الحرب فكان يوما من أشدّ أيام العرب هولا ، ولما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سمي يوم الفجار . وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن ادركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه اكثر أخذ دية الزائد فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا

---

(١) تحية عربية ومعناها باعدت كل ما استحق المذمة .

(٢) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها (٣) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية والشرقي منها يسمى البحرين والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز في الغرب واليمامة في الشرق (٤) موضع بين مكة والطائف .

سفيان . وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور حتى الف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الاسلام بينهم .

حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول فتم في دار عبدالله بن جدعان التميمي أحد رؤساء قريش وكان المتحالفون بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف وابني أسد بن عبد العزي وابني زهرةِ بن كلاب وابني تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد اليه مظلمته . وقد حضر هذا الحلف رسول الله عليه السلام مع أعمامه وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة : « لقد شهدت مع عمومتي حلف في دار عبدالله بن جدعان ما أحب لي به حُمْرِ النَّعَمِ (١) ولو دعيت به في الاسلام لأجبت » وذلك لأنه عليه السلام مبعوث بمكارم الاخلاق وهذا منها وقد أقرّ دين الاسلام كثيراً منها ، يرشدك الى هذا قوله عليه السلام : « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا .

رحلته الى الشام للمرة الثانية

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر الى الشام المرة الثانية ، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية (٢) كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه ؛ فلما سمعت عن السيد (٣) من

---

(١) الشيء النفيس من الحيوانات وهي الابل . كما قال صلي الله عليه وسلم والله لان يهدي بهداك رجل واحد خير لك من حمر النعم اخرجه ابو داود

(٢) من بني اسد بن عبدالعزى بن قصى

(٣) الرسول صلي الله عليه وسلم .

الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سماه قومه الامين استأجرته ليخرج في مالها الى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا (١) وربحا ربحاً عظيماً وظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات ما حببه في قلب ميسرة غلام خديجة (٢) .

زواج خديجة

فلما قدما (٣) مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سرت من الامـين عليه السلام وأرسلت اليه تخطبه لنفسها وكانت سنها نحو الاربعين وهي من أوسط قريش حسباً وأوسعهم مالاً ؛ فقام الامين عليه السلام مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب فزوجها عمها . وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضي (٤) معدّ وعنصـر مضـر وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحـرماً آمناً وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن اخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجلاً شرفاً ونبلاً وفضلاً ، وإن كان في المال قلّ فان المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخـطر جليل وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لهـا من الصداق (كذا) وعلى ذلك تم الامر . وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب المصطفى عليه السلام .

---

(١) باعا التجارة واشتريا غيرها .

(٢) حدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من اظلال الملكين إياه وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة مع ما اراد الله بها من كرامة فلما اخبرها ميسرة بما اخبرها به بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له يا ابن عم اني قد رغبت فيـك لقرابتك وشرفك في قومك وكانت خديجة يومئذ اوسط نساء قريش نسبا واعظمهن شرفاً واكثرهن مالا كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه ج١ ص ٤٨ باختصار . تهذيب السيرة

(٣) اي الرسول صلى الله عليه وسلم وميسرة .

(٤) اصل من ضئضي هذا ؛ اي من اصله او معدنه او نسله تفسير غريب الحديث ص ١٤٨

بناء البيت

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان اصابها قبل فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها فانها كانت رضيمة (١) فوق القامة فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم . فقال لهم الوليد بن المغيرة أتريدون بهدمها الاصلاح أم الاساءة ؟ قالوا : بل الاصلاح ، قال إن الله لا يهلك المصلحين ، وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى اساس اسماعيل وهناك وجدوا صحافا نقش فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين . ثم ابتدأوا في البناء وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغيّ ولا بيع ربا وجعل الاشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل ، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم ، وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون اليه الحجارة وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن اتمامه على قواعد اسماعيل فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة أنه من الكعبة . ولما تم البناء ثماني عشر ذراعاً بحيث زيد فيه عن أصله تسع أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد اليه إلا بدرج أرادوا وضع الحجر الاسود موضعه فاختلف أشرافهم فيمن يضعه ، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو امية بن المغيرة المخزومي عم خالد بن الوليد فقال لهم : يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه . فقالوا : نكل الأمر لأول داخل ، فكان هذا الداخل هو الامين المأمون عليه الصلاة والسلام فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الامانة وصدق الحديث وقالوا : هذا الامين رضيناه ، هذا محمد لانهم

---

(١) بناء رضيع مبني بالصخر اهـ من اساس البلاغة

كانوا يتحاكمون اليه إذ كان لا يداري ولا يمري . فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحيه من الثوب ، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه فأخذه ووضعه فيه . وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيرا ما يكون أمثالها سببا في انتشار حروب هائلة بين العرب لولا أن يمن الله عليهم بعاقل مثل أبي أمية يرشدهم الى الخير وحكيم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بما يرضى جميعهم ، ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا لان البيت قبلة العرب وكعبتهم التي يحجون اليها فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم قال تعالى في سورة آل عمران (إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُباركاً وهُدى للعالمين فيه آياتٌ بيِّناتٌ مَقامُ إبراهيمَ ومَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) وكان يلي أمره بعد ولد اسماعيل قبيلة جرهم فلما بغوا وظلموا من دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ووليته خزاعة حينا من الدهر ثم أخذته منهم قريش في عهد قصيّ بن كلاب وبسببه أمنوا في بلادهم فكانت قبائل العرب تهابهم . وإذا احتموا به كان حصناً أمينا من اعتداء العادين ، وامتن الله عليهم بذلك في تنزيله فقال في سورة العنكبوت (أوَ لَمْ يَروْا أنَّا جعلنا حَرَماً آمناً ويُتَخَطَّفُ النَّاسُ من حولهم)

معيشته عليه السلام قبل البعثة

لم يرث عليه السلام من والده شيئاً ؛ بل ولد يتيما عائلا فاسترضع في بني سعد ؛ ولما بلغ مبلغا يمكنه أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية ، وكذلك لما رجع الى مكة كان يرعاها لأهلها على (١) قراريط كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه . ووجود الانبياء في حال التجرد عن الدنيا

«١» ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم فقال اصحابه وانت قال نعم كنت ارعاها على قراريط لاهل مكة رواه البخاري عن ابي هريرة ورواه ابن ماجة .

قراريط : قيل هواسم موضع وقيل جمع قيراط احد اجزاء الدينار هداية الباري ٢ - ١٧١

ومشاغلها أمر لا بدَّ منه لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ؛ ولذلك ترى جميع الشرائع الالهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها ، وحال الانبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس في الدنيا وكذلك كان موسى وابراهيم . وكانت حالتهم في صغرهم ليست سعة بل كلهم سواء تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجا لمتبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها وذلك سبب البلايا والمحن . وكذلك رعاية الغنم ، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري ، وهذه ايضاً من بالغ الحكم فان الانسان إذا استرعى الغنم وهي أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفا ، فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان لما هذب أولا من الحدَّة الطبيعية والظلم الغريزي فيكون في أعدل الاحوال . ولما شب عليه السلام كان يتجر ، وكان شريكه السائب بن أبي السائب وذهب بالتجارة لخديجة ، رضي الله عنها ، الى الشام على (١) جعل يأخذه . ولما شرفت خديجة بزواجه وكانت ذات يسار عمل في مالها وكان يأكل من نتيجة عمله . وحقق الله ما امتنَّ عليه به في سورة الضحى بقوله جل ذكره (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ★ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) بالايواء والاغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة ، هداه للكتاب والايمان ودين ابراهيم عليه السلام ولم يكن يدري ذلك قبل . قال تعالى في سورة الشورى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الايمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) .

سيرته في قومه قبل البعثة

كان عليه السلام أحسن قومه خلقاً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانةً وأبعدهم عن الفحش والاخلاق التي تدنس الرجال ، حتى كان أفضل قومه

(١) ما جعل للانسان من شيء على فعل . اهـ مختار الصحاح ص ١٢٠

مروءةً ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً فسموه الأمين لما جمع الله فيه من الامور الصالحة الحميدة ، والفعال السديدة من الحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والتواضع ، والعفة ،والجود،والشجاعة ، والحياء .
حتى شهد له بذلك ألد أعدائه النضر بن الحارث من بني عبدالدار حيث يقول : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم : ساحر ! لا والله ما هو بساحر ، قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلاً : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله . ورد ذلك في أول صحيح البخاري وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها (١) وبغضت إليه الاوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عيادها . وقال عليه السلام : « لما نشأت بغضت إليَّ الاوثان وبغض إليَّ الشعر ولم أهمَّ بشيء مما كانت تفعله الجاهلية إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك . ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معي لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنيَّ فنمت فما أيقظني إلا مسَّ الشمس ولم أقض شيئاً ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك » . وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على النصب (٢) وحرَّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً ، وذلك كله من الصفات التي يحلي الله بها انبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه ، فهم معصومون من الادناس قبل النبوَّة وبعدها : أمَّا قبل النبوَّة فليتأهلوا

---

(١) الشفاء للقاضي عياض (٢) هي حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد .

للأمر العظيم الذي سيسند اليهم ، وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم . عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات .

ما أكرمه الله به قبل النبوة

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم ، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم(١) مجدبين فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبناً ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته :

وإذا سخر الاله أناساً   لسعيد فانهم سعداء

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه (٢) وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى ، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر لا يعرف من قوة الله شيئاً لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب . ومن المكرمات الالهية تسخير الغمامة له في سفره الى الشام حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مشاركاً له في سفره وهذا ما حببه الى خديجة حتى خطبته لنفسها وتيقنت أن له في المستقبل شأناً . ولذلك لما جاءته النبوة كانت أسرع الناس إيماناً به ولم تنتظر آية اخرى زيادة على ما علمته من مكارم الاخلاق وما سمعته من خوارق العادات . ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الاحجار والاشجار (٣) فكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بناء ويفضي الى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجر إلا سمع : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا

«١» الجدب ضد الخصب لتربة الارض مختار الصحاح ص ٧٨

«٢» اي من قلبه

«٣» السيرة الحلبية .

يرى أحدا وقد حدّث بذلك عن نفسه . وليس في ذلك كبير إشكال فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله ؛ فعصا موسى التقمت ما صنع سحرة فرعون بعد أن تحوّلت حية تسعى ثم رجعت كما كانت ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عينا ، لكل سبط من اسباط بني إسرائيل عين . وكذلك غيره من الانبياء سخر الله لهم ما شاء من انواع الجمادات لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم .

تبشير التوراة به (١)

انزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن ونوّه فيها بذكر كثير من الانبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم ، فما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام(٢) (وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذى أنتقم منه ، فأما النبي الذي يجترىء عليّ بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل : وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك أن ما قاله النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) . ويقول اليهود إن هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام مع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح فانهم (٣)

---

(١) إن الله سبحانه وتعالى جعل الانبياء بين خلقه لانهم هم الوسط البرزخي في بين الخلق والخالق فلذا أرسل الله سبحانه وتعالى أنبيائه بحسب الازمنة التي عاشوا فيها . فأرسل موسى لان قومه كانوا يتقنون السحر وارسل عيسى لان في زمنه كان منتشراً الطب بجميع حذافيره وارسل محمداً صلى الله عليه وسلم للعرب لانهم كانوا في غاية الفصاحة والبلاغة لذا كان القرآن هو المعجزة الكبرى ا.هـ الشارح ش

(٢) الاصحاح الثامن : سفر الثنية .

(٣) الاصحاح الاول من إنجيل يوحنا

أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له أنت إيليا ؟ فقال لا فقالوا أنت المسيح فقال لا فقالوا أنت النبي فقال لا فقالوا ما بالك إذاً تعمد إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبي فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح ، ثم ان التوراة تقول في صفة النبي إنه مثل موسى وقد نصت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفترى على الله يقتل ويشبه ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾(١) ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ويهود ثلاثا وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله ، ومع ذلك عصمه الله منهم وانزل عليه تطمينا لخاطره في سورة المائدة ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أكان يعجز الله ، وهو القادر على كل شيء ، أن يعاقب من ينسب اليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشوري ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه وهي الاخبار بما سيأتي وقد أخبر النبي عليه السلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها . ومنها ما لا ينفع معه الحدس والتخمين كالاخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم ، فالاخبار إذاً بأن الروم سيردّون ما فقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله ، ولذلك استغربه جدا بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد حقق الله الخبر فاستحقّ الصديق الرهن . وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى .

«١» عرق في القلب اذا انقطع مات صاحبه

وروى القاضي عياض في الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبدالله بن عمرو ابن العاص عن صفة رسول الله عليه السلام فقال : أجل ! والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إنَّا أَرسلناكَ شاهداً ومُبَشِّراً ونَذيراً ﴾ . « وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب (١) في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ».

وروى مثله عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسة حتى يترك الدين القويم وكذلك كعب الاحبار وفي بعض طرق الحديث : ولا صخب في الاسواق ولا قول للخنا ، أسدّده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبرّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والاسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وارفع به بعد الخمالة ، وأسمي به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة ، وأغني به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين قلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس . وقد أخبر عليه السلام عن صفته في التوراة فقال وهو الصادق الامين : عبدي أحمد المختار اموالده مكة ومهاجره بالمدينة — أو قال طيبة — وأمته الحمادون الله على كل حال

تبشير الانجيل

بشر عيسى عليه السلام قومه في الانجيل بالفار قليط ومعناه قريب (٢) من

(١) شديد الصوت

(٢) ولفظ محمد : بالسريانية : اكنحمنا وبالرومية ة اكبر قليطس ا .هـ.طص /٥٧/تهذيب السيرة/ش/

محمد أو أحمد ويصدقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف ﴿ وإذْ قالَ عيسى أبنُ مريم يا بَني إسرائيل إني رسول الله اليكم مُصدقاً لمَا بَين َيدَي مِنَ التوراهِ َومبَشّراً برَسولٍ يأتي ِمن بعدي أسمُهُ أحمدُ) وقد وصف المسيح هذا الفار قليط بأوصاف لا تنطابق إلا على نبينا فقال انه يوبخ العالم على خطايئته وانه يعلمهم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم ﴿ وما يَنطقُ عنَ الهَوىَ إن هُو الا وَحيٌ يوحى ﴾ وقد ورد في انجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب (١) الجهالة : ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة .

حركة الافكار قبل البعثة

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الاحبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر . فقد حدث عاصم ابن عمرو بن قتادة عن رجال قومه قالوا : إنما دعانا للاسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنا نسمع من احبار يهود ، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبي يبعث الان نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا وكفروا ، (وانما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأنّ من صفته عليه السلام في كتبهم أن هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب

(١) ترجم إلى العربية وهو الان مطبوع بمصر . سنة ١٩٥٨ وترجمه الدكتور خليل سعاده وقدم له مقدمة علمية محمد رشيد رضا صاحب المنار . ش

في الدنيا والآخرة . وكان أمية بن أبي الصلت المتنصر العربي كثيراً ما يقول : اني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا . وحدث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً فكان يقول له يا سلمان ان الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرجُ من جبال تهامة علامته أن يأكل الهدية ولا ولا يأكل الصدقة ، وهذا الحديث كان من أسباب اسلام سلمان . ولما أرسل عليه السلام ملوك الأرض لم يهن كتابه الا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب ، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر ، وقيصر ملك الروم ، فأكرموا وفادة رسله . ومنهم من آمن كالنجاشي ، ومنهم من ردَّ ردا لطيفا وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ، ومنهم من هادى كالمقوقس . ولم يكن عليه السلام في قوة يرهب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك الا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتي من بعده ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتي هي أحسن ، وأما ما سمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو مالا يدخل تحت حصر . وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر . ومع ذلك كله فالأعمال التي جاد الله بها على يديه والأقوال التي أتانا بها أعظم مقو لحجته ومؤيد لدعوته . وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد ، هداك الله الى الصراط السويّ .

بدء الوحي

لما بلغ عليه السلام سن الكمال وهي أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم وكان ذلك في أول شباط (فبراير) سنة ٦١٠ من الميلاد كما اوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي تبين بعد دقة البحث أن ذلك كان في ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق تموز (يوليو) سنة ٦١٠ وأول مابديء به الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وذلك لما جرت به اعادة الله في خلقه من التدريج في الامور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال . ومن الصعب جدا على البشر

تلقي الوحي من الملك لاول مرة ، ثم حبب إليه عليه السلام الخلاء ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله فان في العزلة صفاء السريرة . وكان يخلو بغار (١) حراء فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارة عشرا وتارة اكثر إلى شهر . وكانت عبادته على دين ابيه ابراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده ، فاذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء : فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله الى هذه الامة . ثم قال له : اقرأ ، قال ما أنا بقارىء فانه عليه السلام أمي لم يتعلم القراءة قبلا . فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله ، فقال اقرأ . قال : ماأنا بقارىء ، فأخذه فغطه الثالثة ، ثم أرسله فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فرجع بها عليه السلام يرجف فؤاده مما ألم به من الروع الذي استلزمته مقابلة الملك لاول مرة فدخل على خديجة زوجه ، فقال : زملوني (٢) زملوني ، لتزول عنه هذه القشعريرة ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ؛ لان الملك غطه حتى كاد يموت ، ولم يكن عليه السلام علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله فقالت : كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين والاوهام ولامراء أن الله اختارك لهداية قومك . ولتتأكد مما ظنته أرادت أن تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الاقدمين فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء

---

(١) جبل على مقربة من مكة

(٢) لفوني في ثوبي

الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره عليه السلام خبر ما رأى . فقال له ورقة . هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، لانه يعرف أن رسول الله الى أنبيائه هو جبريل ثم قال : يا ليتني فيها جزعا (شابا جلدا) اذ يخرجك قومك من بلادك التي نشأت بها لمعاداتهم اياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم ، فاستغرب عليه السلام ما نسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له لاتصافه بمكارم الاخلاق وصدق القول حتى سموه الامين وقال : أو مخرجي هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي . وقد نطق بذلك القرآن الكريم . قال تعالى في سورة ابراهيم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ولتمام تصديق ورقه برسالة الرسول الاكرم عليه السلام قال : وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا (معضدا) ثم لم يلبث ورقة أن توفي .

فترة الوحي

وفتر الوحي(١) مدة لم يتفق عليها المؤرخون ، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوما ، ليشتد شوق الرسول للوحي : وقد كان ، فان الحال اشتد به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمي نفسه منها حذرا من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى وهي اختياره لان يكون واسطة بينه وبين خلقه فيتبدى له الملك قائلاً : أنت رسول الله حقاً فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه حتى أراد الله ان يظهر للوجود نور الدين فعاد اليه الوحي .

---

(١) حتى شق عليه ذلك فأحزنه فجاءه جبريل بسورة الضحى يقسم له ربه وهو الذي اكرمه بما أكرمه به إقرأ سورة الضحى تنهم بماذا اكرمه المولى سبحانه وتعالى .
فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سراً إلى من يطمئن اليه من أهله . ا هـ باختصار ص ٦٤ تهذيب السيرة

عود الوحي (١)

فبينما هو يمشي اذ سمع صوتاً من السماء فرفع اليه بصره فاذا الملك الذي جاءه بحراء جالس بين السماء والارض فرعب منه لتذكر ما فعله في المرة الاولى فرجع وقال : دثروني دثروني . فأنزل الله تعالى عليه ﴿ يا أيُّها المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ حذر الناس من عذاب الله ان لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ خصه بالتعظيم ولا تشرك معه في ذلك غيره ﴿ وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ لتكون مستعدا للوقوف بين يدي الله اذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً ﴿ والرُّجْزَ فَاهجُرْ ﴾ أي اهجر أسباب الرجز وهو العذاب بأن تطيع الله وتنفذ أمره ﴿ ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثر مما وهبت ، فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم الى الله .

الدعوة سرا

فقام عليه السلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جفاة لادين لهم ، الا أن يسجدوا لاصنام لا تنفع ولا تضر ولا حجة لهم الا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم وليس عندهم من مكارم الأخلاق الا ما كان مرتبطاً بالعزة والأنفة . وهو الذى كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب واهراق الدماء فجاءهم

---

(١) إنما أكثر الخطابات التي تلقاها الرسول صلى الله عليه وسلم من رب العلمين ما هي في الحقيقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ما هي الا تنبيه وتعريع وتحذير للأمة المحمدية وذلك في جميع التعاليم الالهية تراها يقصد بها الأمة التي تقتدي بذاك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومثل ذلك ترى في القرآن الكريم قال تعالى : في سوره الزمر ايه ٦٥ ولقد أوحي اليك وإلى الذين من قبلك ولئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين آية /٦٦/ ش

رسول الله بما لا يعرفونه . فذوو العقول السليمة بادروا الى التصديق وخلع الأوثان ، ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمتـه . وكان أول من سطع عليه نور الاسلام خديجة بنت خويلد زوجه ، وعلي بن أبي طالب ابن عمه وكان مقيما عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة وكان أبو طالب مقلا كثير الأولاد ، فقال عليه السلام لعمه العباس ابن عبدالمطلب : ان أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فـيما ترى من الشدة فانطلق بنا اليه لنخفف من عياله تأخـذ واحداً وأنا واحدا فانطلقا وعرضا عليه الامر فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب وأخذ عليه السلام علياً فكان في كفالته كأحد أولاده الى أن جاءت النبوّة وقد ناهز الاحتلام فكان تابعاً للنبي في كل أعماله ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الاوثان واتبـاع الهوى ، وأجاب أيضاً زيد بن حارثة ابن شرحبيل الكلبي مولاه عليه السلام وكان يقال له زيد ابن محمد لأنه لما اشتراه أعتقه وتبناه ، وكان التبـنى معتبراً كابن حقيـقي يرث ويورث ، وأجابت أيضاً أم أيمن حاضنته التي زوجها لمولاه زيد .

وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرّة التيمي القرشي كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق ولم يعهد عليه كذبا منذ اصطحبا فأوّل ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديـــق وقال : بأبي أنت وأمي ، أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله . كان رضي الله عنه صدراً معظماً في قريش على سعة من المال وكرم الاخلاق وكان من أعف الناس سخياً يبذل المال محبباً في قومه حسن المجـالسة ؛ ولذلك كله كان من رسول الله ﷺ بمنزلة الوزير فكان يستشيره في أموره كلها وقال في حقه . (ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت (١) له كبوة غير أبي بكر) .

---

(١) كبا لوجهه سقط مختار الصحاح ص٥٨٣

وكانت الدعوة الى الاسلام سراً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم فكان عليه السلام لا يدعو الا من يثق به . ودعا أبو بكر الى الاسلام من يثق به من رجال قريش فأجابه جمع (منهم) عثمان بن عفان بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الاموي القرشي ، ولما علم عمه الحكم باسلامه أو ثقه كتافاً وقال ترغب عن دين آبائك الى دين مستحدث !!! والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه ، فقال عثمان : والله لا ادعه ولا افارقه . فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه وكان كهلا يناهز الثلاثين من عمره . (ومنهم) الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبدالعزى بن قصي القرشي وأمه صفية بنت عبدالمطلب ، وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع الى دين آبائه فقواه الله بالثبات وكان شاباً لا يتجاوز سن الاحتلام . (ومنهم) عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الهاشمي وكان اسمه في الجاهلية عبدعمرو فسماه عليه السلام عبد الرحمن (ومنهم) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري القرشي . ولما علمت امه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية باسلامه قالت له يا سعد بلغني أنك قد (١) صبأت ! فوالله لا يظلني سقف من الحر والبرد وان الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد ، وبقيت كذلك ثلاثة ايام فجاء سعد الى رسول الله ﷺ وشكا اليه امر أمه فنزل في ذلك تعليما ، قول الله تعالى في سورة العنكبوت (ووصَّيْنا الانسانَ بِوالدَيْه حُسْناً وانْ جاهداك على أنْ تُشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطِعْهُما اليَّ مرجعُكم فأنبئكم بما كُنتُم تعملون) وصاه جل ذكره بوالديه وامره بالاحسان اليهما مؤمنين كانا أو كافرين اما اذا دعواه الاشراك فالمعصية متحتمة . لان كل حق ، وان عظم ، ساقط هنا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (٢) : ثم قال اليَّ مرجعكم من آمن منكم ومن اشرك فأجازيكم حق جزائكم ، وفي ختام هذه الآية فائدتان : التنبيه على ان

---

(١) صبأ خرج من دين الى دين وبابه خضع وصبا أيضاً والصابئون جنس من أهل الكتاب ا ه مختار الصحاح ص ٣٠٢ (٢) حديث : رواه الامام احمد في مسنده .

الجزاء الى الله فلا تحدث نفسك بجفوتها لاشراكها ، والحض على الثبات في الدين لئلا ينال شرّ جزاء في الاخرى ، (ومنهم) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ورأى الدين متينا بعيدا عما عليه العرب من المثالب بادر الى الاسلام (وممن) سبقوا الى الاسلام صهيب الرومي وكان من الموالى وعمار بن ياسر العنسي وقد قال رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ وما معه الا خمسة اعبد وامرأتان وابو بكر ، وكذلك أسلم ابوه ياسر وامه سمية .
(ومن) السابقين الأولين عبدالله بن مسعود كان يرعى الغنم لبعض مشركي قريش ، فلما راى الآيات الباهرة وما يدعو اليه عليه السلام من مكارم الأخلاق ترك عبادة الاوثان ولزم رسول الله وكان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يحجب ويمشي امامه ويستره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام ويلبسه نعليه اذا قام ، فاذا جلس ادخلهما في ذراعيه . (ومن) السابقين الأولين ابو ذر الغفاري وكان من اعراب البادية فصيحا حلو الحديث ولما بلغه مبعث رسول الله قال لاخيه : اركب الى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم انه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني ، فانطلق الاخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ثم رجع الى ابي ذر فقال : رايته يأمر بمكارم الاخلاق ويقول كلاما ما هو بالشعر ، فقال ما شفيتني مما اردت . فتزوّد وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه وكره ان يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله ؛ حتى اذا ادركه الليل رآه علي فعرف انه غريب فأضافه عنده ولم يسأل احد منهما صاحبه عن شيء « على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه الا بعد ثلاث) فلما اصبح احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى امسى فعاد الى مضجعه فمر به عليٌ فقال . اما آن للرجل ان يعرف منزله الذي اضيف به بالأمس ؛ فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منها صاحبه عن شيء . حتى اذا كان اليوم الثالث عاد على مثل ذلك ثم قال له علي : الا تحدثني ما الذي

اقدمك ؟ قال : ان اعطيتني عهداً وميثاقا لترشدني فعلت ، ففعل فأخبره ، قال: فانه حق وهو رسول الله فاذا اصبحت فاتبعني فاني ان رايت شيئاً اخافه عليك قمت كأني اريق الماء فان مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل . فانطلق يتبع اثره حتى دخل على النبي ودخل معه فسمع من قوله واسلم مكانه ، فقال له النبي ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك امري ، قال : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى اتى المسجد فنادى بأعلى صوته اشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، فقام القوم فضربوه حتى اضجعوه واتى العباس فأكب عليه وقال : ويلكم اولستم تعلمون انه من غفار ؟ وان طريق تجارتكم الى الشام عليه ! فأنقذه منهم . ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكب العباس عليه (رواه البخاري) . كان رضي الله عنه من اصدق الناس قولا وازهدهم في الدنيا «ومن» السابقين سعيد بن زيد العدوى القرشي وزوجه فاطمة بنت الخطاب اخت عمر وام الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبدالمطلب ، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عم رسول الله ﷺ . وأبو سلمة بن عبدالله بن عبد الأسد المخزومي القرشي ابن عمة رسول الله ﷺ وزوجه أم سلمة ؛ وعثمان بن مظعون الجمحي القرشي وأخوه قدامة وعبدالله ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي القرشي (ومن) السابقين الأولين خالد بن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس الأموي القرشي . كان أبوه سيد قريش إذا اعتم لم يعتم قرشي إجلالا له ، وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها ، فجاء اليه وقال إلام تدعو يا محمد ؟ قال : أدعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له . وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الى والديك ، وألا تقتل ولدك خشية الفقر ، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وألا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق ، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأن توفي الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل في قولك ولو حكمت على ذوى قرباك ، وأن توفي لمن عاهدت . فأسلم رضي الله عنه وحينئذ غضب عليه أبوه

وآذاه حتى منعه القوت فانصرف الى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة . وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد .
وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في دين الاسلام ولم يكن مع رسول الله ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ؛ وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوي الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله ، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه السلام كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم والذين اتبعوه من الموالى اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالا وأنعم عيشة ، اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى .

الجهر بالتبليغ

مضت كل هذه المدة والنبي عليه السلام لا يظهر الدعوة في مجامع قريش العمومية . ولم يكن المسلمون يتمكنون من اظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش ، فكان كل من أراد العبادة ذهب الى (١) شعاب مكة يصلي مستخفيا . ولما دخل في الدين (٢) ماربو على الثلاثين وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم اختار لذلك دار الأرقم بن أبي الارقم ـ وهو ممن ذكرنا اسلامهم ـ ومكث عليه السلام يدعو سراً حتى نزل عليه قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ فاصْدعْ بمَا تُؤمَرُ وأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ ﴾ فبدل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ممتثلا أمر ربه واثقاً بوعده ونصره . فصعد على الصفا فجعل ينادي : يابنى فهر ! يابنى عدىّ ! لبطون قريش ، فجعل الرجل اذا لم يستطع

---

(١) الطريق في الجبل مصباح : ص ١٤٣
(٢) بالشيء يربو اذا زاد مصباح ص ١٠٠

أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر ، فجاء ابو لهب بن عبد المطلب وقريشا فقال عليه السلام ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ماجربنا عليك كذبا . قال ، فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال ابو لهب : تبالك ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله في شأنه ﴿ تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ ، ماأَغنى عَنْه مالُهُ وما كَسَبَ ، سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ وامرأته حَمالة الْحَطبِ في جيدِها حبْلٌ منْ مَسَد ﴾ والقصد من حمل الحطب المشي بالنميمة لانها كانت تقول على رسول الله الا كاذيب في نوادي النساء . ثم نزل عليه في سورة الشعراء (وأنْذِرْ عشيرَتكَ الأقْرَبين) وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف (واخْفِضْ جناحك لمن اتبعكَ من المُؤمنين فانْ عصوْك) أي العشيرة والاقربون (فقُلْ انيّ بريءٌ ممّا تعْملون) فجمعهم عليه السلام وقال لهم : ان الرائد لايكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذي لا اله الا هو اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءاً ، ؛ وانها لجنة ابدا أو لنار أبدا . فتكلم القوم كلاما لينا غير عمه أبى لهب الذي كان خصما لدودا فانه قال : خذوا على يديه قبل ان تجتمع عليه العرب فان سلمتوه اذن ذللتم ، وان منعتموه قتلتم . فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع .

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش وإستهزأوا في مجالسهم ، فكان اذا مر عليهم يقولون : هذا ابن ابي كبشة يكلم من السماء ! وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء لايزيدون على ذلك ، فلما عاب آلهتهم وسفه عقولهم وقال لهم : والله ياقوم لقد خالفتم دين أبيكم ابراهيم ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم فذهبوا الى عمه أبى طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من ايدي اعدائه فطلبوا منه ان يخلى بينهم وبينه أو يكفه عما يقول : فردهم رداً جميلا

فانصرفوا عنه ومضى رسول الله لما يريده لا يصده عن مراده شيء . فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشوا الى أبي طالب مرة اخرى وقالوا له ان لك سناً وشرفا ومنزلة منا وانا قدطلبنا منك أن تنهي ابن اخيك فلم تنهه عنا وانا والله لانصبر على هـذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فانهم كانوا اذا احتجوا بالتقليد في استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له قال تعالى في سوره البقرة ؛ (واذا قيل لهمُ اتبعوا ما انزل اللهُ قالوا بل نتبعُ ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون) وقال في سورة المائدة (واذا قيل لهمُ تعالوْ الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدونَ) وقال في سوره لقمان (واذا قيلَ لهمُ اتبعوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كانَ الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) وقال في سورة الزخرف في بيان حجتهم الداحضة (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمةٍ وانا على آثارهم مهتدونَ) . ولما شبههم بمن قبلهم من الامم في هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال . (قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالو انا بما ارسلتم به كافرونَ) فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك الى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية فهاج ذلك اضغانهم وقالوا لابى طالب : اما ان تكفه او تنازله واياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين ، ثم انصرفوا فعظم على ابى طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلان ابن اخيه فقال له : يا ابن اخي ان القوم جاءوني فقالوا لى كذا فأبق على نفسك ولا تحملني من الامر مالا اطيق ، فظن الرسول ان عمه خاذله فقال : والله ياعم لو وضعو الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هـذا الامر مافعلت حتى يظهره الله او اهلك دونه ؛ ثم بكى وولى فقال ابو طالب اقبل يابن اخي ، فأقبل عليه فقال : اذهب فقل مااحببت والله لا أسلمك .

الايذاء

ورای رسول الله من المشركين كثير الاذى وعظيم الشدة ، خصوصاً اذا ذهب الى الصلاة عند البيت ، وكان اعظم اذى لرسول الله جماعة سموا لكثرة اذاهم بالمستهزئين (فاوّلهم) واشدهم ابو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي قال يوماً : يامعشر قريش ان محمداً قد اتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه احلامكم وسب آبائكم اني اعاهد الله لاجلسن له غداً بحجر لا اطيق حمله ، فاذا سجد في صلاته رضخت به راسه فاسلموني عند ذلك او امنعوني فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح اخذ حجراً ، كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صلاته وقريش في انديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد عليه السلام احتمل ابو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام اليه رجال من قريش فقالوا مالك ياأبا الحكم ؟ قال قمت اليه لأفعل ماقلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الابل والله مارأيت مثله قط همَّ بي ان يأكلني ! فلما ذكر ذلك لرسول الله قال ذاك جبريل ولو دنا لأخذه ، وكان ابو جهل كثيراً ما ينهى الرسول عن صلاته في البيت فقال له مرة بعد ان رآه يصلي ألم انهك عن هذا ؟ فأغلظ له رسول الله القول وهدّده فقال أتهددني وانا اكثر اهل الوادي نادياً فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة اقرأ (كلاّ لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصيةٍ كاذبة خاطئة فليدعُ ناديه سندعُ الزّبانية كلّا لا تطعْه واسجدْ واقترب .)

ومن اذيته للرسول ماحكاه عبدالله بن مسعود من رواية البخاري قال كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي فقال ابو جهل : ألا رجل يقوم الى فرث جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي ﷺ وهو

ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل عليه السلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته ، فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال : اللهم عليك بالملاء من قريش وسمى اقواما ، قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر . ومما حصل لرسول الله مع ابي جهل ان هذا ابتاع اجمالا من رجل يقال له الأراشي فمطله بأثمانها فجاء الرجل بجمع قريش يريد منهم مساعدة على اخذ ماله فدلوه على رسول الله لينصفه من ابي جهل استهزاء لما يعلمونه من افعال ذلك الشقي بالرسول فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على ابي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال محمد فخرج منتقعاً لونه فقال له الرسول : اعط هذا حقه ، فقال ابو جهل لا تبرح حتى تأخذه فلم يبرح الرجل حتى اخذ دينه . فقالت قريش : ويلك يا ابا الحكم مارايناا مثل ما صنعت ؟ قال : ويلكم والله ما هو الا ان ضرب على بابي حتى سمعت صوتاً ملئت منه رعباً وأنَّ فوق رأسي فحلاً من الابل ما رأيت مثله (ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبدالمطلب عم رسول الله كان أشدَّ عليه من الأباعد فكان يرمي القذر على بابه لانه كان جاراً له فكان الرسول يطرحه ويقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ! ! وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجه أم جميلة بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله وتتكلم فيه بالنمائم وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب . (ومن المستهزئين) عقبة ابن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله وكان يعمل معه كأبي لهب صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال عليه السلام : والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد فبلغ ذلك أبيَّ ابن خلف الجمحي القرشي وكان صديقاً له فقال : ما شيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له . قال أبيٌّ : وجهي من وجهك حرام إن لقيت

محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق في وجهه وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسـول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه في سورة الفرقان ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ ومن اشدّ ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال : بينما النبي يصلي في حجر الكعبة إذ اقبل عقبة ابن ابي معيط فوضع ثوبه في عنق رســول الله فخنقه خنقاً شديداً فأقبل ابو بكر حتى اخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ومن جماعة المستهزئين العاص بن وائل السهمي القرشي والد عمرو ابن العاص كان شديد العداوة لرسول الله وكان يقول : غرّ محمد اصحابه ان يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر فقال الله ردا عليه في دعــــواه في سورة الجاثية : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ وكان عليه دين لخباب بن الارت احد رجال المسلمين فتقاضاه إياه فقال العاص : اليس يزعم محمد هذا الذي انت على دينه ان في الجنة ما يبتغي اهلها من ذهب او فضة او ثياب او خدم ؟ قال خباب بلى ! قال فانظرني الى هذا اليــــوم فسأوتي مالاً وولداً واقضيك دينك ، فأنزل الله في سورة مريم ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَداً وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ . ومن جماعة المستهزئين الاسود بن عبد يغوث الزهري القرشي من بني زهرة اخوال رسول الله كان اذا راى اصحاب النبي مقبلين يقول : قد جاءكم ملوك الارض ، استهزاء بهم لانهم كانوا متقشفين : ثيابهم رثة ؛ وعيشهم خشن ، وكان يقول لرسـول الله سخرية : اما كلمت اليوم من السماء ؟ (ومنهم) الاسود بن عبدالمطلب الاسدي ابن عم خديجة كان هو وشيعته اذا مرّ عليهم المسلمون يتغامزون ، وفيهم نزل

في سورة التطفيف ﴿ إنّ الّذين اجْرمُوا كانُوا من الذين آمَنُوا يَضْحَكُون وإذا مرُّوا بِهِمْ يتغامَزُون وإذا انْقَلَبُوا إلى اهلِهِمْ انقلبُوا فكِهِين وإذا راوهُمْ قالُوا إنّ هؤلاء لضالّون ﴾ . ومنهم الوليد بن المغيرة عم ابي جهل كان من عظماء قريش وفي سعة من العيش سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ فقال لقومه بني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجنّ وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنّ اعلاه لمثمر وإنّ اسفله لمغدق وإنه يعلو وما يُعلى ، فقالت قريش: صبأ والله الوليد لتصبأنّ قريش كلها ، فقال ابو جهل : انا اكفيكوه فتوجه وقعد اليه حزيناً وكلمه بما احماه ، فقام فأتاهم فقال تزعمون انّ محمداً مجنون فهل رايتموه يهوّس ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رايتموه يتكهّن ؟ وتزعمون انه شاعر فهل رايتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب فقالوا في كل ذلك اللهم لا ، ثم قالوا فما هو ؟ ففكر قليلاً ثم قال : ما هو إلا ساحر ، اما رايتموه يفرّق بين الرجل واهله وولده ومواليه ، فارتجّ النادي فرحاً ، فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدّثر مخاطباً لرسوله ﴿ ذَرْني وَمنْ خلقتُ وحيداً وَجعلتُ لهُ مالاً ممدُوداً وَبنِينَ شُهوداً ومهّدتُ لهُ تمهيداً ثم يطمعُ أنْ أزيدَ كلا إنهُ كان لآياتِنا عنيداً سأرهِقهُ صعوداً إنهُ فكّر وقدّرَ فقُتِلَ كيف قدّرَ . ثم قُتِلَ كيفَ قدّر . ثم نظرَ ثم عبسَ وبسرَ ثم أدْبرَ واسْتكبرَ فقالَ إنْ هذا إلاّ سِحرٌ يُؤْثرُ إنْ هذا إلا قوْلُ البشرِ . سأُصْلِيه سَقرَ ﴾ وأنزل فيه أيضاً في سورة ن ﴿ ولا تُطِعْ كلّ حَلّافٍ ﴾ كثير الحلف . وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف ﴿ مَهِينٍ ﴾ حقير ، وأراد به الكذاب لانه حقير في نفسه ﴿ همّازٍ ﴾ عياب طعام ﴿ مشّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ينقل الاحاديث للافساد بين الناس ﴿ مَنّاعٍ لِلخيرِ مُعتدٍ أثيمٍ عُتُلٍّ ﴾ غليظ جاف ﴿ بعدَ ذلك زنيمٍ ﴾ دخيل ﴿ أنْ كان ذا مالٍ وبنين إذا تُتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوّلين سنَسِمُهُ على الخُرْطوم ﴾ كناية عن الاذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه ، ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل على العظمة

كالانفة وهي الحمية . فالوسم على أشرف عضو دليل الاذلال والاهانة (ومن) المستهزئين النضر بن الحارث العبدري من بني عبد الدار بن قصي كان إذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر . هلموا يا معشر قريش فاني أحسن منه حديثاً ثم يحدث عن ملوك فارس وكان يعلم أحاديثهم ويقول ما أحاديث محمد إلا أساطير الاولين ، وفيه نزل في سورة لقمان ﴿ ومنَ الناسِ منْ يشتري لهوَ الحديثِ ليُضلَّ عنْ سبيلِ الله بغيرِ علمٍ ويتَّخذها هزُواً أولئكَ لهمْ عذابٌ مهينٌ وإذا تُتلى عليه آياتُنا ولَّى مستكبراً كأنْ لمْ يسمعْها كأنَّ في أذُنيه وقْراً فبشِّرهُ بعذابٍ أليمٍ ﴾ وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى في التنزيل في سورة الحجر ﴿ إنّا كفيناكَ المُستهزئينَ الذينَ يجعلونَ معَ اللهِ إلهاً آخرَ فسوفَ يعلمون ﴾ وقد وضع الله جلّ ذكره الوعد في صورة الماضي للتحقق من وقوعه لان الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة فمنهم من قتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة .

اسلام حمزة

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لاسلام عمه حمزة بن عبد المطلب فقد أدركته الحمية عندما عيرته بعض الجواري بايذاء أبي جهل لابن أخيه فتوجه الى ذلك الشقي وغاضبه وسبه وقال كيف تسب محمداً وأنا على دينه ؟! ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً وأشدهم غيرة على المسلمين وأقوام شكيمة على أعداء الدين حتى سمي أسد الله .

وكما أوذي الرسول عليه الصلاة والسلام أوذي أصحابه لاتباعهم له خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه ، وكل هذا الاذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتي اتم امره على ايديهم وصاروا ملوك الارض بعد ان كانوا مستضعفين فيها كما

قال جلّ ذكره في سورة القصص ﴿ ونُريدُ انْ نمُنّ على الذينَ استُضعِفوا في الارض ونجعلَهم ائمةً ونجعلَهمُ الوارثينَ ﴾ وقد حقق ما اراد (ومن) الذين اوذوا في الله بلال بن رباح كان مملوكاً لامية بن خلف الجمحي القرشي فكان يجعل في عنقه حبلا ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول : احد ، احد . لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله . وكان امية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء (وهي الرمل الشديد الحرارة ولو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت) ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت او تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول : احد ، احد . مرّ به ابو بكر يوماً فقال يا امية اما تتقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ قال انت افسدته فأنقذه مما ترى . فاشتراه منه واعتقه فأنزل الله فيه وفي امية في سورة الليل (فأنذرتكم نارا تلظى لايصلاها إلا الأشقى) أمية بن خلف (الذي كذب وتولى وسيجنبها الاتقى) الصديق (الذي يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى إلا أبتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى) بما يعطيه الله في الاخرى جزاء أعماله . وقد نبه الله جلّ ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا شرفا وفضلا للصديق رضي الله عنه وأرضاه . وقد أعتق غير بلال جماعة من الارقاء اسلموا فعابهم مواليهم (ومنهم) حمامة امّ بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدري ما يقول ، وابو فكيهة كان عبدا لصفوان بن امية بن خلف (ومنهم) امراة تسمى زنيرة عذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك الا ايمانا . وكان ابو جهل يقول : الا تعجبون لهؤلاء واتباعهم لو كان ما أتى به محمد خيرا ما سبقونا اليه أفتسبقنا زنيرة الى رشد فأنزل الله في سورة الأحقاف (وَقالَ الذينَ كفَروا للّذينَ آمنُوا لوْ كانَ خيراً ما سبقُونا اليهِ وَاذْ لمْ يهتدوا بهِ فسيقولونَ هذَا افكٌ قديمٌ) (ومن) أعتق أبو بكر بعد شرائه أمّ عنيس كانت أمة لبني زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث (ومن) عذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله ﷺ فقال صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة اللهم اغفر

لآل ياسر وقد فعلت أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله . وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر ، فان أبا جهل كان يجعل له دروعا من الحديد في اليوم الصائف ويلبسه اياها ، فقال المسلمون . كفر عمار فقال عليه السلام . عمار ملىء ايمانا من فرقه الى قدمه ، وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد فقال جلَّ ذكره في سورة النحل ؛ (مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعدِ ايمانهِ الاّ مَن أكرِهَ وَقلبهُ مُطمئنٌ بالايمانِ ولكنْ مَنْ شرحَ بالكُفرِ صدْراً فعليهم غَضبٌ مِنَ اللهِ وَلهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ) (وممن أوذي في الله) خباب بن الأرت سبي في الجاهلية فاشترته أمّ أنمار وكان حدّادا وكان النبي يألفه قبل النبوّة فلما شرفه الله بها أسلم خبـاب فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك الا ايمانا ، وجاء خباب مرة الى رسول الله وهو متوسد بردة في ظلّ الكعبة فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد عليه السلام محمرا وجهه فقال : انه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه . وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسيرَ الراكب من صنعاءَ الى حضرموت(١) لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، قال ذلك عليه السلام وهو في هذه الحال الشديدة لا يتصوّر فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظـرة أو سعادة مستقبله اللهم الا أن ذلك وحي يوحي اليه ، ثم أنزل الله تعالى تثبيتا للمؤمنين أول سورة العنكبوت (آلم أحسبَ النّاس أن يُتركوا أنْ يَقولوا آمنا وهمْ لا يُفتنونَ وَلقد فتنّا الذينَ مِنْ قَبلهمْ فَليعلمنَّ اللهُ الّذينَ صدقوا وَليعلمنَّ الـكاذِبينَ) . (وممن أوذى في الله) أبو بكر الصدّيق . ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة الى جهة الحبشة فخرج حتى أتى برك الغماد فلقيه ابن الدغنة ، وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة ، فقال : الى أين يا أبا بكر ؟ فقال : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ،

---

(١) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر ، وقيل موضع في أقصى أراضى هجر . ا ه ياقوت

فقال ابن الدغنة : مثلك يا أبا بكر لا يخرج ؛ انك تكسبُ المعدومَ وتصلُ الرحمَ وتحملُ الكلَّ وتقرى الضيف وتعينُ على نوائب الحق فأنا لـك جار فارجع وأعبد ربك ببلدك : فرجع وارتحل ابن الدغنه معـه وطاف أشراف قريش فقال لهم : أبو بكر لا يخرج مثله ، أتخرجون رجلا يكسبُ المعدومَ ويصلُ الرحمَ ويحملُ الكلَّ ويقرى الضيفَ ويعينُ على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا له : مر أبا بكر فليعبـد ربه في داره فليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكـر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقـذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان رجلا بكاء لا يملك عينيه اذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا الى ابن الدغنـة فقدم عليهم فقالوا : انا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبـد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيـه . وانا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل ، وان أبي الا أن يعلن ذلك فسله أن يردَّ اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع الى ذمتي فاني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر فاني أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله (رواه البخارى) وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم الى أبي بكر رضي الله عنه . وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذية لحقته ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم ايمانهم فانهم لم يسلموا لغرض دنيوى يرجون حصوله فيسهل

ارجاعهم ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الايمان فرأوا كل شيء دونه سهلا

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعا بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم اجتمعوا للشورى فيما بينهم فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مطاعا في قومه : يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً عله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ فقالوا يا أبا الوليد قم اليه فكلمه . فذهب الى رسول الله وهو يصلي في المسجد ، وقال : يا ابن اخي إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا وإنك قد اتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضي من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع

فقال يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم ، قال فاسمع مني فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت :

(بِسم ألله الرَّحمن الرحيم حم تَنزيلٌ مِنَ الرَّحمن الرَّحيم كتابٌ فُصلتْ آيَاتُهُ قرآناً عَربياً لقوم يَعلمُونَ بَشيراً وَنذيراً فأعرَضَ أكثرُهُمْ فَهمْ لا يَسمعونَ وقالُوا قلوبُنا في أكنّة (١) مما تدعُونا اليه وفي آذانِنا

---

(١) أكنة : والاكنة جمع كنان وهو الغطاء .

وَقرٌ (١) وَمِنْ بَينِنا وَبينكَ حجَابٌ فاعمَل إننا عاملونَ قل انما أنا بَشرٌ مثلكم يُوحي اليَّ أنما الهُكم الهٌ واحدٌ فاستقيمُوا اليه واستغفروه وَويلٌ للمشركينَ الذينَ لا يؤتونَ الزكاة وهُم بالآخرة كافرونَ انَّ الذينَ آمَنوا وَعملوا الصالحاتِ لهمْ أجرٌ غيرُ ممنونٍ قل أئنكُمْ لتكفرُونَ بالذي خلقَ الأرضَ في يومينِ وتجعلونَ له أنداداً ذلكَ ربُّ العالمينَ وجعلَ فيها رواسيَ من فوقها وبارَكَ فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعةِ أيامٍ سواءً للسائلينَ ثم استوى الى السَّماء وهيَ دخانٌ فقالَ لها وللأرض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعينَ فقضاهنَّ سبعَ سموَاتٍ في يومين واوحى في كلّ سماء امرها وزينّا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقديرُ العزيز العليم فان اعرضوا فقل انذرتُكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرُّسل من بينِ ايديهم ومن خلفهم الا تعبُدوا الا الله قالوا لو شاءَ ربُّنا لأنزلَ ملائكة فانّا بما ارسلتم به كافرونَ)

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم ان يكف عن ذلك . فلما رجع عتبة سألوه ، فقال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر . يا معشر قريش اطيعوني فاجعلوه لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فعزه عزكم ؛ فقالوا لقد سحرك محمد . فقال هذا رأيي . ثم عرضوا عليه بعد ذلك ان يشاركهم في عباداتهم ويشاركوه في عبادته ، فأنزل الله في ذلك (قلْ يا أيُّها الكافرونَ لا أعبدُ ما تعبدونَ ولا أنتمْ عابدونَ ما أعبدُ ولا أنا عابدٌ ما عبدتمْ ولا أنتمْ عابدونَ ما أعبدُ لكمْ دينُكمْ وليَ دينِ) فلا تتوهموا أني أجيبكم لطلبكم من الاشراك بالله فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد فيأتي بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله

---

(١) الوقر : بالفتح الثقل وقرىء بالكسر هنا تبيان كأنها في غلف واغطية تمنع من نفوذه فيها تفسير الكشاف للزمخشري الجزء الرابع ص ١٤٤

جوابا لهم في سورة يونس (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) . وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به وهو أنه بينما الرسول عليه السلام مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين اذ اقبل عليه عبدالله ابن أم مكتوم الأعمى وهو ممن أسلموا قديماً والنبي مشتغل بالقوم ولقد لقى منهم مؤانسة حتى طمع في اسلامهم فقال له عبدالله يا رسول الله علمني مما علمك الله ، وأكثر عليه القول فشق ذلك على الرسول وكره قطعه لكلامه وخاف عليه السلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر . عنه قلب اولئك الأشراف فاعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى وما يُدرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أو يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) فما عبس رسول الله ﷺ بعدها في وجه فقير . وكان اذا أقبل عليه عبدالله بن أم مكتوم يقول له : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي

ولما رأى المشركون ان هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا في باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات فاجتمعوا وقالوا : يا محمد ان كنت صادقا فأرنا آية نطلبها منك وهي أن تشق لنا القمر فرقتين ، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين ، فقال رسول الله : اشهدوا . وهذه القصة رواها عبدالله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة ، ورواها عبد الله بن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر . وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى في أول سورة القمر (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم لقد سحركم ابن ابي كبشة فأنزل الله فيهم (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) . ثم سالوا الرسول بعد ذلك

آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد ، فمنها أن قالوا كما في سورة الاسراء (لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتى تفجُرَ لنا مِنَ الأرضِ ينبوعاً أوْ تكونَ لكَ جنّةٌ مِنْ نخيلٍ وعنبٍ فتفجِّرَ الانهارَ خلالها تفجيراً أوْ تُسقط السّماءَ كما زعمْتَ علينا كِسَفاً أوْ تأتيَ بالله والملائكةِ قبيلاً أوْ يكونَ لكَ بيتٌ مِنْ زُخرفٍ أوْ ترقى في السّماءِ ولَنْ نُؤمِنَ لِرُقيِّكَ حتى تُنزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه)ولم يجبهم الله إلا بقوله : ﴿ قُلْ سُبحانَ ربي هلْ كُنتُ إلاّ بَشَراً رسولاً ﴾ لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد ، فلا يؤمنون مها جاءهم من البينات كما قال جل ذكره في سورة الأنعام ﴿ وما يُشعِرُكُمْ أنّها إذا جاءتْ لا يُؤمِنُونَ ﴾ وكيف يرجى الخير ممن قالوا كما في سورة الأنفال ﴿ ألّلهُمَّ إنْ كانَ هذا هوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فأمْطِرْ علَيْنا حِجارةً مِنَ السّماءِ أو ائْتِنا بِعذابٍ أليمٍ ﴾ ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه ، وهذه سنة من سنن الانبياء اذا رأوا من طلاب الآيـات عناداً وأنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله انفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم . وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ وما منَعَنا أنْ نُرْسِلَ بالآياتِ إلاَّ أنْ كذَّبَ بِهـا الأوّلُونَ ﴾ . وقد حصل للمسيح عليه السلام أنه لما وقف أمام هـيردوس طلب منه آية فلم يجبه الى طلبه ، فلما رأى ذلك سخر منه وردّه الى عدوّه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه وذلك مـذكور في الاصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا . (هذا) ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحوّلوا الى سياسة القوّة التي اختارها قوم ابراهـيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا ﴿ حرّقوه وانصُروا آلهتَكُمْ ﴾ كما في سورة الأنبياء . أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه السلام ولم يتركوا باباً إلا ولجوه فقال عليه السلام لأصحابه : تفرّقوا في الارض فانّ الله سيجمعكم فسألوه عن الوجه فأشار الى الحبشة .

هجرة الحبشة الاولى (١)

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار عليه السلام . وهذه هي أوّل هجرة من مكة ، وعدّة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة ، وهم : عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، وأبو سلمة وزوجه أمّ سلمة ، وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبي رهم وزوجه أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وسهل بن البيضاء ، والزبير بن العوّام . وجلهم من قريش وكان عليهم فيما روى ابن هشام عثمان بن مظعون فساروا على بركة الله ولما انتهوا الى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم الى مقصدهم فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين ولم يبق مع النبي عليه السلام إلا القليل .

اسلام عمر

وفي ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب العدوي القرشي بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدّة أذاهم ، وقالت ليلى إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها : كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا فلما ركبت بعيري أريد أن أتوجه الى أرض الحبشة إذا أنا به فقال لي : الى أين يا أم عبدالله ؟ فقلت : قد آذيتمونا في ديننا ! نذهب في أرض

---

(١) فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ومن عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم لو خرجتم الى ارض الحبشة فان فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . اهـ   تهذيب السيرة ١ ــ ٩٢

الله حيث لا نؤذى ، فقال : صحبكم الله . فلما جاء زوجي عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال : ترجين أن يسلم ؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ؟ وذلك لما كان يراه من قسوته وشدّته على المسلمين ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى ﷺ فانه قال قبيل إسلامه : اللهم أعزّ الاسلام بعمر . وكان إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها وقد حقق الله باسلامه ما رجاه عليه السلام فقد قال عبدالله بن مسعود من رواية البخاري (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) فانه طلب من رسول الله ان يعلن صلاته في المسجد ففعل ؛ وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه فجاء العاص ابن وائل السهمي وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير فقال لعمر : ما بالك ؟ فقال زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت ، قال لا سبيل اليك فأنا لك جار ، فأمن عمر وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي فقال : أين تريدون ؟ قالوا نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ ، قال لا سبيل اليه . فرجع الناس من حيث أتوا .

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الاقامة فيها لأنهم قليلو العدد — وفي الكثرة بعض الأنس — وأضف إلى ذلك أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة .

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سببا في رجوع مهاجري الحبشة وهي أنه بلغهم اسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم وتكلم فيها كلاما حسنا عن آلهتهم حيث قال بعد (أفرأيتمُ اللاتَ والعُزّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى) تلك الغرانيق (جمع غرنوق ، وهي الطيور . ويراد بها

الملائكة) العلى وإنَّ شفاعتهنَّ لترتجى : فسجدوا إعظاما لذلك وفرحا وهذا مما لا تجوز روايته إلا عن قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته . وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر . أما الحديث فسنده ومتنه قلقان ، فالسند قال فيه القاضي عياض في الشفاء لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم ، وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحا أثناء ذمّ ويجوز ذلك عليهم فبعد ذكر الأصنام قال (إنْ هِيَ إلاّ أسماءٌ سمّيتموها أنتُمْ وآباؤكُمْ ما أنزلَ اللهُ بِها مِنْ سُلطانٍ) فالكلام غير منتظم ولو كان ذلك قد حصل لاتخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة فكيف بهذه ؟ وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة الى الكعبة وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سماهم الله سفهاء وأنزل فيهم سورة البقرة (سَيقولُ السُّفهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلاّهُمْ عَنْ قِبلَتِهِمُ التي كانُوا عَليْها) ولكن لم يسمع عن أي واحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم أن قال مالك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مهج الرجال على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سببا لرجوع مهاجري الحبشة يقولون أثناء كلامهم ان الهجرة كانت في رجب والرجوع كان في شوال ونزول سورة النجم كان في رمضان فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذلك الزمن للذهاب من مكة الى الحبشة والاياب منها لأنه لم يكن اذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير في البحر ولا تلغراف يوصل خبر اسلام قريش لمن بالحبشة ؛ فلا غرابة بعد ذلك ان قلنا ان هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ، ولكن الحمد لله فقد منَّ علينا بحفظ كتابنا المجيد الذي يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب ففي السورة نفسها (وَما يَنطقُ عَنِ الهوَى) والذي يلقيه الشيطان من

أقبح ما يروى فكيف يقول عليه السلام ، أو يجري على لسانه ما يبث الشكوك في الوحي ؟ الأمر الذي يريده السفهاء ردّ الله كيدهم في نحرهم .
والذى ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود ما رواه عبدالله بن مسعود أن النبي عليه السلام قرأ والنجم فسجد وسجد من كان معه الا رجلا أخذ كفا من حصى وضمه على جبهته وقال . يكفيني هذا ؛ فرأيته قتل بعد كافرا وليس في هذا الحديث أي دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون بل الذي يفيده قوله فرأيته قتل بعد كافراً أنه كان مسلما ثم رأيته ارتد ، وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا : منهم على ابن امية بن خلف . (هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة الى مكة لم يتمكن من الدخول اليها الا من وجد له مجيرا فدخل ابو سلمة في جوار خاله ابي طالب ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة وقد ردّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين فلم ير ان يكون مرتاحا واخوانه معذبون .

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بني عبد مناف الذين منهم الرسول علية السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك . ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيدا من شبانهم يتبناه ويسلم اليهم ابن أخيه . فقال : عجبا لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ فلما راوا ذلك اجمعوا امرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولدى عبد مناف واخراجهم من مكه والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدا للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب ابي طالب ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا ابا لهب فانه كان مع قريش وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل

اقي عبد مناف فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر وكان اعــداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمّة المانعين ابو لهب .

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب ، فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس والمقداد بن الأسود وعبدالله بن مسعود وعبيدالله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن وهم الاشعريون أبو موسى وبنو عمه . ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشي ليسلم المسلمين فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشي الا اهانة لما خاطبوه بـه من اخفار ذمته في قوم لاذوا به ، أما بنو هاشم فمكثوا في الشعب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام الا خفية .

نقض الصحيفة

وقد خمسة من اشراف قريش يطالبون بنقض هـذه الصحيفة الظـالمة ، وهم هشام بن عمرو بن الحارث العامرى وهو أعظمهم في ذلك بلاء ، وزهير بن أبي امية المخزومى ابن عمـة الرسول عاتكة ، والمطعم ابن عدى النوفلى ، وأبو البخترى بن هشام الاسدي ؛ وزمعة بن الاسود الاسدي واتفقوا على ذلك ليلاً . فلما اصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم اقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنـأ كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ! والله لا أقعد حتى تشق لهذه الصحيفة الظالمـة القاطعة . فقـال

ابو جهل : كذبت ، فقال زمعة لأبي جهل : أنت والله أكذب ! مارضينا كتابتها حين كتبت ، فقال أبو البختري : صدق زمعة ، وقال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك . وصدق على ما قيل هشام بن عمرو فقام اليها (١) المطعم بن عدى فشقها وكانت الارضة قد اكلتها فلم يبق فيها الا ما فيه اسم الله . وقد اخبر النبي عليه السلام عمه أبو طالب بذلك قبل ان يفعل ماذكر فخرج القوم الى مساكنهم بعد هذه الشدة .

وفود نجران

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجري الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ذكر منها في كتبهم ، وكانوا عشرين رجلا أو قريبا من ذلك فقرأ عليهم القرآن فآمنو كلهم فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركبا أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم ! فقالوا سلام عليكم لا نجاهلكم لكم ماانتم عليه ولنا ما اخترناه فأنزل الله في ذلك قوله في سورة القصص (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ★ وإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ★ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ★ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة وبالكذب أخرى وبالجنون طورا وبالكهانة تارة كل ذلك شأن العاجز المعاند الذي لا يتحى لمزيد عناده أن يقول (اللهم إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدكَ فَأَمْطِرْ عَلينا حِجَارَةً مِنَ السَّماءِ أو ائْتِنَا بِعَذابٍ أليمٍ) .

---

(١) وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يزعمون ا هـ تهذيب السيرة ١ ــ ١١٦

وفاة خديجة رضي الله عنها

وبعد خروجه عليه السلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجه بنت خويلد زوجه رضي الله عنها كان عليه السلام كثيراً مايذكرها ويترحم عليها . ولا غرابة فهي أول نفس زكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم . فمنها زينب وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة ، ومنها رقية وأم كلثوم تزوجها عثمان ، الاولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها الى الحبشه ، والثانية بالمدينه بعد ان ماتت اختها : ومنها فاطمة وهي أصغر بناته تزوجها علي بن أبي طالب . وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغاراً ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلا . ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد ، ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله ﷺ وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر .

زواج سودة

وعقد عليه السلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد ان توفي عنها زوجها وابن عمها السكران ابن عمرو وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني عمها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنه ، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به ولو تركت لقومها مع ماهم عليه من الغلظة وكراهة الاسلام لفتنوها ، وكرم نسبها في قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسباً وشرفاً .

زواج عائشة رضي الله عنها

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها ولم يتزوَّج عليه السلام بكراً غيرها ودخل عليها بالمدينة . أما سودة فدخل عليها بمكة .

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفي عمه أبو طالب الذي كان يمنعه من أذى أعدائه ، ومع أنه كان لا يكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته وفيه نزل في سورة القصص ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه . وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لا يخفى فانهم لو بادروا باتباعه لقيل : قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم فجاءوا بهذا الامر المفتري ، ولكن لما رأى المعاندون أنَّ متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته بل من أعدائها احياناً كعثمان بن عفان من بني أمية لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها الابهم إلا دعاويهم الكاذبة التي كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم : ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وكاهن يتكهن بالغيب . وقد سمي رسول الله هذا العام الذي فقد فيه زوجه وعمه عام الحزن . ولما مات ابو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله في حياة أبي طالب واشتدَّ الامر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته . وتملقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ ! فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف إلا أبو بكر فانه تقدَّم وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ !

هجرة الطائف

فلما رأى عليه السلام استهانة قريش به أراد ان يتوجــه الى ثقيف بالطائف (١) يرجو منهم نصرته على قومة ومساعدته حتى يتمم أمر ربه لأنهم أقرب الناس الى مكة وله فيهم حؤولة (٢) ، فان أمُ هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بني سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف ، فلما توجه اليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو ابن عمير الثقفي فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته فردّوا عليه رداً قبيحاً ولم يرَ منهم خيراً ، وحينذاك طلب منهم ألا يشيعوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم لانه أستعان عليهم باعدائهم فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليــه السلام بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه . وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه الى ان انتهى الى شجرة كرم واستظل بها وكانت بجوار بستان لعتبة وشية ابني ربيعة وهما من اعدائه وكانا في البستان فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلاً (٣) (اللهم إني أشكو اليك ضعف قوتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وانت ربي الى من تكلني إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي) فلما رآه ابنا ربيعة رقا له وأرسلا اليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصرانيٌ اسمه عداس فلمـا ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال عداس هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له عليه السلام : من أي البلاد أنت وما دينك ؟ فقال نصرانيٌ من نينوى (٤) فقال له عليه السلام : من قرية الرجـل الصالح

---

(١) بلد في الجنوب الشرقي من مكة .

(٢) من باب قال وحالت الناقة تحول حؤولاً وحال عنه العهد : حؤولاً انقلب . مختار من صحــاح اللغة ١٢٥ .

(٣) عن عبدالله بن جعفر رواه الطبراني والحديث رتبته حسن المناوي ٢ - ١١٩

(٤) بلد على شاطىء دجلة وهي آخر ما ينتهي اليه العراق وامامها مدينة الموصل .

يونس بن متى . قال : وما علمك بيونس فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس فلما سمع ذلك عداس أسلم ، وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال : إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك ، فقال عليه السلام (اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون) فقال جبريل : صدق من سماك الرءوف الرحيم ! ! ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن وهم ممن ينتمون الى موسى صلوات الله عليه فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا الى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله ﷺ وفيهم نزل في سورة الأحقاف ﴿ وإذْ صرَفْنا إليكَ نفراً منَ الجِنِّ يستمعونَ القُرآنَ فلمّا حضروه قالوا أنصِتُوا فلما قُضِيَ ولّوا إلى قومِهِم مُنذِرِينَ ★ قالوا يا قومَنا إنّا سمعنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بعدِ موسى مصدِّقاً لِما بينَ يديه يهدي الى الحقِّ والى طريق مستقيم ★ يا قومَنا أجيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنُوا به يَغفِرْ لكم من ذنوبِكم ويُجِرْكُم من عذاب أليم ومَن لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فليسَ بمُعجِزٍ في الأرضِ وليسَ له مِن دونِهِ أوْلِياءَ أولئك في ضلال مُبين ﴾ وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها ﴿ قل أُوحِيَ إليَّ أنّه استمعَ نفرٌ منَ الجِنِّ فقالوا إنّا سمِعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرُّشدِ فآمنّا به ولن نُشرِكَ بربِّنا أحداً) .

الاحتماء بالمطعم بن عدي

ولما رجع عليه السلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم فأرسل عليه السلام الى المطعم بن عدي نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره فأجابه الى ذلك وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله الى الطائف

فقال له بعض المشركين : أمجير أنت أم تابع ؟ فقال : بل مجير ، قالوا إذن لا تخفر ذمتك .

وفـــد دوس

وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة الطفيل بن عمرو الدوسي من قبيلة دوس عشيرة أبي هريرة الصحابي الشهير وكان الطفيل شريفاً في قومه شاعراً نبيلا فلما قرأ عليه القرآن أسلم فقال له رسول الله : اذهب إلى قومك فادعهم إلى الاسلام . ودعا لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال اللهم اهد دوسا ، فتوجه اليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم . وستأتي وفادته على الرسول مرّة ثانية بقومه في المدينة

الاسراء والمعراج(١)

وقبل الهجرة أكرمه الله بالاسراء والمعراج . أما الاسراء فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته ، وأما المعراج فهو صعوده الى العالم العلوى ، وقد قال جمهور أهل السنة إنّ ذلك كان بجسمه الشريف وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه وتقول من قال إنّ محمدا رأى

---

(١) ان الاسراء والمعراج أمر عجيب في طبيعة الانفس البشرية وان أهم ما يفهمه المؤمن من حقيقة الاسراء والمعراج هي :

١ ـ أن الاسراء بدأ من مكة الى بيت المقدس والمعراج بدأ من بيت المقدس الى السموات السبع الى سدرة المنتهى .

٢ ـ لقاء الحبيب ﷺ برب العالمين وهذا غاية المقصود في الموقف لذا قال تعالى :

فأوحى الى عبده ما أوحى ، فلم يبين المولى ما هو الايحاء تركه هكـــذا حتى تتسرب نفسية المؤمن الكاملة لمعرفته .

٣ ـ فرض الصلوات الخمس وان فرضتها كانت ركعتين ركعتين على طريق التخفيف فلما تمكن حب الاسلام في قلوب الصحابة زيـــدت الصلوات الخمس ـ كما هي المشروعة الان ـ في الحضر واقتصر على الصلوات الخمس بقصرها في السفر وان غاية سيدنا موسى من الامر في التخفيف هي رؤية الرسول ﷺ ومما استفاده من الانوار الالهية .

٤ ـ وان الخبر الذي تلقوه المشركون خبر ليس باستطاعة نفوسهم البشرية أن تتحمل ذلك النبأ فلذا أنكروا بطبيعة الحال بما سمعوا .

٥ ـ وان في هذه البرهة ارتد بعض الصحابة الذين لم يتمكن الايمان الصحيح في قلوبهم لانه لو تمكن حقيقة الايمان والحب الصحيح بالرسول ﷺ ما انكروا ذلك

٦ ـ ان رؤية رسول الله ﷺ السموات السبع وعروجه لسدرة المنتهى ما هو الا لكمال الرسول ﷺ لان طاقته البشرية عندها استعداد كامل لذا تحملت تلك السياحة الكبرى .

٧ ـ أما حكم من ينكر الاسراء فهو كافر بالاجمـــاع لانه انكر حكم ثابت بنص قطعي في القرآن الكريم وان منكر المعراج فهـــو فاسق لانه انكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٨ ـ ان موقف المسلم حينما يمر عليه بسنته تلك الليلة التي مرت على رسول الله ﷺ فانه يقتدي برسول الله ﷺ ويعرج بروحه في صفاء وايمـان متـــين وانه لا يتمكن المسلم من الاقتداء في ليلة ٢٧ من رجب من كل سنة تمر على كل فرد منا بعروج صحيح الا بشرط التربية والسلوك وتخليص العلائق الكلية حتى يتمكن للمؤمن حقيقة الاقتداء برسول الله ﷺ

٩ ـ وأما روايةعائشة بنفي الرؤية فان الله الاجماع على أن رؤية الرسول ﷺ ربه بعين بصره و بصيرته ممكن وقد حصل ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم وهـذه من جملة الخصوصيات للرسول الاعظم ﷺ في الدنيا كما هو موضـــح في كتب العقائد وهاك نصه :

قداتفق اهل السنةعلى ان رؤية الله لم تقع في الدنيا لغير نبينا محمدﷺواختلفوا في وقوعها له عليه السلام والصحيح أنه رأى ربه تعالى بعيني رأسه يقظة ليـلة الاسراء كما عليه جمهور الصحابة قال صاحب الجوهرة

ومنـــه ان ينظر بالابصار   لكن بلا كيف ولا انحصار
للمؤمنين اذ بجائز علقت   هذا وللمختـار دنيا ثبتت

مذكرات التوحيد ص ٤٥

والراجح عند اكثر العلماء انه ﷺرأى ربه سبحانه وتعالى بعيني رأسه لحديث ابن عباس وغيره وهذا لا يوأخذ الا بالسماع منه ﷺ فلا ينبغي ان يتشكك فيه ولما نفت عائشة وقوعها له ﷺ قدم ابن عباس عليها لانه مثبت حتى قال معمر بن راشد . ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس جوهرة التوحيد ص ١٧٥

وفي رواية الترمذي : قال رأى محمد ربه

قال عكرمة : قلت اليس الله يقول لا تدركه الا بصار وهو يدرك الابصـار قال ويحك ذاك اذا تجلى بنوره الذي هو نوره وقد رأى ربه مرتين .

لقد اختلف العلماء : قديما وحديثا في الرؤية وذلك على ثلاثة اقوال :

١ ـ اثبت ابن عباس وطائفة
٢ ـ وتوقف فيه طائفة
٣ ـ وانكرت عائشه كما وقع في صحيح مسلم وجاء مثله عن ابي هـريرة

رضي الله عنه وجماعة وهو المشهور عن ابن مسعود واليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين .

قال النووي : تبعا لغيره لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الاية . وقد خالفها غيرها من الصحابة والصحابي اذا خالف قـــوله غيره من الصحابة لم يكن ذلك القول حجة بالاتفاق .

واما احتجاجها : بقوله تعالى لا تدركه الابصار فجوابه : ان الادراك هو الاحاطة والله تعالى لا يحاط به فاذا ورد النص بنفي الاحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير احاطة كالقمر اذا رآه احد فهو يراه ولا يدرك حقيقته

وقد رجح القرطبي : التوقف في هذه المسألة لانه لا دليل قاطـــع وليست المسألة من العمليات وانما من المعتقدات فلا يكتفي بها الا بالدليل القطعي
وروي عن ابن عباس : انه راه بعينه . وكذا انس وابي ذرو كعب الزهري
راجع زجاجة المصابيح ٤ - ٣٦٢ - ٣٦٨

عن ابن عباس رواه الامام احمد قال الهثيمي رجاله رجال الصحيح رأيت ربي عز وجل ، الحديث رتبته صحيح .

بالمشاهدة العينية التي لم يحتمل الكلـيم ادنى شيء منها او القلبية بمعنى التجـلي التام فقد روي عنه عليه السلام : لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقـرب ولا نبي مرسل والأرجح ان الله جمع له بين الرؤية البصرية والجنانية
المناوي على الجامع الصغير ٤-٦

ربه فقد أعظم القربة على الله . والاسراء مذكورة في القرآن الكريم قال تعالى في أول سورة الاسراء ﴿ سُبحانَ الذي أسرَى بِعبدهِ لَيلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي بَاركنا حَولهُ لنريهُ مِنْ آياتنا إنهُ هوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴾ وأما المعراج فقد ورد في صحيح السنة وأصح أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضي عياض في شفائه عن انس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : اتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ، قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل باناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ، اخترت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل : من انت ؟ قال جبريل ، قيل: ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد بعث اليه ؟ قال قد بعث اليه . ففتح لنا فاذا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير : ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل : من انت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد بعث اليه ؟ قال قد بعث اليه . ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبا بي ودعوا لي بخير . ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا واذا انا بيوسف واذا هو قد اعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير . ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فذكر مثله فاذا انا بادريس فرحب بي ودعا لي بخير قال تعالى في سورة مريم (وَرفعناهُ مَكاناً عَلياً) ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فذكر مثله فاذا انا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير . ثم عرج بنا الى السماء السادسة فذكر مثله فاذا انا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فذكر مثله فاذا انا بابراهيم مسنداً ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك لا يعودون اليه ، ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى فاذا أوراقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من امر ربي ما غشيها تغيرت فما احد من خلق الله يستطيع ان ينعتها

من حسنها فأوحى الله اليَّ ما أوحى ففرض عليَّ وعلى امتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فسله التخفيف فان امتك لا يطيقون ذلك فاني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم ، قال فرجعت الى ربي وقلت له يا ربي خفف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت الى موسى فقلت حط عني خمساً قال ان أمتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فسله التخفيف قال فلم أزل ارجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه : يا محمد إنهنَّ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ومن همَّ بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة . قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فسله التخفيف فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه . ثم رجع عليه السلام من ليلته فلما اصبح غدا الى نادي قريش فجاء اليه ابو جهل : بن هشام فحدَّثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى له فقال ابو جهل : يا بني كعب بن لؤي هلموا فأقبل عليه كفار قريش فأخبرهم الرسول الخبر فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً وارتدَّ ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب وسعى رجال أبي بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال اني لأصدقه على ابعد من ذلك فسمى من ذلك اليوم صدِّيقا . ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه ، أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله فصار يصفه لهم باباً باباً وموضعاً موضعاً ، فقالوا أما النعت فقد أصاب فأخبرنا عن عيرنا وكانت لهم عير قادمة من الشام فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما

قال محمد ثم لم يزدهم ذلك الا كبراً وعناداً حتى قالوا هذا سحر مبين . وفي صبيحة ليلة الاسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها فيصلي ركعتين إذا ظهر الفجر وأربع ركعات اذا زالت الشمس ومثلها اذا ضوعف ظل الشيء وثلاثاً اذا غربت وأربعاً اذا غاب الشفق الأحمر . وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحا ، ومثليها مساء كما كان يفعل ابراهيم عليه السلام .

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه يجد من قريش منعة من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم أراد الله ان يظهر أمر الدين على أيدي غيرهم من العرب فكان عليه السلام يخرج في المواسم العربية (وهي أسواق كانت العرب تعقدها للتجاره والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدّي رسالة ربه ، فكان بعضهم يردّ ردّاً جميلاً وآخرون رداً قبيحاً . وكان من أقبح القبائل رداً بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب . وطلب منه بنو عامر إن هم آمنو به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده . فقال لهم الأمر لله يضعه حيث يشاء . وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان إحداهما من ولد الأوس والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين فكانوا دائماً في شقاق ونزاع فكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود وهم بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير وكان لهم الغلبة على يثرب أولا ، فحاربهم العرب صاروا ذوي النفوذ فيها والقوّة . وكان اليهود إذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يبعث قد قرب زمانه . ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الألفة حالفوا اليهود على أنفسهم ، فحالف الأوس بني قريظة ، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع . وآخر الأيام

بينهم يوم بعاث قتل فيه اكثر رؤسائهم ولم يبق الا عبدالله بن أبي ابن سلول من الخزرج وأبو عامر الراهب من الأوس . ولذلك كانت عائشة تقول كان يوم (١) بُعاث يوما قدمه الله لرسول الله ﷺ . وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشا على الخزرج فأرسلوا اياس بن معاذ وابا الحيسر انس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش فلما جاءوا مكة جاءهم رسول الله وقال : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً . وقد أرسلني الله الى الناس كافة ثم تلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ يا قوم هذا والله خير مما جئنا له ، فحصبه أبو الحيسر وقال له : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت .

بدء اسلام الانصار

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث من بني النجار ؛ ورافع بن مالك من بني زريق ، وقطبة بن عامر من بني سلمة ، وعقبة بن عامر من بني حرام ، وجابر بن عبدالله من بني عبيد بن عدى ، ودعاهم الى الاسلام والى معاونته في تبليغ رسالة ربه فقال بعضهم لبعض : إنه للنبي الذي كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه ، فآمنوا به وصدقوه وقالوا إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل ، وهذا هو بدء الاسلام لعرب يثرب .

العقبة الاولى

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلا منهم عشرة من الخزرج واثنان

---

(١) موضع من نواحي المدينة بعد ميلين كان به وقعة بين الاوس والخزرج قبيل الاسلام اهـ تفسير غريب الحديث، ص٣٦

من الأوس وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث ورافع بن مالك ؛ وذكوان بن قيس ؛ وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة ، وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر . وهؤلاء من الخزرج . وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم ابن ساعد وهما من الأوس فاجتمعوا به عند العقبة وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء — وذلك قبل أن تفترض الحرب — على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه في معروف ، فان وفوا فلهم الجنة وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم الى الله عزّ وجل ان شاء غفر وان شاء عذب (١) ، وهذه هي العقبة الأولى . فأرسل لهم عليه السلام مصعب بن عمير العبدري ، وعبدالله بن أم مكتوم وهو ابن خالة خديجة — يقرآنهم القرآن ويفقهانهم في الدين . ونزل مصعب على أحد المبايعين أبي أمامة أسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للاسلام وبينما هو في بستان مع أسعد بن زراره إذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس لأسيد بن حضير ابن عم سعد : ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما ، فقام لهما اسيد بحربته فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه وقد جاءك فأصدق الله فيه . فلما وقف عليهما قال : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا ان كان لكما بأنفسكما حاجة . فقال مصعب : أو تجلس فتسمع ؟ فان رضيت أمراً قبلته وان كرهته كففنا عنك ما تكره فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الاسلام وهداه الله له فتشهد ورجع الى سعد فسأله عما فعل فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأساً فغضب سعد وقام لهما متغيظاً ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للاسلام ورجع لرجال بني عبد الأشهل — وهم بطن من الأوس — فقال لهم : ما تعدّونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا : قال كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا ، فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل الا اجابه ، وقد انتشر الاسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث الا أمر الاسلام .

---

(١) رواه البخاري عن عبادة بن الصامت

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج في العام الذى يلي البيعة الأولى قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج وبينهم كثير من مشركيهم ، ولما قابل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلا عند العقبة ، فأمرهم الا ينبهوا في ذلك الوقت نائما ولا ينتظروا غائبا لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر فيسعوا في نقض ما أبرم . شأنهم مع رسول الله في أول امره ، ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا الى موعدهم كاتمين امرهم عمن معهم من المشركين . وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الأول ، فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا منهم اثنان وستون من الخزرج وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان وهما نسيبة بنت كعب من بني النجار وأسماء بنت عمرو من بني سلمة ووافقهم رسول الله هناك وليس معه الا عمه العباس بن عبدالمطلب وهو على دين قومه ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ايكون متوثقاً له ، فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحدا ممن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ، ثم قال لهم : إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . والا فدعوه بين عشيرته فانهم لبمكان عظيم . فقال كبيرهم المتكلم عنهم البراء بن معرور : والله لو كان لنا في أنفسنا ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله . وعند ذلك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . خذ لنفسك ولربك ما احببت . فقال أشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً . ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم فقال له الهيثم بن التيهان . يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال عهوداً وإنا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله انترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم عليه السلام ، وقال : بل الدم الدم والهدم

الهدم أي ان طلبتم بدم طالبت به وان اهدرتموه أهدرته .

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهي العقبة الثانية فبايعه الرجال على ما طلب . واول من بايع أسعد بن زرارة ، وقيل البراء بن معرور : ثم تخير منهم اثني عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم : ابو الهيثم بن التيهان ، واسعد بن زرارة ، وأسيد بن حضير ، والبراء بن معرور ، ورافع بن مالك وسعد بن ابي خيثمة وسعد بن الربيع ، وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة ، وعبد الله بن عمر ، وعبادة بن الصامت ، والمنذر بن عمرو . ثم قال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وانا كفيل على قومي . ولأمر ما اراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركي قريش فجاءوا ودخلوا شعب الانصار وقالوا : يا معشر الخزرج بلغنا انكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من ارضنا وتبايعونه على حربنا ؟ فانكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم انهم لم يحصل منهم شيء في ليلتهم ، وعبد الله بن أبيّ كبير الخزرج يقول : ما كان قومي ليفتاتوا عليّ بشيء من ذلك .

هجرة المسلمين الى المدينة

ولما رجع الأنصار الى المدينة ظهر بينهم الاسلام اكثر من المرة الاولى . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فازداد عليهم اذى المشركين لما سمعوا انه حالف قوماً عليهم فامر عليه السلام جميع المسلمين بالهجرة الى المدينة فصاروا يتسللون خيفة قريش ان تمنعهم . وأول من خرج ابو سلمة المخزومي زوج ام سلمة ومعه زوجه وكان قومها منعوها منه ولكنهم اطلقوها بعد فلحقت به ، وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذي امتزج حبه بلحمهم ودمهم حتى صاروا لا يعبأون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم ما دام في ذلك رضا الله ورسوله . ولم يبق بمكة منهم الا ابو

بكر وعليٌّ وصُهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة ، وقد أراد أبو بكر الهجرة فقال له عليه السلام على رسلك فاني ارجو ان يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك .

دار الندوة

أما قريش فكانوا كأنهم أصابوا لمسٌّ الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذود عنه حتى الموت فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم في دار الندوة ، وهي دار قُصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ، يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كي نستريح منه فرفض هذا الرأي لأنهم قالوا اذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه ، وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت فرفض هذا الرأي كسابقه لأنهم قالوا إنَّ الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخل في دينه حيث يفضلونه على الآباء والأبناء ، فاذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه وربما جر هذا من الحرب علينا ما نحن في غنى عنه . وقال لهم طاغيتهم : بل نقتله ، ولنمنع بني أبيه من الاخذ بثأره نأخذ من كل قبيلة شابا جلدا يجتمعون أمام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيفترق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يرضون بالدية ، فأقروا هذا الرأي ، هذا مكرهم ولكن إرادة الله فوق كل ارادة ﴿ وَيَمكرونَ وَيَمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ ﴾ فأعلم نبيه بما دبره الاعداء في سرهم وأمره باللحاق بدار هجرته ، بدار فيها ينشر الاسلام ويكون فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم العزة والمنعة وهذا من الحكمة

بمكان عظيم فانه لو انتشر الاسلام بمكة لقال المبغضون إنَّ قريشا أرادوا ملك العرب فعمدوا الى شخص منهم وأوعزوا اليه أنه يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ، ولكنهم كانوا له أعداء الداء آذوه شديد الاذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم .

هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فتوجه من ساعته إلي صديقه أبى بكر وأعلمه ان الله قد أذن له في الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فقال نعم ، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك فجهزاهما احث الجهاز وصنعت لهما سفرة في جراب فقطعت اسماء بنت أبي بكر (١) نطاقها وربطت به على فم الجراب واستأجرا عبدالله بن(٢)أريقط من بني الديل ابن بكر وكان هادياً ماهرا وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعا اليه راحلتيها وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . ثم فارق الرسول عليه السلام أبا بكر ووعداه المقابلة ليلا خارج مكة وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقروا عليه فاجتمعوا حول باب الدار ورسول الله داخله ، فلما جاء ميعاد الخروج أمر ابن عمه عليا بالمبيت مكانه كي لايقع الشك في وجوده أثناء الليل فانهم كانوا يرددون النظر من شقوق القباب ليعلموا وجوده ، ثم سجى عليا ببردته وخرج على القوم وهو يقرأ (وَجَعلنا منْ بَينِ أَيديهمْ سَداً ومنْ خلفهمْ سَداً فَأغْشيناهمْ فَهمْ لا يُبْصرونَ) (٣) فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد . ولم يزل عليه السلام سائرا حتى تقابل مع الصديق وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه . أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وأنهم إنما باتوا يحرسون على بن أبى طالب لا محمد بن عبدالله هاجت عواطفهم

(١) لذا سميت ذات النطاق تهذيب السيرة ص ١٦٠

(٢) أرقط ص ١٦٤ السيرة

(٣) سورة يس آية ٩

فأرسلوا الطلب من كل جهة وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد و يدل عليه ، وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار الذي فيه طلبتهم بحيث لو نظر أحـــدهم تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له عليه السلام (لا تَحزنْ إنَّ اللهَ معَنـا) فـــأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم التفاتة الى ذلك الغار ؛ بل صار أعدى الأعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين في مثل هذا الغار . فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب وكان يبيت عندهم عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثقف ولقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها فلا يسمع امرا يكتادان بـه إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظـلام ، وكان عامر بن فهيره يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما ، فاذا خرج من عندهما عبد الله تبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر . ولمـا انقطع الطلب خرجا بعد ان جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث وسارا متبعين طريق الساحل . وفي الطريق لحقهم طالباً سراقـــة بن مالك المدلجي وكان قـــد رأى رسل مشركي قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحـد منهما لمن قتله أو أسره فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بني مدلج اذ أقبل رجـل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال : ياسراقة اني رأيت آنفاً اسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه فعرف سراقة انهم هم ، ولكنه اراد ان يثني عزم مخبره عن طلبهم ، فقال : انـك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضـالة لهم . ثم لبث في المجلس ساعة وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه فعثرت بـــه فرسه فخر عنها ، ثم ركبها ثانيا وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهـو لايلتفت وابو بكر يكثر الالتفات فساخت قائمتا فرس سراقـة في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان فعلم سراقة ان عمله ضائع سدى وداخله

رعب عظيم فناداهما بالأمان ، فوقف عليه السلام ومن معه حتى جاءهم . ويقول سراقة : وقع في نفسي حين لقيت مالقيت ان سيظهر امر رسول الله فقلت ان قومك قد جعلوا فيك الدية واخبرهما بما يريد بهما الناس وعرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئا بل قالا له : اخف عنا فسأله سراقة ان يكتب له كتاب امن فأمر ابا بكر فكتب . وبذلك انقضت هذه المشكلة التي اظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله ، وكان اهــل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومــه عليهم يخرجون الى الحرة (١) حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ان طال انتظارهم فلما آووا الى بيوتهم اوفى رجل من يهود على اطم (٢) من آطامهم لأمر ينظر اليه فبصر برسول الله واصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى ، فقال اليهودي (٣) بأعلى صوته : يامعشر العرب هــذا جدكم أى حظكم الذي تنتظرون ، فثاروا الى السلاح فتلقوا رسول الله بظهرة الحرة .

النزول بقباء

فعدل بها ذات اليمين حتى نزل (٤) بهم في بني عمرو بن عـوف بقباء ، والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي ان ذلك كان في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق ٢٠ ايلول سبتمبر سنة ٦٢٢ وهذا أول تاريخ جديد (٥) لظهور الاسلام بعد ان مضي عليه ثلاث عشرة سنة وهو مضيق عليه من مشركي قريش

---

(١) هي الارض ذات الحجارة السود وكانت المدينة محاطة بجملة حرات

(٢) يقصد بمكان مرتفع

(٣) وهو أول من رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فصرخ بأعلى صوته : يا بني قيلة هــذا جدكم قد جاء تهذيب السيرة ص١٦٦

(٤) فكانت مدة النزول أربعة ايام .

(٥) لما اراد المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هــذه الهجرة الشريفة ولعدم المخالفة بين مبدإ الهجرة وبدء السنة الهلالية قدموا ميعاد الهجرة شهرين وأياما وجعلوا بدء الهجرة من محرم سنتها .

ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه أما الآن فقد آواه الله هـو وصحابته رضوان الله عليهم بعد ان كانوا قليلا يتخطفهم الناس

هجرة الانبياء

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنة اخوانه من الانبياء من قبله ، فما من نبي منهم إلا نبت به بلاد نشأته فهاجر عنها من ابراهيم أبي الأنبياء وخليل الله الى عيسى كلمة الله وروحه ، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره مادام ذلك في طاعة الله . فسل مصر وتاريخها تنبئك عن اسرائيل (يعقوب) وبنيه انهم هاجروا اليها حينما رأوا من بنيها ترحيبا بهم وتركهم وما يعبدون إكراما ليوسف وحكمته : ولما مضت سنون نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم فاضطهدوا بني اسرائل وآذوهم خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من اعطاء الله حقه في عبادته ، وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذبوه فأرادوا الفتك بـه حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه (طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات) ثم قال بعد (افرحوا وتهللوا لأن اجركم عظيم في السموات فانهم طردوا الانبياء الذين قبلكم) وسل القرى حلت بها نقمة الله لكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مهاجرة الانبياء منها قبل حلول النقمة ، فلا غرابة أن هاجر عليه السلام من بلاد منعه أهلها من تتميم ماأراده الله (سُنةَ اللهِ في الذينَ خلوْا منْ قبلُ ولنْ تجدَ لسُنةِ اللهِ تبديلاً)

أعمال مكة

هذا ، ولنبين لك بجمل ما عاد اليه الرسول عليه السلام بمكة من اصول الدين وذلك أمران : (الاول) الاعتقاد بوحدانية الله وألا يشرك معه في

العبادة غيره سواء كان ذلك الغير صنما كما يفعل مشركو مكة أو أبا أو زوجة أو بنتا كما عليه بعض الطوائف الاخرى كالنصارى . لولا الاعتقاد بوحدانية الله ما كلف احد نفسه تكاليف الحياة من آداب الاخلاق بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها مادام ذلك خافيا عن الناس (الثاني) الاعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوما ثانيا للانسان يجازى فيه على ماصنعه في الدنيا إن خيرا فخير وإن شراً فشر . وعلى هذين الامرين جاء غالب الآي المكية ، فقلما ترى سورة من سور مكة إلا مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما . وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون انفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدى . ونزل على رسول الله ﷺ بمكة من القرآن معظمه وهو ماعدا ثلاثا وعشرين سورة منه . وهي : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الانفال ، التوبة ، الحج ، النور ، الأحزاب ، القتال ، الفتح ، الحجرات ، الحديد ، المجادلة ، الحشر ، الممتحنة ، الصف ، الجمعة ، المنافقون ، التغابن ، الطلاق ، التحريم ، النصر . هذه كلها مدنية وباقي القرآن مكي

ولما نزل عليه السلام بقباء نزل على شيخ بني عمرو كلثوم بن الهدم وكان يجلس للناس ويتحدث لهم في بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عزبا (١) . ونزل أبو بكر بالسنح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج

مسجد قباء

وأقام رسول الله بقباء ليالى أسس فيها مسجد قباء الذى وصفه بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم صلى فيه عليه السلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون . وكانت المساجد على عهد رسول في غاية من البساطة ليس فيها شيء مما اعتاده بناة المساجد في القرون الاخيرة ،

(١) اي ليس له زوجة

لأن الرسول وأصحابه لم يكن جل همهم إلا منصرفا لتزيين (١) القلوب وتنظيفها من خظ الشيطـــان ، فكان سور المسجد لا يتجاوز القامـة وفوقـــه مظلة يتقى بها حر الشمس .

الوصول الى المدينة

ثم تحول عليه السلام الى المدينة والأنصـار محيطون به متقلدي سيوفهم ، وهنا حدث ولا حرج عن شرور اهل المدينة فكان يوم تحوله إليهم يوما سعيداً لم يروا فرحين بشيء فرحهم برسول الله وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البـــدر علينـا　　من ثنيـــات الوداع

وجب الشكر علينـا　　ما دعـــا لله داع

أيهـا المبعوث فينـــا　　جئت بالأمر المطـــاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته كل يريد أن يكون نزيله

أول جمعة

وأدركته عليه السلام صـلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فنزل وصلاهـا وهـذه أول جمعـة له عليه السلام . وأول خطبة خطبها عليه السلام حمد الله

(١) المراد انهم دائماً بمراقبة الله وبذكر الله لان القلب زينته ونظافته وجلاؤه ذكر الله . (ش)

وأثنى (١) عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فقدموا لانفسكم ؛ تعلمُنَّ والله ليصعقنَّ أحدكم ثم ليدَعنَّ غنمه ليس لها راع ثم ليقولنَّ له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ؛ ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ، فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا غير جهنم . فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزي الحسنة عشرة امثالها إلى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

النزول على ابي ايوب

ثم ساروا . وكلما مروا على دار من دور الأنصار يتضرع اليه أهلها بأن ينزل عندهم ويأخذون بزمام الناقة فيقول دعوها فانها مأمورة ولم تزل سائرة حتى أتت بفناء بني عدى بن النجار وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوب الأنصاري واسمه خالد بن زيد (٢) وذلك محل مسجده الشريف فقال عليه السلام : ههنا المنزل ان شاء الله ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ فاحتمل أبو ايوب رحله ووضعه في منزله . وجاء اسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده ، وخرجت ولائد

---

(١) ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة اخرى فقال :

إن الحمد لله أحمده واستعينه نعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات اعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ان أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى وقد أفلح من زينه الله في قلبه وادخله في الاسلام بعد الكفر واختاره على من أحاديث الناس انه احسن الحديث وابلغه احبوا ما أحب الله أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم فانه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى قد سماه الله خيرته من الاعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ومن كل ما أوتي الناس الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم ان الله يغضب ان ينكث عهده والسلام تهذيب السيرة ١٧٤

(٢) توفى زمن معاوية في حصار القسطنطينية ودفن خارج المدينة

بني النجار يقلن :

نحن جوار من بني النجار ياحبذا محمد من جار

فقال عليه السلام : اتحبنني ؟ فقلن نعم ، فقال : الله يعلم أن قلبي يحبكن واختار عليه السلام النزول في الدور الأسفل من دار ابي ايوب ، ليكون اريح لزائريه ، ولكن لم يرض رضي الله عنه ذلك كرامة لرسول الله لما يمكن ان يصيبه من التراب الذي يحدثه وطء الاقدام او الماء الذي يهراق ، فقد اتفق ان كسرت من زوجته جرة ماء بالليل فقام هو وهي بقطيفتهما التي ليس لها غيرها ، يمسحان الماء خوفا على رسول الله ، ولذلك لم يزل ابو ايوب يستعطفه حتى كان في العلو . وكانت تأتيه (١) الجفان كل ليلة من سراة الانصار كسعد بن ابي عبادة واسعد بن زرارة وأم زيد بن ثابت : فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث او الاربع من جفان الثريد .

نزول المهاجرين

ولما تحول مع رسول الله أغلب المهاجرين تنافس فيهم الانصار فحكموا القرعة بينهم . فما نزل مهاجر على انصاري إلا بقرعة .

أخوة الاسلام

ومن يتأمل إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بشر ، بل بفضل من الله ورحمته ، يفهم كيف انتصر هؤلاء الاقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدد .

وكان الانصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم قال تعالى في سورة الحشر ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالايمَانَ مِنْ قَبلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيهِمْ

(١) القصعة وجمعها جفان ا هـ مختار الصحاح ص ٨٨

و لا يجدُونَ في صُدورهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ويؤثِرونَ على أنفُسِهِمْ ولوْ كانَ بهِمْ خَصاصة ومنْ يُوقَ شُحَّ نَفسهِ فَأولئكَ هُمُ المفْلحُونَ ﴾ وهذا أعلى درجات الاخوة . وكل ذلك كانوا يرونه قليلا بالنسبة لما وجب عليهم لاخوانهم فان رسول الله ﷺ ليمكن بينهم الاخاء آخى بين المهاجرين والانصار فكان كل انصاري وزيله أخوين في الله . ومن العبث ان نكلف القلم ان يوضح للقارىء ان هذه الاخوة كانت ارقى بكثير من الاخوة العصبية . بل نكل ذلك للاحساس الاسلامي فانه افصح منطقا من القلم . وعلى الاجمال فتلك قلوب الف الله بينها حتى صارت شيئا واحداً في اجسام متفرقة ، وعسى الله ان يوفق مسلمي عصرنا الى هذا الاخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون . وكان هذا الاخاء على المواساة والحق وان يتوارثوا بعد الموت ، دون ذوي الارحام . وكان عليه السلام يقول لكل اثنين (تآخيا في الله اخوين اخوين) ودام هذا الميراث الى ان انزل الله سبحانه قوله في سورة الاحزاب ﴿ وأُولُوا الارْحامِ بَعضهُمْ اولَى ببعض في كتابِ اللهِ ﴾

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه السلام بالمدينة ارسل زيد بن حارثة وابا رافع الى مكة ليأتيا بمن خلف من اهله وارسل معهما عبدالله بن اريقط يدلهما على الطريق فقدما بفاطمة وام كلثوم بنتيه عليه السلام ، وسودة زوجه وام ايمن زوج زيد وابنها اسامة . اما زينب فمنعها زوجها ابو العاص بن الربيع وخرج مع الجميع عبد الله بن ابي بكر بأم رومان زوج ابيه وعائشة اخته واسماء زوج الزبير بن العوام ؛ وكانت حاملا بابنها عبد الله وهو اول مولود للمهاجرين بالمدينة

حمى المدينة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقا للمهاجرين من اهل مكة فأصاب

كثيراً منهم الحمى ، وكان رسـول الله يعودهم فلما شكوا اليه الامر قال : اللهم (١) حبب الينا المدينة كما حببت الينا مـكة واشد ، وبارك لنا في مـدها وفي صاعها ، وانقل وباءها الى الجحفة (٢) فاستجاب الله جل وعلا ، دعوته وعاش المهاجرون في المدينة بسلام

منع المستضعفين من الهجرة

ومنـع مشركو مكة بعضا من المسلمين من الهجرة وحبسوهم وعذبوهم منهم الوليد بن الوليد وعياش بن ربيعة وهشام بن العاص ، فكان عليه السلام يدعو لهم في صلاته . وهذا أصل القنوت . وقد حصل في أوقات مختلفـة ومحال في الصلاة مختلفة ، فكان في وتر العشاء وصلاة الصبح بعـد الركوع وقبـله ، فروى كل صحابي ما رآه . وهذا سبب اختلاف الأئمـة (٣) في مكان القنوت .

---

(١) كان الرسول ﷺ من دعائه في بركة الاماكن في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عمـر رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهـم بارك لنا في شامنا وبارك لنا في يمننا قالوا وفي نجدنا قال اللهم بارك لنا في شامنـا وبارك لنا في يمننا قالوا وفي نجدنا قال هناك الزلازل والفتن ومنها يخرج قرن الشيطان .

(٢) قرية على اثنين وثمانين ميلا من مكة وهي ميقات اهل الشام واسمها مهيمة

(٣) ان اختلاف الائمة رضي الله عنهم في وقت القنوت اي الدعاء كل ذلك حسب الاجتهاد الذي قررته قواعد الاصول لكل مجتهد .

فترى : الاحاديث الواردة في الموضوع هي :

عن سعيد عن ابي هريرة رضي الله عنه : لما رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الاخيرة من صلاة الصبح قال اللهم انج الوليد وسلمة بن هشام

وعياش بن ابي ربيعة والمستضعفين بمكة اللهم اشدُد وطأتك على مُضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف وفي روايتهما : قنت بعد الركوع في صلاته شهراً يدعو لفلان وفلان ثم ترك الدعاء ولهما من حديث انس قنت شهراً بعد الركوع يدعو على احياء من احياء العرب ثم تركه زاد الدار قطني والحاكم والبيهقي وصححوا فاما في الصبح فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا .

١ ـ ان هذا الحديث حجة لمن استحب القنوت في صلاة الصبح وهـو قول مالك والشافعي .

٢ ـ ذهب ابو حنيفة والليث بن سعد انه لاقنوت في الفجر ولا في غيرهـا من الصلوات ولا في الوتر ايضا واستدلوا بحديث : قنت شهراً ثم تركه

فمسألة القنوت من مسائل الاختلاف التي تعارضت فيها الأدلة وافردت تصانيف كثيرة للعلماء .

ولكن عند الامام احمد واسحاق : لا يقنت في الفجر الا عند نازلة تنزل بالمسلمين ومن اراد التوسعة فليراجع طرح التثريب جزء ثان ص ٢٨٨ اهـ باختصار .

اما خلاصة المذهب الحنفي : ان نزل بالمسلمين نازلة قنت الامام في صلاة الجهـر وهو قول الثوري واحمد وقال جمهور اهل الحديث القنوت عند النـوازل مشروع في الصلوات كلها وقال الامام جعفر الطحاوي : انما لا يقنت عندنا في الفجر من غير بلية فان وقعت فتنة او بلية فلا بأس به فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم اي بعد الركوع اهـ باختصار حاشية الطحطاوي ص ٢٠٧

السنة الاولى ـ بناء المسجد

ثم شرع عليه السلام في بناء مسجده في مبرك ناقته امام محلة بني النجار ، وكان محله مربدا للتمر يملكه غلامان يتيمان في حجر أسعد بن زرارة فدعا الغلامين وسامهما المربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى عليه السلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما . وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل ، فأمر بالقبور فنبشت وبالحفر فسويت وبالنخل فقطع . ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ وشرعوا في البناء به ، وجعلوا عضادتي الباب من الحجارة وسقفوه بالجريد وجعلت عمده من جذوع النخل ولا يزيد ارتفاعه عن القامة الا القليل وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب في المسلمين في العمل ، وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم :

(١) اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم الأنصار والمهاجره

وجعلت قبلة المسجد في شماله الى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثر فيه ، فأمر عليه السلام بحصبه ، ولم يزين المسجد بفرش حتي ولا بالحصر . وبنى بجانبه حجرتان إحداهما لسودة بنت زمعة والأخرى لعائشة ، ولم يكن عليه السلام متزوجاً غيرهما اذ ذاك ، وكانت الحجرتان متجاورتين ، وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه . وصارت الحجرات تبتني كلما جاء زوج .

---

(١) فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لاعيش الا عيش الاخرة اللهم ارحم الانصار والمهاجرة

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش الا عيش الاخرة اللهم ارحم المهاجرين والانصار . رواه احمد عن انس المناوى ٢ــ١٠٠ تهذيب السيرة ص ١٧٠

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المؤمنين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العلي الأعلى، فيتبعون أوامره ويجتنبون نواهيه ، ولذلك قال في محكم كتابه في سورة العنكبوت ﴿ إنَّ الصلاةَ تَنهى عَنِ الفحشاء والمنكرِ ﴾ وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم ويقووا روابط الألفة والاتحاد بينهم . ومتى حان وقت الصلاة فلا بد من عمل ينبه الغافل ويذكر الساهي ، حتى يكون الاجتماع عاما فأتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك . فقال بعضهم : نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ، ليراها الناس ، فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل ، وقال الآخرون : نشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضا . وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم ؛ فكرهه رسول الله ، لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما ، واشار بعضهم بالناقوس . وهو ما يستعمله النصارى . فكرهه الرسول ايضاً . وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس اذا حانت الصلاة وينادى بها فقبل هذا الرأي . وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الانصاري ، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال . ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال بلى ، قال له . قل الله أكبر الله أكبر مرتين ، وتشهد مرتين ، ثم قل حي على الصلاة مرتين حي على الفلاح مرتين ، ثم كبر ربَّكَ مرتين ، ثم قل لا إله الا الله ، فلما استيقظ توجه الى النبي ﷺ وأخبره خبر رؤياه ، فقال : إنها لرؤيا حق، ثم قال له لقن ذلك بلالا فانه أندى صوتاً منك . وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجرُّ رداءه فقال والله لقد رأيت مثله يا رسول الله . وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبدالله ابن أم مكتوم ، وكان بلال يقول في أذان

الصبح بعد حي على الفلاح الصلاة خير من النوم مرتين وأقره الرسول على ذلك وكان عليه السلام يأمر في فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ به الغافلون حتى ينتبهوا للسحور . والثاني للصلاة . أما الأذان للجمعة فكان أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء رواه البخاري ، ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الاذان الذي زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار ، ثم نقل الاذان الذي كان على المنار حين صعود الامام على المنبر في العهد الاول بين يديه .

فعلم بذلك أن الأذان في المسجد بين يدى الخطيب « بدعة » أحدثها هشام بن عبد الملك . ولا معنى لهذا الأذان لأنه هو نداء الى الصلاة ومن هو في المسجد لا معنى لندائه ، ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء اذا كان النداء في المسجد . ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في المدخل .

قال الحافظ في فتح الباري : وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء اليها بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض . واتباع السلف الصالح أولى . اه .

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذان الجمعة انه كان إذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار فاذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع .

أما الاقامة وهي الدعوة للصلاة في المسجد فقد اختلفت الروايات في نصها فرواها محمد بن إدريس الشافعي مفردة الا لفظ (قد قامت الصلاة) مثنى ، ورواها مالك بن أنس مفردة كلها . ورواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها .

يهود المدينة

هذا ، وكما ابتلى المسلمين في مكة بمشركي قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها ، وهم : بنو قينقاع ، وقريظة ، والنضير ، فانهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من ما بعد تبين لهم أنه الحق وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب إذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه ، فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوّة في ولد إسماعيل فكفروا بما أنزل الله بغيا مع أنهم يرون أنّ رسول الله محمدا لم يأت إلا مصدّقا لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . ومما عابوه على الاسلام نسخ الأحكام وما دروا أنّ القادر العليم يعلم ما يحتاج اليه الانسان أكثر منهم ، فانه ميال بطبعه للترقي ، والرسول عليه السلام وجد بادىء بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من الاعتقادات الالهية فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج ، لانه لو حرّم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا الى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الاسلامي لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين في كثير من الاضاليل ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر شيئاً فشيئاً حتى روّضت عقولهم وهذبت نفوسهم وكانت الاحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها ليكون التأثير في النفوس أشدّ ، ولكن اليهود أرادوا غل القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون . وقد حجهم القرآن الشريف ، بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق ، فقال في سورة البقرة ﴿ قُلْ إِنْ

كانتْ لكمُ الدارُ الآخرةُ عندَ اللهِ خالصةً مِنْ دونِ الناسِ فتمنوا الموتَ ان كنتمْ صادقينَ ﴾ ثم ختم جل ذكره عدم اجابتهم بقوله ﴿ ولَن يتمنوهُ أبداً بما قدمتْ أيديهمْ واللهُ عليمٌ بالظالمينَ ﴾ فلو كانوا يعلمون من انفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نطقاً باللسان . وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بنى قينقاع ، وهو عبد الله بن سلام . فترك هواه واسلم بعد أن سمع القرآن وبعد أن كان اليهود يعدّونه من رؤسائهم عدّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه فبئسما اشتروا لأنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره ﴿ ويأبىَ اللهُ إلاَّ أنْ يتمَّ نورَهُ ولوْ كرهَ الكافرونَ ﴾ .

المنافقون (١)

وكان يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفا على حياتهم ، وكان يرأس هذه الجماعة عبدالله بن أبي ابن سلول الخزرجي الذي كان مرشحا لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أنَّ ضرر المنافقين أشدَّ على المسلمين من ضرر الكفار ، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ،

(١) إن الله سبحانه وتعالى أفرد سورة خاصة بالمنافقين وان من خلقه صلى الله عليه وسلم كان يعلم المنافقين ولكن لا يقتلهم حتى لا يقال ان محمداً قتل اصحابه وان النفاق هو عبارة أن يظهر شيئاً ويبطن خلافه هذا هو النفاق الديني اما النفاق الاجتماعي : يظهر بمظهر علمي أو اخلاقي او صلاح لذا قال صلى الله عليه وسلم : اخوف ما اخاف على امتي كل منافق عليم اللسان وفي رواية عالم اللسان جاهل القلب والعمل .

سئل حذيفة من المنافق : قال الذي يصف الاسلام ولا يعمل به (اه شارح)

ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مرارا . والأساس الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ، ولكنه عليه السلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما فكثيرا ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الانصار ولكن لم يعهد أنه ولى رجلا ممن عهد عليه النفاق ، لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملا فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لاضرار المسلمين ، وهذا درس مهم لرؤساء الاسلام يعلمهم أنهم لا يثقون في الأعمال المهمة إلا بمن لم يظهر عليهم شبهة النفاق ، أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد .

معاهدة اليهود

هذا ، وقد علمت أنه كان يضاد المسلمين في المدينة فئتان : اليهود والمنافقون ، ولكن الرسول قبل من هؤلاء ظواهرهم ، وعقد مع اولئك عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه احداً ، وإن دهمه بالمدينة عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم .

مشروعية القتال

قد علم مما تقدم أن رسول الله عليه السلام لم يقاتل أحداً على الدخول في الدين بل كان الأمر قاصراً على التبشير والانذار وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآى مايقويه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش ، ومن ذلك قوله في سورة الاحقاف : ﴿ فاصْبِرْ كما صَبرَ أُولوا العَزم مِنَ الرسُلِ ولا تَستعْجِلْ لهُمْ ﴾ . وكان كثيراً ما يقص الله عليه أنباء اخوانه من المرسلين

قبله ليثبت به فؤاده (١) . ولما ازداد طغيان اهل مكة ألجأه الى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله ، فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج ﴿ أُذِنَ للذينَ يُقاتلونَ بِأنهمْ ظُلموا وإنَّ اللهَ على نصرِهمْ لقديرٌ الذينَ أُخرِجُوا منْ ديارِهمْ بغيرِ حقٍ إلا أنْ يقولوا ربُّنَا اللهُ ﴾ ثم أمرهم بذلك في قوله في سورة البقرة ﴿ وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذينَ يُقاتِلونكمْ ولا تعتَدوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدينَ واقتلوهمْ حيثُ ثقفتُموهمْ وأخرجوهمْ منْ حيثُ اخرجوكمْ والفتنةُ أشدُّ منَ القتلِ ولا تُقاتِلوهمْ عندَ المسجدِ الحرامِ حتَّى يُقاتِلوكمْ فيه فانْ قاتلوكمْ فاقتُلوهمْ كذلكَ جزاءُ الكافرينَ فانِ انتهوا فانَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ وقاتلوهمْ حتَّى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ للهِ فانِ انتهوا فلا عُدْوانَ إلا على الظالمينَ ﴾ . وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب . فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب واتحدوا عليهم مع الاعداء أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله في سورة التوبة ﴿ وقاتِلوا المشركينَ كافَّةً كما يُقاتلونَكمْ كافَّةً ﴾ وبذلك صار الجهاد عاما لكل من ليس له كتاب من الوثنيين ، وهذا مصداق قوله عليه السلام (٢) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) . ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال ﴿ وإمَّا تخافَنَّ منْ قومٍ خيانةً فانبذْ إليهمْ على سواءٍ إنَّ اللهَ لا يحبُّ الخائنينَ ﴾ وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن

---

(١) كما قال تعالى في سورة هود آية[١٢٠]: وكلاً نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين .

(٢) متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما .

يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم . وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادئ الآتية :

(١) اعتبار مشركي قريش محاربين لأنهم بدؤا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين

(٢) متى رئي من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل .

(٣) متي تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالاسلام .

(٤) كل من بدأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يذعن بالاسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر .

(٥) كل من اسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه والاسلام يقطع ما قبله .

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثير من الآي تحريضا على الاقدام في قتال الاعداء وتبعيداً عن الفرار من الزحف فقال في الموضوع الاول في سورة النساء ﴿ فليقاتل في سَبيلِ اللهِ الذينَ يَشرونَ الحَياةَ الدُّنيا بالآخرةِ ومنْ يُقاتِل في سَبيلِ اللهِ فَيقتَلْ أوْ يَغلبْ فَسوفَ نُؤتيهِ اجْراً عَظيماً ﴾ وقال في الموضوع الثاني في سورة الانفال : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا إذَا لقيتُم الذينَ كفَروا زَحفاً فَلا تُولوهُم الادْبارَ ومنْ يُولهِم يوْمئذٍ دُبرهُ إلا مُتحرِّفاً لقتالٍ أو مُتحيزاً إلى فئةٍ فقدْ باءَ بغَضبٍ منَ اللهِ ومأواهُ جَهنمُ وبئسَ المصيرُ ﴾

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها إلى الشام لتبيع وتبتاع ، ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيرا ، وكان يسير معها لحراستها كثير من اشراف القوم وسراتهم . ولا بد لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة فرأى رسول الله ﷺ ان يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة حتى تضعف قوتهم المالية فيكون ذلك ادعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بد ان يكون ، لان قريشا لم تكن لتسكت عمن سفه احلامهم وعاب عبادتهم خصوصا وهم قدوة العرب في الدين .

سرية (١)

في شهر رمضان ارسل عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلا من المهاجرين وعقد له لواء ابيض حمله ابو مرثد حليف حمزة ليعترض عيراً لقريش آيبة من الشام فيها ابو جهل وثلاثمائة من اصحابه المشركين فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص (٢) فصادف العير هناك . فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهني فأطاعوه وانصرفوا ، وشكر عليه السلام مجديا على عمله لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عددهم .

وفي شوال أرسل عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة في ثمانين راكبا من المهاجرين وعقد له لواء ابيض حمله مسطح بن اثاثة ليعترض عيرا لقريش فيها

---

(١) السرية قطعة من الجيش ، ونريد بها كل غزاة لم يكن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي كان فيها تسمى غزوة .

(٢) عرض من اعراض المدينة اي ناحية منها .

مائتا رجل فوافوا العير ببطن رابغ (١) فكان بينهم الرمي بالنبل ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين الى المسلمين المقداد بن الاسود وعتبة بن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين

وفيات

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاع ، أسلم قديما وهاجر الهجرتين . ولما دفن أمر عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ووضع على قبره حجرا وقال : أتعلم به قبر أخي وأدفن اليه من مات من أهلي . وهذا كان القصد من وضع الاحجار على المقابر ، لا ما يقصده أهل العصور الاخيرة من تشييد الهياكل (٢) على القبور وتصويرها بصور ترى في عين الناظر كالأصنام ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيرة تشبه ما كان يفعله مشركوا مكة عند معابدهم . ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله ﷺ مما يتعلق بأمور الآخرة .

ومات من الأنصار أسعد بن زرارة أحد النقباء الاثنى عشر . كان رضي الله عنه نقيب بني النجار ، ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن ابن أخت القوم منهم ، ومات ايضا البراء بن معرور أحد النقباء وهو الذي كان يتكلم عن القوم في العقبة الثانية ، ومات من مشركي مكة في هذه السنة الوليد بن المغيرة ولما احتضر جزع فقال له أبو جهل : ماجزعك ياعم ؟ فقال : والله مابي من جزع من الموت ولكن اخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة فقال أبو سفيان : لا تخف إني ضامن ألا يظهر ، وفيها

---

(١) واد بين الحرمين قرب البحر

(٢) إن الصحابة رضي الله عنهم شيدوا ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة اشد تمسكا منا بدين الله اهـ ش

أيضا مات العاص بن وائل السهمي ، وقـــد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين .

السنة الثانية

غزوة ودان

ولاثنى عشرة ليلة خلت من السنة الثانيـة خرج رسول الله ﷺ من المدينة ، بعد أن استخلف عليها سعد بن عبـادة ليعترض عيراً لقريش ، فسار حتى بلغ ودان (١) وكان يحمل لواءه عمـه حمزة ولم يلق هناك حربا لان العير كانت قـــد سبقته . وفي هـذه الغزوة صالح بني ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعـوا . ثم رجع المسلمون الى المدينة بعد مضي خمس عشرة ليلة .

غزوة البواط

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آتية من الشام فيهـا أمية بن خلف ومائـة من قريش وألفان وخمسمائة بعير فسار اليهـا في مائتين من المهـاجرين ، وذلك في ربيع الاول وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص ، فسار حتى بلغ بواط (١) فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيدا. وذلك كله لمـا كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة .

غزوة العُشَيرة

وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها ، فقد جمعوا

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الابواء ستة اميال

(٢) جبال جهينة على ابراد من المدينة جهة بقرب ينبع من ناحية رضوى .

فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعدا إلا بعث به في تلك العير ، وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلا . فخرج لها الرسول في جمادي الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسود ، وحمل لواءه عمه حمزة . ولم يزل سائرا حتى بلغ العُشيرة فوجد العير قد مضت . وحالف عليه السلام في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم ، ثم رجع عليه السلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع .

غزوة بدر الأُولى

وبعد رجوعه عليه السلام بقليل جاء كرز بن جابر الفهري وأغار على سرح المدينة وهرب ، فخرج الرسول في طلبه واستخلف على المدينة زيد ابن حارثة الأنصاري ، وحمل لواءه عليّ بن أبي طالب ، فسار حتى بلغ سفوان(١) وفاته كرز فلم يلق حربا . وتسمي هذه الغزوة بدراً الأولى

سرية

وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال يرأسها عبدالله ابن جحش وأعطاه كتاباً مختوماً لا يفضه إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه ، فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فاذا فيه (إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا أخبارهم) وإنما لم يخبرهم عليه السلام بقصدهم وهم بالمدينة حذراً من شيوع الخبر فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود فترصد لهم قريش ولا يخفى أن عدد السرية

---

(١) واد من ناحية بدر .

قليل لا يمكنه المقاومة . ثم سار عبد الله رضي الله عنـــه ، وفي أثناء السير تخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان لأنهما أضلا بعيرهما الذي كانا يعتقبانه وسار الباقون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان ، فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم فحملوا عليهم في آخر يوم من رجب فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان والحكم وهرب نوفل واستاقوا العير ، وهي أول غنيمة غنمها المسلمون من اعـــدائهم قريش ، ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم . فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم وعابتهم قريش واليهود بذلك عنفهم المسلمون وقال لهم عليه السلام : ما امرتكم بقتال في الأشهر الحرم فندموا . فأنزل الله في سورة البقرة ﴿ يسئلونكَ عنِ الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيهِ قلْ قتالٌ فيهِ كبيرٌ وصدٌ عنْ سبيلِ اللهِ وكفرٌ بهِ والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلهِ منهُ أكبرُ عندَ اللهِ والفتنةُ أكبرُ منَ القتلِ ﴾ فسرى عنهم . وقد طلب المشركون فداء أسيريها فقال عليه السلام : حتى يرجع سعد وعتبة ، فلما رجعا قبل عليه السلام الفـــدية في الاسيرين . فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه مع المسلمين ، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً

تحويل القبلة (١)

مكث عليه السلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس في صلاته ، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلب وجهه في السماء داعيا الله بذلك . فبينما هو في صلاته إذ أوحى الله اليه بتحويل القبلة الى الكعبة فتحول وتحول من وراءه . وكانت هذه

(١) كان ذلك في شهر شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من قدوم الرسول المدينة تهذيب السيرة ص ١٩٢

الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم ، وقد أكثر اليهود من التنديد على الاسلام بهذا التحويل وما دروا أن لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

صوم رمضان

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الامة الاسلاميه وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر . والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التي بها يتم النظام فان الانسان مجبول على حب نفسه والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركا ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين فلا بد من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن ادراك حاجاتهم ، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش اذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه فيسهل عليه بذل الصدقات

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر ، فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة .

زكاة المال

وفي هذا العام فرضت زكاة الاموال . وهذه هي النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الاغنياء بلا ضرر على هؤلاء ، فاذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين ، وحال عليها الحول ، وجب عليك ان تؤدي ربع عشرها أي اثنين ونصفا في كل مائة وما زاد فبحسابه . وإذا بلغت الشياه أربعين والبقر ثلاثين والابل خمساً ، وحال عليها الحول ، وجب

عليك كذلك أن تؤدي منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع . ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الامام ويوزّعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين في آية الصدقة ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكينِ وَالعاملينَ عليها وَالمؤلفةِ قلوبهم وَفي الرّقابِ وَالغارمينَ وَفي سبيلِ اللهِ وابنِ السّبيل فريضةً منَ اللهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ . واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لاول نظرة أن هذا النظام ، مع عدم إضراره بالاغنياء مقلل لمصائب الفقر التي ألجأت كثيراً من فقراء الامم أن يخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادىء تقويض العمران وتداعى الامن كما يفعله الآشتراكيون (١) وغيرهم .

غزوة بدر الكبرى

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التي خرج لها عليه السلام وهي متوجهة الى الشام فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها ، فلما سمع برجوعها ندب اليها أصحابه وقال : هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها فأجاب قوم وثقل آخرون لظنهم أنّ الرسول عليه السلام لم يرد حربا فانه لم يحتفل بها بل قال : من كان ظهره حاضراً فليركب معنا . ولم ينتظر من كان ظهره

---

(١) ان الزكاة عامل كبير من عوامل نشر الألفة والمحبة بين الناس وهو ما يحرص عليه الاسلام الذي يقيم وزناً للقيم الاخلاقية الانسانية

ان للزكاة ميزانية خاصة في بيت المال بحيث لا تطغي على التكافل الاجتماعي النفقات الاخرى للدولة كما يقع الان في ميزانية الدولة في عصرنا الحاضر ومن اراد التوسعة في الموضوع فليراجع : اشتراكية الاسلام طبعة اولى ص ٥٧ للدكتور مصطفى سباعي .

هذه هي الاشتراكية الصحيحة التي ضمنها الاسلام للفقراء من اموال الاغنياء فليعلم الذين لا يريدون دفع زكاة اموالهم يظنون انهم تزيد اموالهم او حبا او طمعا ولكن الله القدير العزيز العليم قد ضمن للغني حينما يريد دفع زكاة ماله فانه يضاعف مال الغني فنرى قلة من اموال الاغنياء تدفع زكاة اموالهم للفقراء والباقون الذين لا يدفعونها انهم جهلوا تعاليم الاسلام وضمان الزيادة المضاعفة من الله (اهـ شارح)

غائبا . فخرج لثلاث ليال خلون من رمضان بعد أن ولى على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم وكان معه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا : مائتان ونيف واربعون من الانصار والباقون من المهاجرين ، ومعهم فرسان وسبعون بعيرا يعتقبونها ، والحامل للواء مصعب بن عمير العبدري ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ استأجر راكباً ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر ؛ فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم وخافوا على تجارتهم فنفروا سراعا ولم يتخلف من اشرافهم الا ابو لهب بن عبد المطلب فانه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة وأراد أمية بن خلف ان يتخلف لحديث حدثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمرا بعد الهجرة بقليل حيث قال — كما رواه البخاري — سمعت من رسول الله يقول انهم قاتلوك بمكة ؟ قال لا ادري . ففزع لذلك وحلف ألا يخرج فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصدا الرجوع بعد قليل ، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة فان منيته ساقته الى حتفه رغم أنفه وكذلك عزم جماعة من الاشراف على القعود فعيب عليهم ذلك ، وبهذا أجمعت رجال قريش على الخروج فخرجوا على الصعب والذلول أمام القينات يغنين بهجاء المسلمين ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ اليومَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلا يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم فقال في سورة الحشر ﴿ كَمَثَلِ الشيطانِ إذ قالَ للانسانِ أكفُرْ فلما كفرَ قالَ إني بَرِيءٌ مِنكَ إني أخافُ اللهَ رَبَّ العالمينَ ﴾ . وهكذا كان عمله في هذه الواقعة ﴿ فلما تَرَاءَتِ الفئتانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إني بَرِيءٌ مِنكُمْ إني أرى مَا لا تَرَوْنَ إني أخافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ . وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس وسبعمائة بعير . أما رسول الله ﷺ فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون ولم يكن خروجه إلا للعير ، فعسكر ببيوت السقيا خارج المدينة واستعرض الجيش فردَّ من ليس له قدرة

على الحرب ثم أرسل اثنين يتجسسان الاخبار عن العير : ولما بلغ الروحاء (١) جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم ، وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدراً غداً أو بعد غد ، فجمع عليه السلام كبراء الجيش وقال لهم : (أيها الناس إن الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم العير أو النفير) فتبين له عليه السلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة ، وهي العير ، ليستعينوا بما فيها من الاموال فقد قالوا : هلا ذكرت لنا القتال فنستعد ؟ وجاء مصداق ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَإِنْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ . ثم قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ؛ والله لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فدعا له بخير ، ثم قال عليه السلام : أشيروا عليَّ أيها الناس ـ وهو يريد الأنصار ـ لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام بين أظهرهم ، فان فيها : يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل الى دارنا فاذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ـ فقال سعد بن معاذ سيد الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل ، فقال سعد : قد آمنّا بك وصدّقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً إنا لصبرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر على بركة الله ، فأشرق وجهه عليه السلام وسُرَّ بذلك وقال كما في رواية البخاري (أبشروا والله لكأني أنظر الى مصارع القوم). فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بدّ حاصلة ، وحقيقة حصلت ، فان

---

(١) موضع على ثلاثين او اربعين ميلا جنوب المدينة الغربي .

أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة وسار متبعاً ساحل البحر فنجا وأرسل الى قريش يعلمهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع فقال أبو جهل : لا نرجع حتى نحضر بدرا (١) فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً . فقال الأخنس ابن شريق الثقفي لبني زهرة ، وكان حليفاً لهم ، ارجعوا يا قوم فقد نجى الله اموالكم ، فرجعوا ولم يشهدوا بدراً زهرى ولا عدوى ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر فنزلوا عدوته القصوى (٢) عن المدينة في أرض سهلة لينة أما جيش المسلمين فانه لما قارب بدراً أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام ليعرفا الاخبار فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص السهميين فأتيا بهما . والرسول عليه السلام قائم يصلي ، ثم سألاهما عن أنفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فضرباهما لانهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان فقال الغلامان نحن لأبي سفيان فتركاهما . ولما أتم الرسول عليه السلام صلاته قال : اذا صدقاكم ضربتموهما واذا كذباكم تركتموهما ؟ صدقا . والله انهما لقريش . ثم قال لهما : أخبراني عن قريش ؟ قالا : هم وراء هذا الكثيب فقال لهما : كم هم ؟ فقالا : لا ندري . قال كم ينحرون كل يوم؟ قالا يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، قال القوم ما بين التسعمائة والألف . ثم سألهما عمن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيماً ، فقال عليه السلام لأصحابه : هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها (٣) . ثم ساروا حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جنب و بعض محدث فحدثهم الشيطان بوسوسته ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم فانه قال لهم ما ينتظر المشركون منكم الا ان يقطع

---

(١) محل بين مكة والمدينه وهو الى المدينة اقرب في الجنوب الغربي منها على الطريق السلطاني ، وكان به سوق تعقد كل سنة ثمانية ايام .

(٢) عدوة الوادي : شاطئه

(٣) قطع كبده .

العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاءوا .

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادي واغتسلوا أو توضأوا وملأوا الأسقية ولبدت الارض حتى ثبتت عليها الاقدام ، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين فانه وحّل الارض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال ومصداق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ وقد أرى الله رسوله في منامه الأعداء ، كما أراهموه وقت اللقاء قليلي العدة كيلا يفشل المسلمون وليقضي الله أمراً كان مفعولا ، قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن المنذر الأنصاري ، وكان مشهوراً بجودة الرأي ، يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فاني أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغور ما عداه من الآبار ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون . فقال الرسول عليه السلام : لقد أشرت بالرأي . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغورت لينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه . ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس . يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله تعالي وظهرنا على عدونا

كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك اقوام يا نبي الله مانحن أشد لك حبا منهم ولاأطوع لك منهم رغبة في الجهاد ونية ، ولو ظنوا انك تلقى حربا ماتخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير : يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك ، فقال عليه السلام أو يقضي الله خيراً من ذلك . ثم بنى للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب . ولما اجتمعوا عدل عليه السلام صفوفهم . مناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص ثم نظر لقريش فقال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني به) . وفي هذا الوقت وقع خلف بين رؤساء عسكر المشركين فان عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو ابن الحضرمي الذى قتل في سرية عبد الله بن جحش ويحمل ما أصيب من غيره ودعا الناس الى ذلك . فلما بلغ أبا جهل الخبر وسمه بالجبن وقال : والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد . وقبل أن تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الاسد المخزومي وقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه ، فخرج اليه حمزة بن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبر قسمه فاتبعه حمزة فقتله . ثم وقف عليه السلام يحرض الناس على الثبات والصبر وكان فيما قال . (وان الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم) . ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر : عتبة بن ربيعه بين اخيه شيبة وابنه الوليد فطلبوا أكفاءهم فخرج اليهم ثلاثة من الانصار فقالوا : لا حاجة لنا بكم انما نريد أكفاءنا من بني عمنا فأخرج لهم عليه السلام عبيدة بن الحرث ابن عبد المطلب للأول ، وحمزة بن عبد المطلب للثاني ، وعلى بن ابي طالب للثالث . فأما حمزة وعلى فقتلا صاحبيهما وأما عبيدة وعتبه فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه فحمل رفيق عبيدة على عتبة فأجهز عليه وحمل عبيدة بين

الصفوف جريحا يسيل مخ ساقه وأضجعوه الى جانب موقفه صلى الله عليه وآله وسلم فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها وبشره عليه السلام بالشهادة فقال : وددت والله أن أبا طالب كان حيا ليعلم أننا أحق منه بقوله .

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن آبائنا والحلائل

وبعد انقضاء هـذه المبارزة وقف عليـه السلام بين الصفوف يعدلها بقضيب في يـده ، فمر بسواد بن غزية حليف بني النجار وهو خارج من الصف فضربـه بالقضيب في بطنـه وقال : استقم ياسواد ، فقال أوجعتني يارسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدني من نفسك ، فكشف الرسول عليه السلام عن بطنه ، وقال استقد ياسواد ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه ، فقال عليـه السلام : ما حملك على ذلك ؟ فقال يارسول الله قـد حضر ماترى فأردت أن يكون آخر العهد أو يمس جلدي جلدك ، فـدعا له بخير . ثم ابتدأ عليـه السلام يوصي الجيش فقال (لا تحملوا حتى آمركم وان اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) ثم حضهم على الصبر والثبات ثم رجع الى عريشه ومعه رفيقـه أبو بـكر ، وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه . وكان من دعاء الرسول عليه السلام ذاك الوقت ـ كما جاء في صحيح البخاري ـ (اللهـم انشدك عهدك ووعدك ان شئت لم تعبد) . فقال أبو بكر : حسبك فان الله سينجز لك وعـده ، فخرج عليه السلام من العريش وهو يقول (١) (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ثم قال عليـه السلام ـ يحرض الجيش ـ (والذي نفس محمـد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة . ومن قتل قتيلا فله سلبه) فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها : بخ بخ ! مابيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء . ثم قـذف التمرات من يده وأخـذ سيفه وقاتل حتى قتل . واشتد القتال وحمي الوطيس وأيـد

---

(١) سورة القمر آية ٤٥

الله المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن بـه قلوبهم فـلم تكن الا ساعة حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فقتل من المشركين نحو السبعين منهم من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلوا مبارزة أول القتـال ، وأبو البحتري بن هشام . والجراح والد أبو عبيدة قتله ابنـه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر ، وقتل أمية بن خلف وابنه وقـد اشترك في قتلها جماعة من الأنصار مع بـلال بن رباح وعمار بن ياسر ، وقد سعيا في ذلك لما كان يفعله بهما أمية في مكة . ومن القتلى حنظلة بن أبي سفيان وأبو جهل بن هشـام أثخنه فتيان صغيران من الأنصار لما كانا يسمعانه من أنه كان شديد الأيذاء لرسول الله ، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود . وقتـل نوفل بن خويلد قتله علي بن أبي طالب ، وقتل عبيدة والعاص والد أبي أحيحه سعيد بن العاص بن أمية ، وقتل كثيرون غيرهم . أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً قتل منهم عليـه السلام ، عقبه بن أبي معيط والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين ، وكانت هذه الواقعة في (١٧) رمضان وهو اليوم الذى ابتدأ فيه نزول القرآن . وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة .

وقد أمر عليه السلام بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليـه السلام أخبر بهـا قبل حصول الموقعة إلى قليب بـدر ، لأنه عليه السلام كان من سنته في مغازيه إذا مر بجيفـة انسان أمر بهـا فدفنت لايسأل عنه مؤمناً أو كافراً . ولما ألقي عتبـة والد أبي حذيفة أحـد السابقين الى الاسلام توجـه وجه ابنه ففطن الرسول عليـه السلام لذلك فقال : لعلك دخـلك من شأن أبيك شيء ؟ فقـال . لا والله ، ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه الله للاسلام ، فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك . فدعا له الرسول عليه بخير ، ثم أمر عليه السلام براحلته فشد عليها حتى قام على شفـة القليب الذي رمى فيـه المشركون فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ! ويا فلان

ابن فلان : أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ؛ فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها !! فقال : والذي نفس محمد بيده ما انتم بأسمع لما أقول منهم . وتقول عائشة رضى الله عنها : إنما قال إنهم الآن ليعملون أن ما كنت اقول لهم حق ، ثم قرأت ﴿ إنكَ لا تُسمعُ الموتى . وما أنتَ بُمسمعٍ مَنْ في القُبورِ ﴾ تقول يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم من النار (رواه البخاري) ثم أرسل عليه السلام المبشرين ، فأرسل عبدالله بن أبي رواحة لأهل العالية (١) وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله . وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول ﷺ والمسلمين — عادة الاعداء في اذاعة الضراء ، يقصدون بذلك فتنة المسلمين — فجاء أولئك المبشرون بما سر أهل المدينة ، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان . ثم قفل رسول الله راجعا وهنا وقع خلف بين بعض المسلمين في قسمة الغنائم : فالشبان يقولون كنا ردءاً لكم فنشاركم . ولما كان هذا الاختلاف مما يدعوا الى الضعف ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين الى تشتت الشمل أنزل الله ، حسما لهذا الخلاف ، أول سورة الأنفال ﴿ يَسألونكَ عن الأنفالِ قُلِ الأنفالُ لله وَالرسولِ فاتقوا اللهَ وَاصلحوا ذَاتَ بينكُمْ وَاطيعوا اللهَ ورسوله إنْ كنتمْ مُؤمنينَ ﴾ فسطع على افئدتهم نور القرآن فتألفت بعد ان كادت تفترق وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف يشاء — كما حكم القرآن — فقسمها عليه السلام على السواء الراجل مع الراجل ، والفارس مع الفارس . وأدخل في الأسهام بعض من لم يحضر لأمر كلف به وهم : أبو لبانة الأنصاري لأنه كان مخلفا على أهل المدينة ، والحارث بن حاطب لان الرسول عليه

---

(١) قرى بظاهر المدينة وهي العوالي

السلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقق أمراً بلغه ، والحارث بن الصمة وأخوات بن جبير لأنهما كسرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد لأنهما أرسلا يتجسسان الاخبار فلم يرجعا الا بعد انتهاء الحرب ، وعثمان بن عفان لانّ الرسول عليه السلام خلفه على ابنته رقية بمرضها ، وعاصم بن عدي لانه خلفه على أهل قباء والعالية وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الذي جرح في المبارزة الاولى فانه رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصفراء . ولما قارب عليه السلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن :

طلـــع البدر علينا من ثنيـات الوداع
وَجَبَ الشكر علينا ما دعـا لله داع
أيهـا المبعوثُ فينا جئت بالامر المطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكنني من فلان ، لقريب له . فأضرب عنقه وتمكن حمزة من أخيه العباس وعليا من أخيه عقيل . وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنـــا مودّة للمشركين . ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم ؛ هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة ، وقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ،

وعسى أنَّ الله يهديهم بك فيكونوا لك عضداً . فقال عليه السلام : إنَّ الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن وإنَّ الله ليشدِّد قلوب أقوام حتى تكون أشدَّ من الحجارة ؛ وإن مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ ورأى عليه السلام رأى أبي بكر بعد أن مدح كلا من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهي إعزاز الدين وخذلان المشركين ، ثم قال لأصحابه : أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء . وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول في أمر الأسرى فناحت على القتلى شهراً ، ثم أشير عليهم من كبارهم ألا يفعلوا كيلا يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا على ألا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم وتواصوا فيما بينهم أن لا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه .

الفـــداء

فلم يلتفت الى ذلك المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وكان أبوه من الأسرى، فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم وعند ذلك بعث قريش في فداء أسراها وكان أربعة آلاف درهم . ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة ، اعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه . (ومن) الأسرى عمرو بن أبي سفيان ولما طلب من أبيه فداؤه أبى وقال : والله لا يجمع محمد بين ابني ومالي ، دعوه يمسكوه في ايديهم ما بدا لهم . فبينما ابو سفيان بمكة إذ وجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمراً فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو ، فمضى قوم سعد الى رسول الله واخبروه فأعطاهم عمراً ففكوا به سعداً . ومن الأسرى ابو العاص ابن الربيع زوج زينب بنت

الرسول وكان عليه السلام قد اثنى عليه خيراً في مصاهرته ، فانه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من ابي العاص ان يطلق زينب كما فعل ابنا ابي لهب بابنتي الرسول فامتنع وقال : والله لا افارق صاحبتي واحب ان لي بها امرأة من قريش . ولما أسر أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها فلما رأى عليه السلام تلك القلادة رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه : إن رأيتم أن تطلقوا لها اسيرها وتردوا لها قلادتها فافعلوا ، فرضي الأصحاب بذلك ، فأطلقه عليه السلام بشرط ان يترك زينب تهاجر الى المدينة . فلما وصل الى مكة أمرها باللحاق بأبيها وكان الرسول أرسل من يأتي بها فاحتملوها . هذا ، ولما أسلم ابو العاص بن الربيع قبيل الفتح ردَّ عليه امرأته بالنكاح الاول . (ومن) الأسرى سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أنزع ثنيتي سهيل يدلع (١) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن ابداً ، فقال عليه السلام (لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبياً ، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه) وقدم بفدائه مكرز بن حفص . ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء . هذا ، وقد حقق الله خبر الرسول في سهيل فانه لما مات عليه السلام أراد أهل مكة الارتداد ، كما فعل غيرهم من الاعراب ، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله : أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ألم تعلموا ان الله قال (إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُمْ مَيِّتُونَ) وقال (وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعقابِكُمْ) ثم قال : والله إني اعلم ان هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها فلا يغرنكم هذا (يريد ابا سفيان) من انفسكم فانه يعلم من هذا الامر ما اعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم

---

(١) يخرج

وتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمته تامة ، وان الله ناصر من نصره ومقوّ دينه وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبو بكر) وان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة فمن رأيناه ارتد ضربنا عنقه . فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه ، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا ﷺ (ومن) الاسرى الوليد بن الوليد أفتكه أخواه خالد وهشام ، فلما افتدى ورجع الى مكة أسلم فقيل له : هلا اسلمت قبل الفداء ؟ فقال خفت أن يعدّوا اسلامي خوفاً . ولما اراد الهجرة منعه أخواه ففرّ الى النبي في عمرة القضاء (ومن) الاسرى السائب بن يزيد ، وكان صاحب الراية في تلك الحرب ، فدى نفسه وهو الجد الخامس للامام محمد بن ادريس الشافعي . (ومنهم) وهب بن عمير الجمحي كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثير الايذاء لرسول الله ، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر فقال عمير : والله لولا دين عليَّ عندي قضاؤه وعيال أخشى عليه الفقر بعدي كنت آتي محمداً فأقتله فان ابنى أسير في أيديهم ، فقال صفوان : دينك عليّ وعيالك مع عيالي فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمه وانطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير . متوشحاً سيفه فقال : هذا الكلب عدو الله ماجاء الا بشر ، ثم قال للنبي عليه السلام : هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه ، فقال : أدخله علي . فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله . فلما رآه عليه السلام قال : أطلقه ياعمر ، ادن ياعمير فدنا وقال : أنعموا صباحا ، فقال عليه السلام قد أبدلنا الله تحية خيراً من تحيتك وهي السلام ، ثم قال ماجاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في ايديكم فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف ؟ قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال عليه السلام : أصدقني ما الذى جئت له ؟ قال ما جئت الا لذلك . قال عليه السلام : كلا بل قعدت أنت وصفوان في الحجر وقلتما كيت وكيت فأسلم عمير وقال كنا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل

عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره الا أنا وصفوان ! ! فقال عليه السلام فقهوا أخاكم في دينه وأقرؤوه القرآن وأطلقوا أسيره . فعاد عمير الى مكة وأظهر اسلامه . (ومن) الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير مر به أخوه فقال للذي أسره : شد يدك به ، فان أمه ذات متاع لعلها تفديه . فقال له يا أخي هذه وصايتك بي ! ثم بعث أمه بفدائه أربعة آلاف درهم . (ومن) الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ كان قد خرج لهذه الحرب مكرهاً ولما وقع في الأسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب فقال : علام ندفع وقد اسكرهنا على الخروج فقال عليه السلام : لقد كنت في الظاهر علينا فأخذت منه فدية نفسه وابن اخيه ، ثم قال الرسول . لقد تركتني فقير قريش مابقيت ، قال كيف وقد تركت لأم الفضل أموالا ، وقلت لها : إن مت فقد تركتك غنية . فقال العباس : والله مااطلع على ذلك أحد . وهذ العمل غاية مايفعل من العدل والمساواة فانه عليه السلام لم يعف عمه مع علمه بأنه إنما خرج مكرها وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل ؛ ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ . (ومن) الأسرى أبو عزة الجمحي الشاعر كان شديد الايذاء لرسول الله بمكة فلما أسر قال : يامحمد إني فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن ؛ فمنَّ عليه فضلا منه .

العتاب في الفداء

ولما تم الفداء أنزل الله في شأنه ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى (١) يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ

(١) ثخن : الشيء من باب ظرف اي غلظ وصلب اثخنته ادهنته يقال اثخن في الارض قتلاً . ا هـ مختار الصحاح ص ٦٨

الآخِرَةَ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ★ لولا كتابٌ من الله سبقَ لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ ﴾ نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الاثخان في قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار ، وعاب بعض المسلمين على إرادة عرض الدنيا وهو الفدية ، ولولا حكم سابق من الله الا يعاقب مجتهدا على اجتهاده ما دام القصد خيرا لكان العذاب ، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبنى أخذها على النظر الصحيح . وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه السلام فيما جاء به ، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناء على رأي كثير من الصحابة . وقد وعد الله الاسرى الذي يعلم في قلوبهم خيراً بأن يؤتيهم خيرا مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال ﴿ يا أيها النبيُّ قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم اللهُ في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾ وهذه الغزوة هي التي أعز الله بها الاسلام وقوي أهله ودمغ فيه الشرك وخرب محله مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالاسلام وأهله مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسومة والخيلاء الزائدة ولذلك قال الله ممتنا على عباده بهذا النصر ﴿ ولقد نصركم اللهُ ببدرٍ وأنتم أذلة ﴾ أي قليل عددكم لتعلموا ان النصر إنما هو من عند الله فهي أعظم غزوات الاسلام اذ بها كان ظهوره وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الاعداء الألداء للاسلام ، ودخل الرعب في قلوب العرب الآخرين ، فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال ؛ فلا جرم ان شكرنا العلي الاعلى على هذه العناية واتخذنا يوم النصر في بدر وهو السابع عشر من رمضان ، عيدا نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين

غزوة قينقاع

هذا ، واذا كان للشخص عدوان فانتصر على احدهما حرك ذلك شجو الآخر وهاج فؤاده فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه ، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر فانهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار ، وهذا مما يدعو المسلمين للتحرز منهم وعدم ائتمانهم في المستقبل اذا شبت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم فأنزل الله في سورة الأنفال ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ (١) إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ فدعا عليه السلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد فقالوا : يا محمد لا يغرنك مالقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس ، وكانوا أشجع يهود ، فأنزل الله في سورة آل عمران ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ . وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبدالله بن أبيّ وقال : اني رجل أخشى الدوائر فأنزل الله تعليما للمسلمين في سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

---

(١) اي فاطرح لهم العهد على طريق مستو ، قصداً بأن تظهر لهم نبذ العهود ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد لأن ذلك خيانة ، لذا قال (إن الله لا يحب الخائنين)

يُسارعونَ فِيهِمْ يَقولون نَخشى أنْ تُصيبَنا دَائِرةٌ فَعسَى اللهُ أنْ يـأتي بِالفتحِ أوْ أمرٍ مِنْ عِندهِ فَيصبحوا عَلى مَا أسَرّوا فِي أنفسِهِمْ نَادمينَ ﴾ وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار اليهم عليه السلام في نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمه الحمزة وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري فحاصرهم خمس عشرة ليلة .

جلاء قينقاع

ولما رأوا من انفسهم العجز عن مقـاومة المسلمين وادركهم الرعب سألوا رسول الله ان يخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال فقبل ذلك عليه السلام وكل بجلائهم عبادة بن الصامت وامهلهم ثلاث ليال فذهبوا الى اذرعات (١) ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا وخمس عليه السلام اموالهـــم واعطى سهم ذوي القربي لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل ، ولما سئل عن ذلك قال : إنمـا بنـو هاشم وبنـو المطلب شيء واحد في الجاهلية والاسلام . هكـذا وشبك بين اصابعه

غزوة السويق

كان ابو سفيان متجها لأنه لم يشاهد بدراً التي قتل فيها ابنه وذوو قرباه فحلف الا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمـداً . وليبر بقسمه خرج بمائتين من اصحابه يريد المدينة ، ولمـا قاربها أراد أن يقـابل اليهود من بني النضـــير

---

(١) قرية واقعة بين السويداء ودمشق وتسمى الآن [ازرع] واهلها مسلمون بخلاف السويداء : دروز بعيدين عن الاسلام كل البعد وجوهر الاسلام الذين يدعون الاسلام ولكن لا صلاة ولا صيام الا انهم يسمون ابناءهم بأسماء ابناء المسلمين واذرع تابعة لمنطقة حوران وتبعد عن دمشق ١٠٠ كم جنوباً ا هـ (ش)

ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين . فأتى سيدهم حي بن اخطب فلم يرض مقابلته فأتى سلام بن مشكم فأذن له واجتمع به ثم خرج من عنده وارسل رجالا من قريش الى المدينة فحرقوا في بعض نخلها ووجدوا أنصاريا فقتلوه ، ولما علم رسول الله خرج في اثرهم في مائتين من اصحابه لخمس خلون من ذي الحجة بعد ان ولى على المدينة بشير بن عبد المنذر ولكن لم يلحقهم لأنهم هربوا ، وجعلوا يخففون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الاسراع فألقوا ما معهم من جرب السويق فأخذه المسلمون ، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق .

صلاة العيد

وفي هذا العام سنّ الله للعالم الاسلامي سنة عظيمة ، بها يتمكن ابناء البلد الواحد من المسلمين ان يجدّدوا عهود الاخاء ويقووا عروة الدين الوثقى وهي الاجتماع في يومي عيد الفطر وعيد الاضحى . وكان عليه السلام يجمع المسلمين في صعيد واحد ويصلي بهم ركعتين تضرعا الى الله الا يفصم عروتهم وان ينصرهم على عدوّهم ، ثم يخطبهم حاضاً على الائتلاف ومذكراً لهم ما يجب عليهم لانفسهم ، ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً وبعد ذلك يخرجون لاداء الصدقات للفقراء والمساكين حتى يكون السرور عاما لجميع المسلمين فبعد الفطر زكاته وبعد الاضحى تضحيته . نسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ويوفقنا لاعمال سلفنا .

زواج عليّ بفاطمة عليها السلام

وفي هذه السنة تزوّج عليّ بن ابي طالب وعمره إحدى وعشرون سنة بفاطمة بنت رسول الله وسنها خمس عشرة سنة وكان منها عقب رسول الله

بنو الحسن الحسين وزينب ، وفيها (١) دخل عليه السلام بعائشة بنت ابي بكر وسنها اذ ذاك تسع سنوات .

السنة الثالثة

يا لله يقضي على الشقيّ بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر فيتخذ الغدر رداءاً والخيانة شعاراً فلا ينجح معه الا اراحة العالم من شرّه ، هذا كعب بن الاشرف اليهودي عظيم بني النضير أعمته عداوة المسلمين حتى خلع برفع الحياء وسار يحرّض قريشا على حرب رسول الله ويهجوه بالشعر ويجتهد في اثارة الشحناء بين المسلمين ، فكلما جبر عليه السلام كسرا هاضه هذا الشقي بما ينفثه من سموم لسانه .

قتل كعب بن الاشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر ورأى الأسرى مقرنين في الحبال خرج الى قريش يبكي قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين (١) فقال عليه السلام : مَنْ لكعبِ بنِ الاشرفِ فانه قد آذى اللهَ ورسوله ؟ فقال محمدُ بنُ مسلمة الانصاري الأوسي : أتحب أن اقتله ؟ قال نعم ، قال : أنا لك به وأذن لي أن أقول شيئاً أتمكن به ، فأذن له ، ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعبا فقال له : إن هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقةً وانه قد عنانا وإني قد أتيتك أستسلفك ، قال وأيضا والله لتملنه قال إنا قد اتبعناه

(١) اي في هذه السنة تزوج رسول اله صلى الله عليه وسلم بعائشة .

(٢) الحديث : عن جابر رضي الله عنه : اخرجه الشيخان وابو داود وهنا في بعض ترك من الالفاظ تيسير الوصول (٣ ـ ١٧٨)

رواية البخاري من لكعب بن الاشرف فانه قد اذى الله ورسوله اخرجه مسلم والنسائي هداية الباري ٢ـ٢٣١

فلا نحب أن ندعه حتى ننظر الى اي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا ان تسلفنا وسقا أو وسقين قال نعم ولكن ارهنوني . قالوا : أي شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنوني أبناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن (١) بوسق أو وسقين ، هذا عار علينا ولكن نرهنك اللأمة (يعني السلاح) فرضي فواعده ليلاً أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع وعباد ابن بشر والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر وكلهم أوسيون فناداه محمد بن مسلمة فأراد أن ينزل فقالت له امرأته : أين تخرج الساعه وإنك امرؤ تحارب ؟ فقال انما هو ابن اخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة . إن الكريم لو دعي الى طعنة بليل لأجاب . ثم قال محمد لمن معه إذا جاءني فاني آخذ بشعره فأشمه فاذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه فنزل اليهم كعب متوشحا سيفه وهو ينفح منه ريح المسك فقال محمد : ما رأيت كاليوم ريحا أطيب أتأذن لي أن أشم رأسك ؟ قال نعم فشمه ، فلما استمكن منه قال : دونكم فاقتلوه ففعلوا وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم . ثم أتوا النبي فأخبروه . وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام وكان عليه السلام اذا رأى من رئيس غدراً ومقاصد سوء ومحبة لاثارة الحرب أرسل له من يريحه من شره . وقد فعل كذلك مع أبي عفك اليهودي وكان مثل كعب في الشر .

غزوة غطفان

بلغ رسول الله أن بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس

---

(١) خمسة اوسق من تمر . جمع وسق بفتح اوله وسكون ثانية وحكي كسر اوله وهو ستون صاعا تفسير غريب الحديث ص ٢٥ والصاع ، اربعة امداد والمد رطل وثلث او رطلان على اختلاف المذهبين . تيسير الوصول ٣ ـ ١٢٢

منهم اسمه دعثور يريدون الغارة على المدينه فأراد عليه السلام ان يغل ايديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء فخرج اليهم من المدينة في أربعمائــة وخمسين رجلا لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول وخلف على المدينة عثمان بن عفـان . ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا الى رؤوس الجبـال ، ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا امر فعسكروا به وحدث أنه عليه السلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقـون فأبصره دعثور فأقبل اليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال : من يمنعك مني يا محمد ؟ فقال الله . فأدركت الرجل هيبة ورعبا اسقطا السيف من يده ، فتنـاوله عليه السلام وقال لدعثور : من يمنعك مني ؟ قال لا احد . فعفا عنه فأسلم الرجل ودعا قومه للاسلام وحول الله قلبه من عداوة رسول الله وجمع الناس لحربه الى محبته وجمع الناس له ﴿ ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ منْ يشاء ﴾ وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب ﴿ فبما رحمةٍ منَ الله لِنتَ لهمْ ولوْ كنتَ فظا غليظَ القلب لانفضُّوا من حــولكَ فاعفُ عنهمْ واستغفرْ لهمْ وشاورهمْ في الامرِ ﴾

غزوة بحران

بلغه عليه السلام أن جمعا من بني سليم يريدون الغارة على المدينـة فسار اليهم في ثلاثمائة من اصحابه لست خلون من جمادى الاولى وخلف على المدينة ابن أم مكتوم . ولما وصل الى بحران (١) تفرقوا ولم يلق كيداً فرجع .

---

(١) موضع بناحية الفرع ، وهذا موضع من اضخم اعراض المدينة .

سرية

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة اغلق في وجه تجارتهم ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم ارسلوا عيرا الى الشام من طريق العراق وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان ابن امية وحويطب بن عبد العزى فجاءت اخبارهم لرسول الله فأرسل لهم زيد ابن حارثة في مائة راكب يترقبونهم وكان ذلك في جمادي الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القردة) بناحية نجد فأخذت العير وما فيها وهو الرجال ، وقد خمس الرسول عليه السلام هذه حينما وصلت له .

غزوة أحد

لما أصاب قريش ما أصابها ببدر وأغلقت في وجوههم طرق التجارة اجتمع من بقي من أشرافهم إلى أبي سفيان رئيس تلك العير التي جلبت عليهم المصائب — وكانت موقوفة بدار الندة ولم تكن سلمت لاصحابها بعد — فقالوا : إن محمداً قد وترنا وقتل خيارنا وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استمداداً لحرب محمد وأصحابه وقد رضي بذلك كل من له نصيب وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار فجمعوا لذلك الرجال فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش وهم حلفاؤهم من بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة ومعهم أبو عامر الراهب الأسى وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ ومعه عدد ممن هم على شاكلته وخرج معهم جماعات من اعراب كنانة وتهامة وقال صفوان بن أمية لأبي عزة الشاعر الذي لا ينسى القارئ أن الرسول منّ عليه ببدر وأطلقه من غير فداء : إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك فقال إني عاهدت محمداً ألا أعين عليه وأخاف ان وقعت في يده

مرة ثانية ألا أنجو ، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين . ودعا جبير بن مطعم غلاما حبشياً له اسمه وحشى ، وكان رامياً قلما يخطئ ، فقال له اخرج مع الناس فان أنت قتلت حمزة بعمى طعيمة فأنت حر ثم خرج الجيش ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمورواصطحب الاشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة. أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به اليه عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب محتجا بما أصابه يوم بدر . ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر وقال : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فان هم أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فكان مع رايه شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبي ، أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدراً منهم فأشار عليه بالخروج وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب ، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لانهم الأكثرون عدداً والأقوون جلداً فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خلون من شوال وحضهم في خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم (لكم النصر ماصبرتم) ثم دخل حجرته ولبس عدته فظاهر بين درعين (١) وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره : ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول على الخروج لاموهم وقالوا : ردوا الأمر لرسول الله فما أمر ائتمرنا . فلما خرج عليه السلام قالوا يا رسول الله نتبع رأيك فقال : ماكان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين اعدائه . ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن الحضير . وخرج من المدينة بألف رجل . فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه السلام كتيبة كبيرة فسأل عنها فقيل هؤلاء حلفاء

---

(١) اي لبس درعا فوق درع وهما ذات الفضول ، وفضة التي اصابها من قينقاع

عبد الله بن أبي من اليهود فقال انا لانستعين بكافر على مشرك وامر بردهم لانه لا يأمن جانبهم من حيث أن لهم اليد الطولى في الخيانة . ثم استعرض الجيش فرد من استصغر وكان فيمن رد رافع بن خديج وسمرة بن جندب ، ثم اجاز رافعاً لما قيل له انه رام فبكى سمـــرة وقال لزوج أمه : أجاز رسول الله رافعاً وردني مع اني أصرعه ، فبلغ رسول الله الخبر فأمرهما بالمصارعة فكان الغالب سمرة فأجازه . ثم بات عليه السلام محله ليلة السبت واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس . وفي السحر سار الجيش حتى اذا كان بالشوط وهو بستان بين أحد والمدينة ، رجـــع عبدالله بن أبي بثلثمائة من اصحابه وقال : عصاني وأطاع الولدان فعلام نقتل انفسنا فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر وقال يا قوم : اذكركم الله ان تخـذلوا قومكم ونبيكم ﴿ قالوا لو نعلم قِتالاً لاتبعناكم ﴾ فقال له : ابعـدكم الله فسيغني الله عنكم نبيه . ولما فعل ذلك عبدالله بن أبي همت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا : بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس فعصمهما الله وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمتخذلين فقوم يقولون نقاتلهم وقوم يقولون نتركهم ، فأنزل الله في سورة النساء ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي المُنافقينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أركسهمْ بِما كسبُوا أتريدونَ انْ تهدوا مَنْ أضلَّ اللهُ ومَن يُضلل اللهُ فلنْ تجدَ لهُ سبيلاً ﴾ . ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد (١) وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة ، أما المشركون فنزلوا ببطن الوادي من قبل أحد وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل ، وعلى الشاة صفوان بن أمية فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خالد وجعل آخرين أمام الباقين واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجـــلا رأسهم عبدالله بن جبير الأنصاري فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال : ولا تبرحوا : إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وان رأيتموهم ظهـــروا

---

(١) جبل شمال المدينة الشرقي

علينا فلا تبرحوا ثم عدّل عليه السلام الصفوف وخطب المسلمين وكان فيما قال : ألقى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها فاتقوا ربكم وأجملوا في طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى له سائر جسده ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير فقتله ، ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة فقتله عليّ فحمل اللواء اخوه عثمان فقتله حمزة فحمله أخ لهما اسمه أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه فتناوب اللواء بعده أربعه من اولاد طلحة بن ابي طلحة وكلهم يقتلون . وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن ابي بكر يطلب البراز فأراد ابوه ان يبرز له . فقال عليه السلام : متعنا بنفسك يا ابا بكر . ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون . ولما التقت الصفوف وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدن الاشعار تهييجاً لعواطف الرجال ، وكان عليه السلام كلما سمع نشيد النساء يقول (اللهم بك اجول وبك اصول وفيك اقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل) وفي هذه المعمعة قتل حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله سيد الشهداء غافله وحشيّ وهو يجول في الصفوف وضربه بحربة لم تخطىء ثنايا بطنه .

هذا ؛ ولما قتل حملة اللواء من المشركين ولم يقدر احد على الدنو منه ولوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب . فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا : ما لنا في الوقوف من حاجة ، ونسوا امر السيد الحكيم صلى الله عليه وآله وسلم فذكرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون . اما رئيسهم فثبت وثبت معه قليل منهم . فلما راى خالد بن الوليد احد رؤساء المشركين خلو الجبل من الرماة

انطلق ببعض الجيش فقتل من ثبت من الرماة واتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم : فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله وكان من المشركين رجل يقال له ابن قميئة قتل مصعب بن عمير صاحب اللواء واشاع انّ محمداً قد قتل فدخل الفشل في المسلمين حتى قال بعضهم : علام نقاتل إذا كان محمداً قد قتل ؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم ؛ وقال جماعة : اذا كان محمد قتل فقاتلوا عن دينكم وكان من نتيجة هذا الفشل ان انهزم جماعة من المسلمين من بينهم الوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن المعلى ؛ وعثمان بن عفان، وتوجهوا إلى المدينة ولكنهم استحيوا ان يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث وثبت رسول الله ﷺ ومعه جماعة منهم ابو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بجحفته ، وكان راميا شديد الرمى فنثر كنانته بين يدي رسول الله وصار يقول : وجهي لوجهك فداء ، وكل من كان يمرُ ومعه كنانة يقول له عليه السلام : انثرها لأبي طلحة ؛ وكان ينظر الى القوم ليرى ماذا يفعلون فيقول له ابو طلحة : يا نبي الله بأبي انت وامي ، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم ! نحري دون نحرك . وممن ثبت سعد بن ابي وقاص فكان عليه السلام يقول له : ارم سعد ! فداك ابي وامي ومنهم سهل بن حنيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس . (ومنهم) ابو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري تترس على رسول الله فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه . (وكان) يقاتل عن الرسول زيادة ابن الحارث حتى اصابت الجراح مقاتله فأمر به فأدني منه ووسده قدمه حتى مات ، وقد اصابه عليه السلام شدائد عظيمة تحملها بما اعطاه الله من الثبات فقد أقبل ابي بن خلف يريد قتله فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه وقال : خلوا طريقه . فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو

راجع ولم يقتل رسول الله غيره لا في هذه الغزوة ولا في غيرها (وكان) ابو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع الرسول في حفرة منها فأغمى عليه وخدشت ركبتاه فأخذ علي بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله وهما ممن ثبت حتى استوى قائما فرماه عتبة بن ابي وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن ابي بلتعة فقتله ، وشج وجهه عليه السلام عبد الله بن شهاب الزهري وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر فيها من ضربة ضربه بها ابن قميئة ، غضب الله عليه ، فجاء ابو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت في ذلك ثنيتاه وقال حينئذ عليه السلام (١) : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ؟ فأنزل الله في سورة آل عمران ﴿ لَيسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ او يَتوبَ عليهمْ اوْ يُعذِّبهمْ فأنهمْ ظالمونَ ﴾ وكان اول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعب بن مالك الأنصاري فنادى : يا معشر المسلمين ابشروا ، فأشار اليه الرسول ان اصمت . ثم سار بين سعد بن ابي وقاص وسعد بن عبادة يريد الشعب ومعه جمع ابو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة ، واقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبدالله بن المغيرة يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، فعثر به فرسه ووقع في حفرة فمشى اليه الحارث بن الصمة وقتله . لما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم وكان علي يسكب الماء ثم اخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم (٢) . ثم اراد عليه السلام ان يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه فحمله طلحة بن عبيد الله حتى اصعده فنظر الى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال : لا ينبغي لهم ان يعلونا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك ثم ارسل اليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم . (وقد) اصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي . تيسير الوصول ٣ ـ ١٨٣

(٢) متفق عليه عن أبي حازم الطب النبوي ص ٣٨

الجراحات لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفا أن يصل للرسول فوجد بطلحة نيف وسبعون جراحة وشلت يده ، واصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة ، أما القتلى فكانوا نيفا وسبعين منهم ستة من المهاجرين والباقون من الأنصار . (ومن) المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير . ومن الأنصار حنظلة بن أبي عامر . وعمرو بن الجموح وابنه خلاد بن عمرو وأخو زوجه والدجابر بن عبدالله ، فأتت زوج عمر وهند بنت حرام وحملتهم زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة فنهى عليه السلام عن الدفن خارج أحد فرجعوا (وقتل) سعد بن الربيع وأرسل عليه السلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق فقيل له إن رسول الله يسأل عنك فقال لمبلغه قل لقومي يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة فوالله ما لكم عندي عذر . وقتل انس بن النضر ، عم أنس بن مالك فانه لما سمع بقتل رسول الله قال : يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده ؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم ، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه . ومثلت قريش بقتلى أحد حتى إن هنداً زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها ، وفعلوا قريباً من ذلك باخوانه الشهداء . ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعال إن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل . ثم قال إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم إنَّ المشركين رجعوا الى مكة ولم يعرجوا على المدينة ، وهذا مما يدل على أنَّ المسلمين لم ينهزموا في ذلك اليوم والا لم يكن بد من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم . ثم تفقد عليه السلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً ودفن الشهداء كلهم بأحد كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه ، وكان يدفن الرجلين والثلاثة في لحد واحد ، لما كان عليه المسلمون من التعب ، فكما يشق عليهم أن

يحفروا لكل شهيد حفرة . ولما رجع المسلمون الى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون واظهروا ما في قلوبهم من البغضاء وقالوا لاخوانهم : ﴿ لَوْ كانُوا عِندَنا ما ماتوا وَما قُتلوا ﴾

وهـــذا الذي ابتلى به المسلمون درس مهم لهم يذكرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا ؛ أولهما طاعة الرسول في أمره فقد قال للرماة لا تبرحوا مكانكم إن نحن نصرنا او قهرنا ، فعصوا امره ونزلوا . الثـــاني ان تكون الاعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة ، وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا والتهوا بالغنائم حـــتى عوقبوا ، وفي ذلك أنزل الله في سورة آل عمران التي فصلت غزوة أحـــد ﴿ وَلقدْ صدقَكُمُ اللهُ وَعدهُ إذْ تَحسُّونَهمْ بِإذنه حتى اذا فَشلتمْ وَتنازعتمْ في الأمرِ وَعصيتمْ مِنْ بعدِ ما أراكُمْ ما تُحبُّونَ مِنكمْ مَنْ يُريدُ الدُّنيا وَمنكمْ مَنْ يُريدُ الآخرةَ ثُمَّ صرفكُمْ عَنهمْ ليبتليكمْ وَلقدْ عفا عنكم واللهُ ذو فَضلٍ على المؤمنينَ ﴾ فسبب هذا الابتلاء التنازع فينبغي الاتفاق ؛ والفشل فينبغـــي الثبات ، والعصيان فينبغي طاعة ولاة الامور . نسأل الله التوفيق .

غزوة حمراء الاسد

ولما رجع عليه السلام الى المدينة أصبح حذراً من رجوع المشركين الى المدينة ليتمموا انتصارهم فنادى في اصحابه بالخروج خلف العدو وألا يخرج الا من كان معه بالأمس فاستجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهـــم القرح فضمدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يحل فأعطاه عليَّ بن أبي طالب وولى على المدينة ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حـــتى وصلوا الى حمراء

الأسد (١) وقد كان ما ظنه الرسول حقاً فان المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شنّ الغارة على المدينة حتى يتمّ لهم النصر فأصروا على الرجوع ولكن لما بلغهم خروج الرسول في اثرهم ظنوا انه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس والقى الله الرعب في قلوبهم فتمادوا في سيرهم الى مكة وظفر عليه السلام وهو في حمراء الأسد ، بأبي عزّة الشاعر الذي منّ عليه ببدر بعد ان تعهد الا يكون على المسلمين فأمر بقتله ، فقال يا محمد أقلني وامنن عليّ ودعني لبناتي واعطيك عهداً ألا اعود لمثل ما فعلت ، فقال عليه السلام : لا والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمداً مرّتين لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، اضرب عنقه يا زيد فضرب عنقه . وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف فانّ الرجل الذي لا يحترز مما اصيب منه ليس بعاقل فلا بدّ من الحزم لاقامة دعائم الأمن والسلام .

حوادث

وفي هذه السنة زوّج عليه السلام بنته أمّ كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده ولذلك كان يسمى ذا النورين ، وفيها تزوّج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب وأمها اخت عثمان بن مظعون وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه فتوفي عنها بجراحه اصابته ببدر . وفيها تزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة الهلالية من بني هلال بن عامر كانت تدعى في الجاهلية أمّ المساكين لرأفتها واحسانها اليهم وكانت قبله تحت عبدالله بن جحش فقتل عنها بأحد وهي اخت ميمونة بنت الحارث لأمها . وفيها ولد الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ، وفيها حرمت الخمر وكان تحريمها بالتدريج

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة بطريق مكة

لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها فيصعب اذاً تحريمها دفعة واحدة ، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها ، لأنَّ المنكر إذا اسند تحريمه لحادثة أقرَّ الجميع على تقبيحها كان ذلك أشد تأثيراً في النفس. فأول ما بين فيها قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ يَسئلونكَ عَنِ الخمرِ والميسرِ قلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ ﴾ فمنفعةُ الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ، ومنفعة الخمر تقوية الجسم ولما شربها بعض المسلمين وخلط في القراءة حرمت الصلاة على السكران ؛ فقال تعالى في سورة النساء ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تَقربوا الصَّلاة وأنتمْ سَكارى حتى تَعلمُوا ما تَقولونَ ﴾ . ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على اخوانهم حرمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة (يا أيُّها الذينَ آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والانصابُ (١) والازلامُ (٢) رجسٌ مِنْ عَملِ الشَّيطانِ فاجتنبوهُ لعلكم تُفلحونَ إنما يُريدُ الشَّيطانُ أنْ يُوقعَ بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويَصدَّكم عَن ذِكرِ اللهِ وعَنِ الصلاهِ فَهل أنتم مُنتهونَ) وقد اجاب المسلمون على ذلك بقولهم ، انتهينا . فليجب المسلمون الآن .

السنة الرابعة

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله أن طليحة وسلمة ابني خويلد الاسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه السلام فدعا أبا سلمة ابن عبدالاسد المخزومي ، وعقد له لواء وقال له : سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فأغر عليهم وارسل معه رجالا فسار في هلال المحرم حتى بلغ قطناً (٣) فأغار

(١) هي حجارة يصب عليها دماء الذبح وتعبد

(٢) هي القداح التي كانوا يستقسمون بها ، وفي قرن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام نهاية التنفير ، ولذلك قال عليه السلام : شارب الخمر كعابد الوثن

(٣) جبل لبني أسد بناحية فيد شرقي المدينة

عليهم فهربوا من منازلهم ووجد أبو سلمة إبلا وشاة فأخذها ولم يلق حربا ورجع بعد عشرة أيام من خروجه ، وفي بدئها أيضاً بلغه عليه السلام أن أبا سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى المقيم بعرنة (١) يجمع الجموع لحربه فأرسل له عبدالله بن انيس الجهني وحده ليقتله فاستأذن رسول الله ﷺ أن يتقول حتى يتمكن فاذن له وقال : انتسب لخزاعة فخرج لخمس خلون من المحرّم ، ولما وصل اليه قال له سفيان : ممن الرجل ؟ قال : من خزاعة سمعت بجمعك لحمد فجئت لا كون معك ، فقال له : أجل إني لفي الجمع له ، فمشى عبد الله معه وحدثه وسفيان يستحلى حديثه ، فلما انتهى الى خبائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبدالله حتى نام فقام وقتله ثم ارتحل حتى اتى المدينة ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال .

سرية

وفي صفر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيونا على قريش مع رهط عضل والقارة الذين جاءوا رسول الله ﷺ يطلبون من يفقههم في الدين وامر عليهم عاصم بن ثابت الانصاري فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى اذا كانوا بالرجيع (٢) غدر بهم اولئك الرهط ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان قتله عبدالله بن أنيس فنفروا اليهم بقرب من مائتي رام واقتفوا آثارهم حتي قربوا منهم فلما أحس بهم رجال السرية لجأوا الى جبل هناك فقال لهم الاعداء . انزلوا ولكم العهد الا نقتلكم فنزل اليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم وقاتلهم الباقون ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك .

---

(١) موضع قريب من عرفات

(٢) ماء لبني هزيل بين مكة وعسفان .

ولما رأى الثلاثة الذين سلموا عين الغدر امتنع احدهم فقتلوا ، واما الاثنان فباعوهما بمكة ممن كان له ثأر عند المسلمين وهناك قتلا . وقد قال احدهما وهو حبيب بن عدى حين ارادوا قتله :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي (١)
وذلك في ذات الاله وان يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع (٢)

سرية

وفي صفر (٣) وقد على رسول الله ابو عامر بن مالك ملاعب الاسنة ، وهو من رؤوس بني عامر ، فدعاه عليه السلام الى الاسلام فلم يسلم ولم يبعد بل قال إني ارى امرك هذا حسنا شريفا ولو بعثت معي رجالا من اصحابك الى اهل نجد فدعوهم الى امرك رجوت ان يستجيبوا لك . فقال عليه السلام : اني اخشى عليهم اهل نجد . فقال ابو عامر : انا لهم جار فارسل معهم المنذر ابن عمرو في سبعين من اصحابه كانوا يسمون القراء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن فساروا حتى نزلوا بئر معونة (٤) فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بني عامر ، فلما وصل اليه لم يلتفت الى الكتاب بل عدا على حرام فقتله ثم استصرخ على بقية البعثة اصحابه من بني عامر فلم يرضوا ان يخفروا جوار ملاعب الاسنة فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم وهم رعل

(١) هذه بعض الأبيات وفي رواية : فوالله ما أرجو إذا مت مسلما .
(٢) الشلو : الجسد الممزع : القطع
(٣) وذلك في السنة الرابعة .
(٤) شرقي المدينة بين ارض بني عامر وحرة بني سليم

وذكوان (١) وعصية فاجابوه وذهبوا معه حتى اذا التقوا بالقراء أحاطوا بهم : وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعا لقلة عددهم وكثرة عدوهم ولم ينج الا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن انه منهم وعمرو بن أمية كان في سرح القوم . وابلغ عليه السلام خبر القراء فخطب في اصحابه ، وكان فيما قال : (ان اخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم ، وانهم قالوا ربنا بلغ قومنا انا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضي عنا) ، وكان وصول خبر هذه السرية والرجيع في يوم واحد فحزن عليهم ﷺ حزنا شديدا واقام يدعو على الغادرين بهم شهرا في الصلاة

غزوة بني النضير

يا لله ما اسوأ عاقبة الطيش فقد تكون الامة مرتاحة البال هادئة الخواطر حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم ، وهذا ما حصل ليهود بني النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر ولكن بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغيا . فبينما رسول الله ﷺ وبعض من اصحابه في ديار بني النضير اذ ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ احد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو فاطلع عليه السلام على قصدهم فرجع وتبعه اصحابه ، ثم ارسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم : اخرجوا من بلادي فقد هممتم بما هممتم من الغدر (اذ الحزم كل الحزم الا يتهاون الانسان مع من عرف منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فارسل لهم

---

(١) قنت صلى الله عليه وسلم شهراً يدعو في الصبح على احياء من العرب على رعل وذكوان وعصيه وبني لحيان . اخرجه الشيخان . تيسير الوصول ٣ـ١٨٤

إخوانهم المنافقون يقولون لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم (١) ﴿ لـئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم احداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثمّ لا ينصرون ﴾ ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء فأمر عليه السلام بالتهيؤ لقتالهم ، فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، واعطى رايته علياً . أمّا بنو النضير فتحصنوا في حصونهم وظنوا أنها ما نعتهم من الله فحاصرهم عليه السلام ست ليال ، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكـون ادعى الى تسليمهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ولم يروا من عبدالله بن ابي مساعدة بل خذلهم كما خذل بني قينقاع من قبلهم ، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم وان لهم ما حمت الابل من اموالهم ، إلا آلة الحرب ، ففعل وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون (٢) . ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر ، ومنهم أكابرهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق . ومنهم من سار الى أذرعات بالشام ، وأسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وأبو سعد ابن وهب ولم يخمس رسول الله ما أخذ من بني النضير فانه فيء لم يوجف عليه بخيل ولاركاب ، ومثل هذا يكون لمعدات الحرب وللرسول يطعم منه اهله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كما قال تعالى في سورة الحشر ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾

---

(١) سورة الحشر وأول الآية (آية ١١ـ٢١) الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب . يعني بني النضير .

(٢) كما ذكر تعالى في اول سوره الحشر وأنزل الله سورة الحشر في بني النضير . حتى آية(١٧) وهذه الغزوة كانت في السنة الرابعة .

فأعطى عليه السلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم وردوا لاخوانهم من الانصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم؟ واخذ عليه السلام أرضا يزرعها ويدخر منها قوت اهله عاما

غزوة ذات (١) الرقاع

وفي ربيع الآخر بلغه عليه السلام أن قبائل من نجد يتهيأون لحربه وهم بنو محارب وبنو ثعلبة فتجهز لهم وخرج في سبعمائة مقاتل وولى على المدينة عثمان بن عفان ، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها احداً غير نسوة فأخذهن فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال ، ثم اجتمع جمع منهم وجاءوا للحرب فتقارب الناس واخاف بعضهم بعضاً . ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه السلام ان يغدر بهم الأعداء وهم يصلون صلى بالمسلمين صلاة (٢) الخوف فألقى الله الرعب في قلوب الأعداء وتفرقت جموعهم خائفين منه ﷺ .

ومال الامام البخاري الى أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة واجمع أهل السير على (٣) خلافه .

غزوة بدر الآخرة

لما أهل شعبان هذا هذا (٤) العام كان موعد أبي سفيان فانه بعد انقضاء

---

(١) سميت ذات الرقاع لأنهم رقعوا راياتهم وقيل شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع وقيل : الحجارة أوهنت اقدامهم فشدوا رقاعا . اهـ تهذيب السيرة ١ـ٢٧٢

(٢) من أراد التوسعة في صلاة الخوف فليراجع كتب الفقه .

(٣) اي في السنة الرابعة . ١ـ٢٧٢

(٤) وذلك في السنة الرابعة . ١ـ٢٧٧

غزوة أحد قال للمسلمين : موعدنا بدر العام المقبل ، فأجابه الرسول الى ذلك .
وكان بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة في شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً .
فلما حل الأجل وقريش مجدبون ، لم يتمكن أبو سفيان من الايفاء بوعده
فاراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يوسم بخلف الوعد فاستأجر نعيم
ابن مسعود الأشجعي ليأتي المدينة وقال للمسلمين :

(١) ﴿ إن النَّاسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا
اللهُ ونعمَ الوكيل ﴾ ولم يلتفت عليه السلام لهذا الارجاف اتكالا على ربه ،
بل خرج بألف وخمسمائة من اصحابه واستخلف على المدينة عبدالله بن عبد الله
ابن أبيّ (٢) ولم يزالوا سائرين حتى اتوا بدراً فلم يجدوا بها احداً لأن أبا
سفيان اشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين
ظاناً أن إرجاف نعيم يفيد فيكون الخلف هم المسلمون فسار حتى اتى مجنة
وهي سوق معروفة من ناحية مر الظهران فقال لقومه : إن هذا عام جدب
ولا يصلحنا إلا عام عشب فارجعوا ، أما المسلمون فاقاموا ببدر لا يشاركهم
في تجارته أحد (٣) ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا
رضوانَ اللهِ واللهُ ذو فضل عظيم ﴾ ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لابي
سفيان : قد والله نهيتك أن تعد القوم قد اجترأوا علينا ورأوا أخلفناهم .

حوادث

وفي هذا العام ولد الحسين بن علي وفيه توفيت زينب بنت خزيمة أم

---

(١) سورة آل عمران ولى الآية : الذين قال لهم الناس . آية (١٧٣)

(٢) ابن سلول الانصاري

(٣) سورة آل عمران آية : ١٧٤

المؤمنين وفيه ، توفي أبو سلمة رضى الله عنه ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاعة وأول من هاجر الى الحبشة ، وفيه تزوج عليه السلام ام سلمة هند زوج أبي سلمة بعد وفاته .

السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل

في ربيع الأول من هذا العام بلغ النبي ﷺ أن جمعاً من الأعراب بدومة الجندل يظلمون من مر بهم وأنهم يريدون الدنو من المدينة فتجهز لغزوهم وخرج في ألف من أصحابه بعد ان ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم فلما بلغهم الخبر تفرقوا فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم فاسيب من أصيب وهرب من هرب ثم نزل بساحتهم فلم يلق أحداً وبث السرايا فلم يجد منهم احداً فرجع عليه السلام : غانما وصالح وهو عائد عيينة بن حصن الفزاري وهو الذى كان يسميه عليه السلام :الأحمق المطاع لانه كان يتبعه الف قناة ، وأقطعه عليه السلام ارضاً يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة لان ارضه كانت قد اجدبت .

غزوة بني المصطلق

في شعبان بلغه عليه السلام أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أحد يجمع الجموع لحربه فخرج له عليه السلام في جمع كثير ، وولى على المدينة زيد بن حارثة وخرج معه من نسائه

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين طيبة خمس عشرة ليلة . من اعمال المدينة

عائشة وأم سلمة وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا ، وفي اثناء مسيره عليه السلام التقى بعين بني المصطلق فسأله عن احوال العدو فلم يجب فامر بقتله ، ولما بلغ الحارث — رئيس الجيش — مجيء المسلمين لحربه وانهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفا شديداً حتى تفرق عنه بعضهم ولما وصل المسلمون الى المريسيع (١) تصاف الفريقان للقتال بعد ان عرض عليهم الاسلام فلم يقبلوا فتراموا بالنبل ساعة ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالا للهرب بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية واستاقوا الابل والشياه ، وكانت الابل الفى بعير والشياه خمسة آلاف استعمل الرسول على ضبطها مولاه شقران وعلى الأسرى بريدة . وكان في نساء المشركين برة بنت الحارث سيد القوم وقد أخذ من قومها مئتا بيت أسرى وزعت على المسلمين وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهي الكرم فان بني المصطلق من أعز العرب داراً فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً فاراد عليه السلام ان يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرية فقال المسلمون اصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في ايدينا فمنوا عليهم بالعتق ، فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضي الله عنها . وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن اسلم بنو المصطلق عن بكرة ابيهم وكانوا للمسلمين بعد ان كانوا عليهم وقد حصل في هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله ﷺ لعادتا بالتفريق على المسلمين (فاولاهما) أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الاجير بالمهاجرين فاقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتلون لولا أن خرج عليهم رسول

---

(١) ماء لخزاعة على يوم من الفرع . لذا يقول البخاري هي غزوة المريسيع وقال ابن اسحاق وذلك سنة ست . اه تيسير الوصول [٣-١٨٧]

الله فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ (وهي ما يقال في الاستغـــاثة يا لفلان) فاخبر الخبر ، فقال : دعوا هذه الكلمة فانها منتنة . ثم كلم المضروب حتى اسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة . فلما بلـغ عبد الله بن أبي هذا الخصام غضب. وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت كاليوم مذلة ، او قد فعلوها؟ نافرونا في ديارنا والله ما نحـــن والمهاجرين الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، اما والله (١) ﴿ لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منهـــا الاذل ﴾ ثم التفت الى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! احللتمـوهم بلادكم وقاسمتموهم اموالـكم ، اما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم . ثم لم ترضعوا بما فعلتم حتى جعلتم انفسكم غرضا للمنايا دون محمـد فأيتمتم اولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى (٢)ينفضوا من عنده . وكان في مجلسه شاب حديث السن قوي الاسلام اسمه زيد بن ارقم فاخـــبر رسول الله الخبر فتغير وجهه وقال يا غلام لعلك غضبت عليه فقلـت ؟ ما قلت فقـــال والله يا رسول الله لقد سمعته ، قال : لعله اخطأ سمعك . فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن ابي او ان يامر احداً غـيره بقتله فنهاه عن ذلك وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه . ثم اذن بالرحيـل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التكلم في هذا الموضوع ، فجاء أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت ؟ فقـــال : او ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم انه ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الازل ، قال : انت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت ؛ هو والله الذليل وانت العزيز . ثم سار عليه السلام بالناس سيرا حثيثا حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا ان وجدوا مس الارض حتى وقعوا نياما . وكلم رجال من الانصار عبدالله بن ابي في ان يطلب من الرسول الاستغفار (٣) فلوى راسه واستكبر . وهنا نزل على الرسول سورة المنـافقين

---

(١)سورة المنافقون آية [٨] (٢)انظر سورة المنافقون آية [٧] (٣)انظر سورة المنافقون آية[٥]

التي فضحت عبدالله ابن ابي واخوانه وصدقت زيد بن أرقم . ولما بلغ ذلك عبدالله بن عبدالله ابن ابي استأذن رسول الله في قتل ابيه حذرا من ان يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك اضغان واحقاد . فأمره عليه السلام بالاحسان الى ابيه .

حديث الإفك[1]

(النادرة الثانية) وهي أفظع من الاولى وأجلب منها للمصائب وهي رمي عائشة الصديقة زوج رسول الله بالإفك فاتهموها بصفوان بن المعطل السلمي . وذلك أنهم لما دنوا من المدينه أذن عليه السلام ليلة بالرحيل وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها (٢) حتى جاوزت الجيش . فلما قضتْ شأنها أقبلت الى رحلها فلمستْ صدرها فاذا عِقدٌ لها من جزعِ ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه فأقبل الرهط الذين كانوا يُرَحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لأن النساء كن إذ ذاك خِفافاً لم يغشهن اللحم فلم يستنكر القوم خفة الهودج وكانت عائشة جارية حديثة السن فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها وليس بالمنزل داع ولا مجيب فغلبتها عيناها فنامت ، وكان الذي يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة . ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل الراحة فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا في

(١) وعن الزهري عن عروة وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفراً أقرع بين نسائه . الحديث رواه الخمسة إلا أبا داود .
تيسير الوصول ١ ـ ١٥٨

(٢) بدء الحديث

عائشة وصفوان ، والذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبيّ . ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الافك ، وهي لا تشـــعر بشيء ، وكانت تعرف في رسول الله رقة إذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله : كيف حالكم (١) مما جعلها في ريب عظيم . فلما نقهت (٢) خرجت هي وأمّ مسطح بن أثاثة أحد أهل الإفك للتبرز خارج البيوت فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس م طح ! فقالت عائشة : بئس ما قلت !! أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت يا هنتاه أولم تسمعي ما قالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر فازدادت مرضاً على مرضها . ولما جاءها عليه السلام كعادته ، استأذنته أن تمرض في بيت أبيها ، فأذن لها ، فسألت أمها عما يقول الناس فقالت : يا بنية هـوّني عليك فوالله لقلما كانت امرأةٌ قطّ وضيئةٌ عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها فقالت عائشة : سبحان الله !! أوقد تحدث الناس بهذا ؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وفي خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل ، فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة : أهلك أهلك ؛ ولا نعلم عليهم إلا خيراً ، وقال عليّ بن أبي طالب : لم يضق الله عليك والنساء سواها كثيرٌ ، وسل الجـــاريةَ تصدقك . فدعا عليه السلام بريرةَ جارية عائشة وقال لها : هل رأيتِ من شيء يُريبُكِ ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصهُ (٣) غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتي الداجن (٤) فتأكله . فقام عليه السلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال : من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على اهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا

---

(١) كيف تيكم
(٢) أي أفقت من مرض
(٣) المراد العيب .
(٤) الشاة التي تألف البيوت .

رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على اهلي إلا معي : فقال سعد بن معاذ أنا يا رسول الله أعذرك منه فان كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة الخزرجي وقال كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك مـــا أحببت أنه يقتل ، فقام أسيد بن حضير وقال لسعد بن عبادة ؛ كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين . وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج ، لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ، وبينا هي مع ابويها إذ دخل النبي عليه السلام فسلم ثم جلس فقـال : أما بعد يا عائشة انه بلغـــني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنـــب فاستغفري الله وتوبي اليه فانَّ العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه . فتقلص دمع عائشة وقالت لأبويها : أجيبا رسول الله ، فقالا : والله ما ندري ما تقول ، فقالت : إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني فوالله لا أجد لي ولكم مثـــلاً إلا أبا يوسف حيث قال ﴿ فَصبرٌ جَميلٌ وَاللهُ المستعانُ عَلىَ مَا تَصفونَ ﴾

ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول رسول الله ﷺ مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة إنَّ الذينَ جَاءوا بالافك عُصبةٌ منكمْ لا تَحسبوهَ شرا لَكمْ بَلْ هُو خَيرٌ لَكمْ لكلِّ أمرئٍ مِنهمْ ما اكتسبَ مِنَ الاثمِ وَالذي تَولىَّ كبرهُ مِنهمْ له عَذابٌ عظيمٌ ★ لوْلاَ إذْ سَمعتموهُ ظنَّ المؤمنونَ وَالمؤمنـــاتُ بأنفسهمْ خَيراً وَقالوُا هذَا إفكٌ مُبينٌ ★ لَوْلا جَاءوا عَليهِ بأربعة شُهداءَ فاذْ لَمْ يَأتوُا بالشُّهداء فأولئكَ عندَ الله هُمُ الكاذبونَ ★ وَلَوْلاَ فَضلُ اللهِ عليكمْ وَرَحمتهُ في الدُّنيا والآخرةِ لمسَّكمْ فِما أفضتمْ فِيهِ عَذابٌ عظيمٌ ★ إذْ

تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عندالله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم * يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ﴾ فسرى عن رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة فقالت لها امها قومي واشكري رسول الله . فقالت لا والله ، لا أشكر إلا الله الذي برأني . وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرح بالافك ثمانين جلدة وهي حد القاذف ، وكانوا ثلاثة : حمنة بنت جحش ، ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت . وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه فلما تكلم بالافك قطع عنه النفقة فأنزل الله ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ فقال أبو بكر : بل نحب ذلك يا رسول الله ، وأعاد النفقة على مسطح فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن ، فمتى رأوا بابا لها ولجوه فنعوذ بالله منهم

غزوة الخندق (١)

لم يقر لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها

---

(١) كانت في سنة خمس من شوال

بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم فذهب جميع منهم إلى مكة وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ومنوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولا لما طلبوه ، ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم ارتياحا . فتجهزت قريش واتباعها يرأسهم ابو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن ابي طلحة العبدري وعددهم اربعة آلاف معهم ثلثمائه فرس والف بعير . وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن الذى جارى إحسان رسول الله كفراً فانه ، كما قدمنا ؛ اقطعه ارضاً يرعى فيها سوائمه حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب انعم عليه وكان معه الف فارس وتجهزت بنومرة يراسهم الحارث بن عوف المري وهم اربعمائة ، وتجهزت بنو اشجع يرأسهم ابو مسعود ابن رخيلة ، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس ، وهم سبعمائة ، وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسندي ، وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام ابو سفيان . ولما بلغه عليه السلام اخبار هاته التجهيزات استشار اصحابه فيما يصنع ايمكث بالمدينة ام يخرج للقاء هذا الجيش الجرار ؟ فاشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه فامر عليه السلام المسلمين بعمله وشرعوا في حفره شمالي المدينة من الحرة الشرقية الى الحرة الغربية ؛ وهذه هي الجهة التي كانت عورة تؤتي المدينة من قبلها . اما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها . وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتي يتيسر لهم العمل . وعمل معهم عليه الصلاة والسلام فكان ينقل التراب متمثلا بشعر ا ن رواحة :

اللهم لولا انت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا (١)

---

(١) الحديث اخرجه الشيخان عن البراء رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو ينقل معنا التراب ولقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول : ويرفع بها صوته . تيسير الوصول ٣ــ١٨٦

فانزلن سكينةً علينا ... وثبت الأقدامَ إنْ لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبينا

واقام الجيش في الجهة الشرقية مسنداً ظهره إلى سلع وهو جبل مطل على المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف . وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة . أما قريش فنزلت بمجمع الأسيال ، وأما غطفان فنزلت جهة أحد . وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التي لم تكن العرب تعرفها ، فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل . ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق منهم عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن ود وآخرون وقد برز عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لعمرو بن ود فقتله وهرب إخوانه ، وهوى في الخندق نوفل بن عبدالله فاندقت عنقه ، ورمى سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع أكحله وهو شريان الذراع واستمرَّت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فات المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعد ؛ وجعل عليه السلام على الخندق حراسا حتى لا يقتحمه المشركون بالليل ، وكان يحرس بنفسه ثلمة فيه مع شدَّة البرد ، وكان عليه السلام يبشر اصحابه بالنصر والظفر ويعدهم الخير . أما المنافقون فقد أظهروا في هذه الشدة ما تكنه ضمائرهم حتى قالوا : ﴿ مَا وَعَدنا اللهُ وَرسولهُ إلا غُروراً ﴾ وانحجبوا قائلين : إنَّ بيوتنا عورة نخاف أن يغير عليها العدوّ ﴿ وَما هِيَ بعورةٍ إنْ يُريدونَ إلاّ فِرَاراً ﴾ واشتدت الحال بالمسلمين فانَّ هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة ، والذي زاد الشده عليهم ما بلغهم من ان يهود بني قريظة الذين يساكنونهم في المدينة قد انتهروا هذه الفرصة لنقض العهود ، وسبب ذلك أن حيَّ بن أخطب سيد بني النضير المجلين توجه إلى كعب بن أسعد القرظي سيد بني قريظة وكان له

كالشيطان إذ قال للانسان اكفر فحسن له نقض العهد ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ، ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أرسل مسلمة بن أسلم في مائتين وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفا على النساء والذرارى ، وارسل الزبير بن العوام يستجلي له الخبر . فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر ونالوا من رسول الله ﷺ والمسلمين امامه : فرجع وأخبر الرسول بذلك وهنالك اشتد وجل المسلمين وزلزلوا زلزالا شديداً لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون ، وتكلم المنافقون بما بدا لهم فاراد عليه السلام أن يرسل لعيينة بن حصن ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان فابى الأنصار ذلك قائلين إنهم لم يكونوا ينالون منا قليلا من ثمارنا ونحن كفار أفبعد الاسلام يشاركوننا فيها ؟ واذا أراد الله العناية بقوم هيأ لهم اسباب الظفر من حيث لا يعلمون : فانظر الى هذه العناية من المتمسكين بدينه القويم : جاء نعيم بن مسعود الأشجعي ، وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان . فقال : يا رسول الله اني قد أسلمت وقومي لا يعلمون باسلامي فمرني بأمرك حتى أساعدك . فقال : أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل ؟ ولكن خذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة

الخدعة في الحرب

فخرج من عنده وتوجه الى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم ، فقال : يا بني قريظة تعرفون ودّي لكم وخوفي عليكم واني محدثكم حديثاً فاكتموه عني ، قالوا : نعم . فقال لقد رأيتم ما وقع

بني قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ اموالهم وديارهم وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم اذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم . وأما أنتم فتساكنون الرجل ـ يريد الرسول ـ ولا طاقة لكم بحربه وحدكم فأرى ألا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا الى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم ، فاستحسنوا رأيه وأجابوه الى ذلك . ثم قام من عندهم وتوجه الى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال : أنتم تعرفون ودي لكم ومحبتي إياكم وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني قالوا : نفعل ، فقال لهم : إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك وترد جناحنا الذي كسرت (يريد بني النضير) فرضي بذلك منهم ، وها هم مرسلون اليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً ، ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشاً ، فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم للقتال غداً فأجابوا إنا لا يمكننا ان نقاتل في السبت (وكان إرساله ليلة سبت) ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي فيه . ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا الى بلادكم فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً . وكان عليه السلام قد ابتهل الى الله الذي لا ملجأ إلا اليه ودعاه بقوله (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم أهزمهم وانصرنا عليهم) وقد أجاب الله دعاءه عليه السلام فارسل الى الاعداء ريحاً باردة في ليلة مظلمة فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في الليلة المدلهمة ، فاجمعوا أمرهم على الرحيل قبل ان يصبح الصباح . ولما سمع عليه السلام الضوضاء في جيش العدو ، قال لأصحابه لا بدَّ من حادث فمن منكم ينظر لنا خبر القوم ؟ فسكتوا حتى كرَّر ذلك ثلاثاً ، وكان فيهم حذيفة بن اليمان ، فقال عليه السلام :

تسمع صوتي منذ الليلة ولا تجيب ! فقال : يا رسول الله البرد شديد فقال : اذهب في حاجة رسول الله واكتشف لنا خبر القوم ، فخاطر رضي الله عنه بنفسه في خدمة نبيّه حتى اطلع على جلية الخبر ، وأن الاعداء عازمون على الرحلة .

هزيمة الأحزاب

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان : ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو ، وقد حلّ عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل . وقال له صفوان بن أمية : إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي ، فنزل ابو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي تحزب فيها الاحزاب من عرب ويهود على المسلمين . ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منةً منه وفضلاً لساءت الحال . وكان جلاء الاحزاب في ذي القعدة وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله في سورة الأحزاب ﴿ يا أيها الَّذينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكُمْ إذْ جاءَتكُمْ جُنودٌ فأرسلْنَا عليهمْ رِيحاً وَجنوداً لم تَرَوْها وكانَ اللهُ بما تعملونَ بصيراً . إذْ جاؤُوكُمْ مِنْ فوقِكُمْ وَمِنْ أسفلَ منكم وإذْ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا هنالكَ ابتلى المؤمنونَ وَزُلزِلوا زِلزالاً شديداً . وإذْ يقولُ المنافِقونَ والذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ ما وَعدَنا اللهُ ورسولُه إلا غُروراً . وإذْ قالتْ طائفة منهم يا أهلَ يَثرِبَ لا مُقامَ لكم فارجِعوا ويستأذِنُ فريق منهمُ النبيَّ يقولونَ إنَّ بيوتَنا عَوْرةٌ وما هي بِعَوْرَةٍ إنْ يُريدونَ إلاَّ فِراراً ﴾ .

غزوة بني قريظة (١)

ولما رجع عليه السلام بأصحابه وأراد أن يخلع لباس الحرب أمره الله باللحوق ببني قريظة حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدّة ، فقال لأصحابه : لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة فساروا مسرعين وتبعهم عليه السلام راكباً على حماره ولواؤه بيد علي بن أبي طالب وخليفته على المدينة عبدالله ابن أم مكتوم ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف . وقد أدرك جماعة من الاصحاب صلاة العصر في الطريق فصلاها بعضهم حاملين امر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ولم يصلها الآخرون الا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الامر على حقيقته فلم يعنف فريقاً منهم . ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة وهي الغدر بمن عاهدهم وقت الشغل بعدو آخر ولكن أنى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم ، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة ؛ فلما رأوا أن لا مناص من الحرب ، وأنهم ان استمروا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالاموال وترك السلاح فلم يقبل الرسول ﷺ ، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير سلاح فلم يرضَ ايضاً ، بل قال لا بدّ من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان او شراً ، فقالوا له أرسل لنا أبا لبابة نستشيره وكان أوسياً من حلفاء قريظة له بينهم اولاد واموال . فلما توجه اليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول . فقال لهم : أنزلوا وأومأ بيده الى حلقه يريد أنّ الحكم الذبح ، ويقول ابو لبابة : لم ابارح موقفي حتى علمت اني خنت الله ورسوله فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلاً من مقابلة رسول الله وربط نفسه في سارية من سواري المسجد

---

(١) وذلك الغزوة كانت في سنة خمس .

حتى يقضي الله فيه امره . ولما سأل عنه عليه السلام اخبر بما فعل ، فقال : أما لو جاءني لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه .
ثم ان بني قريظة لما لم يروا بداً من النزول على حكم رسول الله فعلوا ، فأمر برجالهم فكتفوا فجاءه رجال من الاوس وسألوه ان يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء اخوانهم الخزرج ، فقال لهم : ألا يرضيكم ان يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا نعم . واختار سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحاً من السهم الذي أصيب به في الخندق وكان مقيما بخيمة في المسجد معدّة لمعالجة الجرحى فأرسل عليه السلام من يأتي به . فحملوه على حماره والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له : أحسن في مواليك ، ألا ترى ما فعل ابن ابيٌ في مواليه ؟ فقال رضى الله عنه : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم . ولما أقبل على الرسول واصحابه وهم جلوس ، قال عليه السلام (١) : قوموا الى سيدكم فأنزلوه؛ ففعلوا وقالوا له : إن رسول الله قد ولاك امر مواليك لتحكم فيهم . وقال له الرسول : احكم فيهم يا سعد ! فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله وقال : عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت فقالوا نعم ، فالتفت الى الجهة التي فيها الرسول وقال : وعلى من هنا كذلك ؟ وهو غاض طرفه إجلالاً ، فقالوا نعم ، قال : فاني أحكم ان تقتلوا الرجال وتسبوا النساء والذريّة ، فقال عليه السلام (لقد حكمت فيهم حكم الله يا سعد) لأن هذا جزاء الخائن الغادر .
ثم امر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم وجمعت غنائمهم ، فكانت الفاً وخمسمائة سيف وثلثمائة درع وألفي رمح وخمسمائة ترس وجحفة ، ووجد أثاثاً كثيراً وآنية وأجمالاً نواضح وشياهاً فخمس ذلك كله مع النخل والسبي للراجل ثلث الفارس ، وأعطى النساء اللاتي يمرضن الجرحى ، ووجد في الغنيمة جرار خمر

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري في هداية الباري ١ ـ ٤٠٩ قال الشارح: إن هذا الحديث فيه مشروعية توقير أهل الفضل بالقيام لهم لما لهم من الشرف المقتضى لذلك . والحديث رواه مسلم وأبو داود والنسائي ١ هـ ص ٤١٠ .

فأريقت . وبعد تمام هذا الامر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضي الله عنه وأرضاه . كان في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين وقد كان له العزم الثابت في جميع المشاهد التي تقدمت الخندق ، وكان عليه السلام يحبه كثيراً وبشره بالجنة على عظيم اعماله . وعقب رجوع المسلمين الى المدينة تاب الله على أبي لبابة بقوله : ﴿ وَآخرونَ اعترفوا بذُنوبهم خلطُوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً عسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ وقد عاهد الله أن يهجر ديار قريظة التي حصلت فيها هذه الذلة وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعوَّدوا الغدر والخيانة ، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها وهم كانوا السبب في إثارة الاحزاب . وسيأتي للقارىء قريباً اليوم الذي يعاقبون فيه .

زواج زينب بنت جحش

وفي هذا العام تزوَّج عليه السلام زينب بنت جحش وأمها أميمة عمته بعد ان طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من امر زواجها لزيد أنَّ الرسول ﷺ خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانها في الشرف العظيم ، فان العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالي ويعتقدون أن لا كفء من سواهم لبناتهم ، وزيد وإن الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالاشراف ، فلما نزل قوله تعالى في سورة الاحزاب ﴿ وَما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ اذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أنْ يكونَ لهمُ الخيرَةُ من أمرهمْ وَمن يعصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً ﴾ . لم يروا بداً من القبول ، فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها الى ان ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وقرر ذلك ولما كانت العشرة بين هذين الزوجين ضرباً من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها

حسما لهذا الشقاق من جهة وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة اخرى ، ولكن رسول الله خشي من لوم اليهود والعرب له في زواجه بزوج ابنه ، فقال لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى في نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بابطال هذه القاعدة وهي تحريم زوج المتبني بقوله له في سورة الاحزاب ﴿ فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكونَ على المؤمنينَ حرجٌ في أزواجِ أدعيائهمْ إذا قضَوا منهنَّ وطراً وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً ﴾ ثم ان الله حرّم التبني على المسلمين لما فيه من الاضرار وأنزل فيه من سورة الاحزاب ﴿ ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ منْ رجالِكم ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتمَ النبيينَ وكانَ اللهُ بكلِ شيءٍ عليماً ﴾ . ومن هذا الحين صار اسم زيد(١) (زيد بن حارثة) بدل (زيد بن محمد) ، وأبدل بذلك أن ذكر اسمه في القرآن يتلى على مر الدهور والاعوام . يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالاً لا تجوز الا ممن ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول ، فانهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت في قلبه فقال : سبحان الله ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن

---

(١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية . وإذ تقول للذي أنعم الله عليه يعني بالاسلام وانعمت عليه بالعتق أمسك عليك زوجك الى قوله وكان امر الله مفعولاً وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه . فأنزل الله تعالى : ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى : أدعوهم لأبائهم الآية فلان ابن فلان وفلان أخو فلان) أخرجه الترمذي وصححه . تيسير الوصول ١ ـ ١٦٣ .

ذلك الخ . وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعـرف
ستر الوجوه وزينب بنت عمتـه واسلمت قديماً ورسـول الله بمكة فكيف
لم يرها وقد مضى على اسلامها نحو عشر سنوات وهي بنت عمته إلا حينما رفع
الريح الستر مصادفة ورسول الله هو الذي زوجها زيدا فلو كان له رغبة
حب أو عشق لتزوجها ولا مانع يمنعه من ذلك . ومن هنا يتصور أن النبي
الاكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله
بقوله في سورة الحجر المكية ﴿ لا تمدنَّ عينيكَ إلى ما متعنا بهِ أزواجاً
منهم ﴾ وفي سورة طه المكية أيضا ﴿ ولا تمدنَّ عينيكَ إلى ما متعنا بهِ
أزواجاً منهم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا ﴾ ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من
متبعيه وينظر إلى زوجه مصادفة ثم يشتهي زواجها ؟ إن هـذا الامر عظيم
تشمئز بذلك صدورنا . ولو حدث أمر مثله من أقـل الناس لعيب عليـ
فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا وأبعدهم عـ
الدنايا وأشدهم ذكاء وفراسة حتى مدحه الله بقوله في سورة ن (وإنكَ لعلى
خلقٍ عظيم) . لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق وضعها
أعداء الدين ليصلوا بهـا الى أغراضهم ؛ والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل
فلم تبق شبهة فى أن الحقيقة ما نقلناه لك أولا . وهو الذي يستفـاد من
القرآن الشريف قال تعالى سورة الأحزاب (وإذْ تقولُ للذي أنعـمَ الله
عليهِ وأنعمتَ عليهِ أمسكْ عليكَ زوجكَ واتقِ اللهَ وتخفي في نفسك
ما اللهُ مبديهِ وتخشى النَّاسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخشاهُ . فلما قضى زيد
منها وطراً زوَّجناكها لكيلا يكونَ على المؤمنينَ حـرجٌ في أزواج
أدعيائهم اذا قضوا منهنَّ وطراً وكان أمرُ الله مفعولاً) والذي أبداه الله
هو زواجه بها ولم يبد غير ذلك . وهذا القرآن أعظم شاهد .

(١) الحجاب

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله ﷺ ، وكان عمر ابن الخطاب قبل نزول آيته يحبه ويذكره كثيراً ويود أن ينزل فيه قرآن : وكان يقول . لو أطاع فيكن مار أنكن عين : فنزل في سورة الأحـــزاب ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ فقال بعضهم : أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة ! فنزل بعد الآية المتقدمة ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً ﴾ : أما غير أزواجه عليـــه السلام من المؤمنات فامرن بغض الأبصار وحفظ الفروج ، كما أمر بذلك الرجال ، وأمرن ألا يبدين زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها كالخاتم في الاصبع والخضاب في اليد والكحل في العين . أما ما خفي منها فــلا يحل إبداؤه كالسوار للذراع والدملج للعضد والخلخال للرجل والقلادة للعنق والاكليل للرأس والوشاح للصدر

---

(١) ان الحجاب في هذا الزمن له اهميته الكبري في ضمان خلق المجتمع لذا : كان امر الحجاب عام بنساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين لذا نرى حكمة الحجاب ظاهرة في تطبيقها في الأمة المحمدية فأنقل لكم العبارات القرآنية التي نزلت بهذا الشأن .

قال ابن كثير : في تفسيره عند قوله تعالى يا ايها النبي قل لأزواجك .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات وخاصة ازواجـــه وبناته لشرفهن بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمـــات نساء

الجاهلية وسمات الاماء . والجلباب : هو الرداء فوق الخمار قال ابن مسعود وجمع من الصحابة والتابعين مذكور اسماؤهم بالتفصيل ؛ هو بمنزلة الازار اليوم .

قال الجوهري : الجلباب : هو الملحفة واستشهد في بيت من الشعر

تمشي النسور اليه وهي لاهية مشى العذاري عليهن الجلابيب

عن ابن عباس : امر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة .

وقال محمد بن سيرين . سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل : يدنين عليهن من جلابيهن . فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى
ولما نزلت هذه الآية : خرج نساء الانصار كأن على رؤسهن الغربان من السكنية وعليهن أكسية سود يلبسنها .

ولكن ايها المسلم : ترى بعض المسلمات يقلن أن الحجاب وهو عبارة عن أن تغطي المرأة رأسها فقط فهل هذا كلام معقول :

١ ـ إن هذا كلام لا يقوله الا احمق جاهل بتعاليم الاسلام فأقول لهم اي خطابي للرجال من أجل أن يعلموا نسائهن وبناتهن عن كيفية الحجاب .

فالحجاب هو أن تلبس المرأة لباساً لا يرى جزءاً من جمالها أو ما يغري الناس في سيرها في الشوارع العامة التى تضر بصفوف المسلمين .

فأول ما يجب على المرأة المسلمة التي تريد أن تتمسك بدينها المتين أن تعلم أن الحجاب ليس على بدنها فقط أو على رأسها .

ولكن الحجاب هو محل نظر الرجل للمرأة وهو الوجه بدليل انك أيها المؤمن إذا أردت أن تخطب امرأة ما فان الشارع سمح لك أن تنظر الى وجهها ويديها لأن في ذلك بداية لظهور جمال المرأة فعلى العاقلة ان لا تظهر محاسنها وجمالها إلا لزوجها فقط أو محارمها فيا يعلم ان الحجاب من اسس اخلاق المجتمع اه ش

والقرط للأذن . والمراد بالزينة الظاهرة والخفية موضعها . وأمرن أيضاً بأن يضربن بخمرهنّ على الجيوب كيلا تبقى صدورهنّ مكشوفة فانّ النساء إذ ذاك كانت جيوبهنّ واسعة تبدو منها نحورهنّ وصدورهنّ وما حواليها ، وكن يسدلن الخمر من ورائهن . ونهين عن أن يضربن بأرجلهنّ ليعلم أنهنّ ذوات خلخال واذا كان النهي عن اظهار صوت الحليّ بعد ما نهين عن اظهار الحليّ علم بذلك أن النهي عن اظهار مواضع الحلى ابلغ وأبلغ قال تعالى في سورة النور ﴿ وَقل للمؤمنات يَغضضنَ مِنْ ابصارهنّ وَيحفظنَ فُروجهنّ ولا يُبدينَ زينتهنّ إلا ما ظَهرَ منها وليضربنَ بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يُبدينَ زينتهن إلاّ لبعولتهنّ أو ابائهن أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهن أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بني أخوانهنّ أو بني إخوانهنّ أو نسائهنّ أو ما مَلكتْ أيمانُهن أو التابعين غير أولى الاربة مِنَ الرجالِ أو الطفلِ الذينَ لَم يَظهروا عَلىَ عورات النساء ، ولا يضربنّ بأرجلهنّ ليعلمَ ما يُخفينَ مِنَ زينتهنّ ★ وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنونَ لعلكمْ تُفلحونَ ﴾ . وكان النساء في أول الاسلام ، كما كنّ في الجاهلية ، متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للاماء إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان ، وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة يقولون حسبناها أمة فامرن أن يخالفهن بزيهن زى الاماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليغطي الوجه والأعطاف ليحتشمن ويهن فلا يطمع فيهن طامع . قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ يا أيّها النبيُّ قُل لأزواجكَ وَبناتكَ ونساءِ المؤمنينَ يدنين عَليهن مِنْ جَلابيبهنّ ذلك أدنى أنْ يُعرفنَ فلا يُؤذينَ وكان اللهُ غفوراً رَحيماً ﴾ . أما حجب المرأة عمن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يفعل في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد السلف الصالح . فان الشارع الحكيم سنّ ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين في أمر أجمع عليه أئمة الدين . قال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء (وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال : إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر اليها فانه أحرى ان يؤدم

بينهما (١) ، أي يؤلف بينهما : من وقوع الأدمة على الادمة وهي الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة . وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الائتلاف . وقال عليه السلام (إنَّ في أعين الأنصار شيئاً فاذا أراد أحدكم أن يتزوج منهنَّ فلينظر اليهنَّ (٢)) قيل كان في أعينهنَّ عمش وقيل صغر . وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم الا بعد النظر احترازا من الغرور . وقال الاعمش : كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم،ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التي تسوق الى مكارم الاخلاق قد حسنا عند عامة المسلمين في العصور الاولى حجب المرأة مطلقاً حسما المفاسد ودرءاً للفتنة

فرض الحج

وفي هذا العام ، على ما عليه الاكثرون ، فرض الله على الامة الاسلامية حجَّ البيت من استطاع اليه سبيلا ليجتمع المسلمون من جميع الاقطار فيتجهوا الى الله ويبتهلوا اليه أن يؤيدهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى .

السنة السادسة

سرية

ولعشر خلون من محرَّم السنة السادسة أرسل عليه السلام محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشنَّ الغارة على بني بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية

---

(١) عن المغيرة : أخرجه الترمذي والنسائي

(٢) عن أبي هريرة : أخرجه مسلم والنسائي .

ضرية (١) . فسار اليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم ، فاستاقت السرية النعم والشياه وعادوا راجعين الى المدينة ، وقد التقوا وهم عائدون بثمامة بن أثال الحنفي من عظماء بني حنيفة فاسروه وهم لا يعرفونه ، فلما أتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الاخلاق فانه أطلق اساره بعد ثلاث أبي فيها الانقياد للاسلام بعد أن عرض عليه . ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد فرجع الى رسول الله وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله : (يا محمد والله ما كان على الارض من وجه أبغض الي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها الي ، والله ما كان على الارض من دين أبغض الي من دينك فقد اصبح احب الدين كله الي والله ما كان من بلد أبغض الي من بلدك فقد اصبح احب البلاد الي) فسر عليه السلام كثيراً باسلامه لان من ورائه قوماً يطيعونه . ولما رجع ثمامة الى بلاده مر بمكة معتمراً واظهر فيها اسلامه فأرادت قريش ايذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثمامة فتركوه ، ومع ذلك فقد حلف هو الا يرسل اليهم من اليمامة حبوباً حتى يؤمنوا فجهدوا جداً ولم يروا بداً من الاستغاثة برسول الله فعاملهم عليه السلام بما جبل عليه من الشفقة والرحمة وارسل لثمامة أن يعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل . وقد كان لهذا الرجل الكريم الاصل قدم راسخة في الاسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتد اكثر اهل بلاده فكان ينهي قومه عن اتباع مسيلمة ويقول : لهم اياكم وامراً مظلما لا نور فيه وانه لشقاء كتبه الله على من اتبعه ، فثبت معه كثير من قومه رضي الله عنه .

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت واخوانه ، ولم يزل رسول الله

---

(١) موضع على سبع ليال من المدينة في طريق البصرة .

حزيناً عليهم متشوقاً للقصاص من عدوهم حتى (١) ربيع الاول من هـــذه السنة فأمر اصحابه بالتجهز ولم يظهر لهم مقصده . كما هي عادته عليـه السلام في غالب الغزوات ، لتعمى الأخبار عن الاعداء وولى على المدينة ابن أم مكتوم وسار في مائتي راكب معهم عشرون فرسا ، ولم يزل سائرا حتى مقتل اصحاب الرجيع فترحم عليهم ودعا لهم ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا في الجبال فأقام عليه السلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً ثم أرسل بعضا من اصحابه ليأتوا عسفان (٢) حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب . فـذهبوا إلى كراع الغميم (٣) ثم رجع عليه السلام الى المدينة وهو يقول : (آيبـون تائبون لربنـا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء (٤) السفر وكآبة المنقلـــب وسوء المنظر في الأهل والمال)

غزوة الغابة

كان للنبي عليه السلام عشرون لقحة ترعى بالغابة (٥) فأغار عليها عيينة ابن حصن في اربعين راكبا واستلبها من راعيهـا فجاءت الأخبـار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والذي بلغه هو سلمة بن الاكوع أحد رماة الانصار وكان عداء فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون ، فخرج يشتد في أثرهم حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل ، فاذا وجهت الخيل نحوه رجع هاربا فلا يلحق ، فاذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيراً مما بأيديهم من الرماح والابراد ليخففوا عن انفسهم حتى لا يلحقهم الجيش . ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق بـه الجيش فان الرسول دعا اصحابه فاجابوه ، وأول من انتهى اليه المقـــداد بن

---

(١) خرج في جمادي الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة الي بني لحيان السيرة لابن هشام ٢ـ٢٧٩
(٢) موضع قرب مكة . (٣) جبل جنوب عسفان بثمانية اميال .
(٤) مشقة وشدته السيرة النبوية لابن هشام ٢ـ٢٨٠ (٥) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان .

الاسود فقال له : اخرج في طلب القوم حتى ألحقك واعطاه اللواء فخرج وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو فحصلت بينهم مناوشات قتـــل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون غالب اللقاح وهرب أوائل القوم بالبقية . وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة في أثر القوم ليأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم فقال له عليه السلام (ملكت فأسجح) ثم رجع بعد خمس ليال .

سرية

كان بنو أسد الذين مر ذكرهم كثيراً ما يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل لهم عليه السلام عكاشة بن محصن في أربعين راكبا ليغـــير عليهم . ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا . وهناك وجدوا رجـــلا نائما فأمنوه ليدلهم على نعم القوم فدلهم عليها فاستاقوها وكانت مائة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً .

سرية

وفي ربيع الأول بلغه عليه السلام أن من بذى القصة (١) يريدون الاغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء (٢) فأرسل لهم محمـــد بن مسلمة في عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلا ، وقد كمن المشركون حينما علموا بهـــم فنام المسلمون ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم فتواثبوا على اسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم انه قتل فعاد الى المدينة وأخبر الرسول عليه السلام فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر ليقتص من الأعداء ، فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نعمهـــم ورجع .

---

(١) موضع على اربعة وعشرين ميلا من المدينة في طريق الربذة . (٢) موضع قرب المدينة

سرية

عاكس بنو سليم الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق المسلمين في سيرهم فأرسل عليه السلام زيد بن حارثة في ربيع الآخر لغيرهم عليهم في الجموم (١) فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا . ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بني سليم فأصابوا بها نعما وشاءا ووجدوا رجالاً أسروهم ، وفيهم زوج تلك المرأة ، فرجعوا بذلك الى المدينة فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها .

سرية

بلغ الرسول أنّ عيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة فأرسل لها زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكباً ليعترضها فأخذها وما فيها وأسر من معها من الرجال وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة . فاستجار بزوجه زينب فأجارته ونادت بذلك في مجمع قريش . فقال عليه السلام (المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت) وهذا أبلغ ما قيل في المساواة بين أفراد المسلمين وردّ عليه الرسول ماله فأسره لا يفقد منه شيء فذهب الى مكة فأدّى لكل ذى حق حقه ، ورجع الى المدينة مسلما فردّ عليه رسول الله زوجه .

سرية

وفي جمادى الآخرة أرسل عليه السلام زيد بن حارثة في خمسة عشر

(١) ناحية من بطن نخل

رجلاً للاغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم مقيمون بالطرف (١) فتوجهت السرية لذلك ، ولما رآهم الأعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم فاستاقها المسلمون ورجعوا الى المدينة بعد أربع ليال .

سرية

وفي رجب أرسل عليه السلام زيد بن حارثة ليغير على بني فزارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه ، فلما جاء المدينة وأخبر الرسول الخبر أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين في وادى القرى (٢) فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعاً كثيراً وأخذوا امرأة (٣) من كبارهم أسيرة فاستوهبها (٤) عليه السلام ممن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة .

سرية

وفي شعبان أرسل عليه السلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة من

---

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلا من المدينة في طريق العراق

(٢) موضع شمال المدينة

(٣) عليها قشع من أدم:قال القشع:النطع ومعها ابنة من أحسن العرب ١ هـ تيسير الوصول٣ـ١٨٥

(٤) فقال يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك فقلت هي لك يا رسول الله ما كشفت لها ثوبا قال فبعث بها صلى الله عليه وسلم الى مكة ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة أخرجه مسلم وأبوا داود ١ هـ تيسير الوصول ٣ ـ ١٨٥ .

الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل (١) وقد وصاهم عليه السلام قبل السفر بقوله ﴿ اغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم ﴾ ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدوّ فدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمر والنصراني وأسلم معه جم من قومه وبقي آخرون راضين باعطاء الجزية ، فتزوّج عبد الرحمن بنت رئيسهم كما أمره بذلك عليه السلام . وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الودّ بين الامراء بحيث يهم كلا ما يهم الآخر فنعما هي سياسة السلم والمحبة .

سرية

وفي شعبان أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب في مائه لغزو بني سعد ابن بكر بفدك (٢) لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر . فسارت السرية ، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدوّ أرسلوه الى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها فطلبوا منه أن يدلهم على القوم وهو آمن فدلهم على موضعهم فاستاق منه المسلمون نعم القوم وهرب الرعاة فحذروا قومهم فداخلهم الرعب وتفرّقوا فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاة . وردّ الله كيد المشركين فلم يمدّوا اليهود بشيء .

---

(١) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليال وبين المدينة خمس عشرة ليله .

(٢) قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر .

قتل أبي رافع

وكان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين ، وهو سيدهم ، أبو رافع سلام بن أبي الحقيق الملقب بتاجر اهل الحجاز لما كان له من المهارة في التجارة وكان ذا ثروة طائلة يقلب بها قلوب اليهود كما يريد ، فانتدب له عليه السلام من يقتله فاجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبدالله بن عتيك ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف ، فان من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله فلا تعمل الأوس عملا الا اجتهد الخزرج مثله فأمرهم الرسول (١) بذلك بعد أن وصاهم ألا يقتلوا وليداً ولا امرأة فساروا حتى أتوا خيبر فقال عبدالله لأصحابه: مكانكم فاني منطلق للبوّاب ومتلطف له لعلي أدخل .فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجته وقد دخل الناس فهتف به البواب : ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول فاني أريد ان أغلق الباب ، فدخل وكمن حتى نام البواب فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل له الهرب ثم توجه الى بيت أبي رافع وصار يفتح الابواب التي توصل اليه . وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى اليه فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه فنادى يا أبا رافع قال من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً ، وعند ذلك قالت امرأته : هذا صوت ابن ابي عتيك ، فقال لها : ثكلتك امك وأين ابن أبي عتيك الآن ؟ فعاد عبدالله للنداء مغيراً صوته قائلاً : ما هذا الصوت الذي نسمعه يا ابا رافع ؟ قال لامك الويل إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف ، فعمد اليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً ، فتوارى ثم جاءه كالمغيث وغير صوته فوجده مستلقياً على ظهره فوضع السيف في

---

(١) الحديث عن عبدالرحمن بن كعب رواه مالك . تيسير الوصول ٢ — ١٨٠ .

بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم . ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ثم انطلق الى اصحابه وقال : النجاة ! قتل والله ابو رافع ، فانتهوا الى الرسول فحدثوه . ثم قال لعبدالله ابسط رجلك فمسحها عليه السلام فكأنه لم يشتكها(١) قط وعادت أحسن ما كانت ، فانظر رعاك الله الى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء رسول الله ﷺ ، فرضي الله عنهم وأرضاهم .

سرية

ولما قتل كعب ولى اليهود مكانه أسير بن رزام فأرسل عليه السلام من يستعلم له خبره فجاءته الاخبار بأنه قال لقومه : سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحد قبلي ، أسير الى غطفان فأجمعهم لحربه . وسعى في ذلك ، فأرسل عليه السلام عبدالله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الانصار لاستمالته فخرجوا حتى قدموا خيبر وقالوا لأسير : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ، قال : نعم ولي مثل ذلك ، فأجابوه . ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيوليه الرسول على خيبر فيعيش أهلها بسلام فأجاب الى ذلك وخرج في ثلاثين يهودياً كل يهودي رديف لمسلم . وبينما هم في الطريق ندم أسير على مجيئه وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن أمّنوه فأهوى بيده الى سيف عبدالله بن رواحة فقال له : أغدراً يا عدوّ الله ! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامّة فخذه ولم يلبث أن هلك فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم ، وهذه عاقبة الغدر .

---

(١) أخرجه البخاري تيسير الوصول ٢ ـ ١٧٩ .

قصة عكل وعرينة

قدم على رسول الله في شوّال جماعة من عكل وعرينة فأظهروا الاسلام وبايعوا رسول الله وكانوا سقاماً مصفرّة الوانهم عظيمة بطونهم فلم يوافقهم هواء المدينة فأمر لهم عليه السلام بذود من الابل معها راع وامرهم باللحوق بها في مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا . ولما تمّ شفاؤهم جازوا الاحسان كفراً فقتلوا الراعي ومثلوا به واستاقوا الابل ، فلما بلغ ذلك رســـول الله أرسل وراءهم كرز بن جابر الفهري في عشرين فارساً فلحقوا بها وقبضوا على جميعهم . ولما جيء بهم الى المدينة أمر عليه السلام أن يمثل بهم كما مثلوا بالراعي فقطعت ايديهم وارجلهم وسمرت أعينهم وألقوا بالحرّة حتى ماتوا . فهكذا يكون جزاء الخائن الذي لا ينتظر منه صلاح ، وعمل هؤلاء الشريرين ممـا يدل على فساد الاصل ولؤم العشيرة . وقد نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن المثلة .

سرية

جلس ابو سفيان بن حرب يوما في نادي قومه فقال : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غداً فانه يمشي بالاسواق لنستريح منه ؟ فتقدم له رجل وتعهد له بما اراد فاعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك . فخرج الرجل حتى وصل الى المدينة صبح سادسة من خروجه فسأل عن رسول الله فدل عليه ، وهو بمسجد بني عبد الاشهل ، فلما رآه عليه السلام قال : إن هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله مانعني منه . فذهب لينحني على الرسول فجذبه أسيد بن حضير من ازاره وهنالك سقط الخنجر فندم الرجل على فعلته . ثم سأله عليه السلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه فخلى عليه السلام سبيله . فقال الرجل

والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي . ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد فعرفت أنك ممنوع وأنك على حق وأنّ حزب أبي سفيان حزب الشيطان ثم أسلم ، وعند ذلك أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمري ، وكان رجلا جريئاً فاتكا في الجاهلية . واصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه ، فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له فعرف عمرا أحد رجال مكة فقال : هذا عمرو بن أمية ما جاء إلا بشر ، فلما رآهم علموا به لم يجد مناصا من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا الى المدينة وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح الكعبة للمسلمين ويعتنق الدين الحنيفي القويم .

غزوة الحديبية

رأى عليه السلام في نومه أنه دخل هو واصحابه المسجد الحرام آمنين حالقين رءوسهم ومقصرين فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه حذرا من أن تردّهم قريش عن عمرتهم ، ولكن هؤلاء الأعراب ابطأوا عليه لانهم ظنو ألا ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وتخلصوا بأن قالوا شغلتنا أموالنا واهلونا فاستغفر لنا ؛ فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والانصار تبلغ عدتهم ألفاً وخمسمائة وولى على المدينة بن أم مكتوم وأخرج معه زوجه أم سلمة وأخرج (١) الهَدْى ليعلم الناس انه لم يأت محاربا ولم يكن مع اصحابه شيء من السلاح الا السيوف في القراب لان الرسول لم يرض ان يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ، ثم سار

(١) كان سبعين بدنة وكان الناس سبعمائة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر .
اهـ تهذيب السيرة ٢ـ٣٣٧

الجيش حتى وصل عُسفان (١) فجاءه عينه يخبره ان قريشا اجمعت رأيها ان يصدوا المسلمين عن مكة والا يدخلوها عليهم عنوة ابدا ، وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم . فقال عليه السلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، فسار بهم في طريق وعرة ثم خرج بهم الى مستو سهل يملك مكة من أسفلها ؛ فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع الى قريش وأخبرهم الخبر، ولما كان عليه السلام بثنية لمرار (٢) بركت ناقته فزجروها فلم تقم فقالوا خلأت القصواء فقال عليه السلام ما خلأت وماذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله إلا أجبتهم اليها (٣) ، مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم ، ولكن كف الله أيدي المسلمين عن قريش وكف أيدي قريش عن المسلمين كيلا تنتهك حرمات البيت الذي أراد الله أن يكون حرما آمنا يوطد المسلمون من جميع الاقطار دعائم اخوتهم فيه . ثم أمرهم عليه السلام بالنزول أقصى الحديبية (٤) وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعي رسولا من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين فأخبره عليه السلام بمقصده فلما رجع بديل الى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لأجداده وقالوا : أيريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ؟ والله لا كان هذا ابداً ومنا عين تطرف ، ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الاحابيش وهم خلفاء قريش ، فلما رآه عليه السلام قال ، هذا من قوم يعظمون الهدى

(١) موضع على مرحلتين من مكة

(٢) مهبط الحديبية

(٣) إن احاديث الحديبية رويت عن البخارى وأبو داود ومسلم مطولة راجع تيسير الوصول ٣–١٨٨

(٤) بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها .

ابعثوه في وجهه حتى يراه ؛ ففعلوا واستقبله الناس يلبون ، فلما رأى ذلك حليس رجع وقال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا أنحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ؟ هلكت قريش ورب البيت ، إن القوم أتوا معتمرين !! فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له . اجلس إنما أنت اعرابي لاعلم لك بالمكايد ، ثم ارسلوا عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فتوجه إلى رسول الله وقال : يا محمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت الى اهلك وعشيرتك لتفضها بهم ! انها قريش قد خرجت تعاهد الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك ، فنال منه ابو بكر وقال : نحن ننكشف عنه ؟ ويحك ! وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده اذا أراد ذلك ، ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول اصحابه لا يتوضأ وضوءاً الا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به واذا تكلموا خفضوا اصواتهم عنده ولا يحدون النظر اليه ، فقال: والله يا معشر قريش جئت كسرى في ملكه وقيصر في عظمته فما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في اصحابه . ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء ابدا فانظروا رأيكم فانه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم فاني لكم ناصح ، مع اني خائف الا تنصروا عليه . فقالت قريش : لا تتكلم بهذا ولكن نردّه عامنا ويرجع الى قابل . ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده الى قريش حتى يعلمهم مقصده فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة اقاربهم . وامر عليه السلام عثمان ان يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وأنّ الله مظهر دينه ، فدخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي فبلغ ما حمل فقالوا : انّ محمداً لا يدخلها علينا عنوةأبدا. ثم طلبوا منه ان يطوف بالبيت،فقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع . ثم انهم حبسوه فشاع عند المسلمين انّ عثمان قتل فقال عليه السلام حينما سمع ذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب .

بيعة (١) الرضوان

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك (٢) (سميت بعد بشجرة الرضوان) على الموت فشاع أمر هذه البيعة في قريش فداخلهم منها رعب عظيم وكانوا قد ارسلوا خمسين رجلا عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين عليهم يصيبون منهم غرة فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم . ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدأوا يناوشون المسلمين حتى اسر منهم اثنا عشر رجلا ، وقتل من المسلمين واحد .

صلح الحديبية

وعند ذلك خافت قريش وارسلت سهيل بن عمرو للمكالمة في الصلح فلما جاء قال : يا محمد انّ الذي حصل ليس من رأي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منا فابعث الينا بمن اسرت ، فقال حتى ترسلوا من عندكم ؛ وعندئذ ارسلوا عثمان العشرة الذين معه . ثم عرض سهيل الشروط التي تريدها قريش وهي (١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش اربع سنوات (٢) من جاء المسلمين من قريش يردّونه ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون ردّه (٣) ان يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد ان تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة ايام ليس مع اصحابه من السلاح الا السيف

---

(١) ذكر ابن هشام : ان اول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم : بيعة الرضوان ابو سنان الاسدي .(٢ـ٣٥٥ السيرة)

(٢) امر عمر بقطعها زمن خلافته لما راى تبرك الناس بها ، فليتأمل .

في (١) القراب والقوس (٤) من اراد ان يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن اراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه . فقبل عليه السلام كل هذه الشروط . اما المسلمون فداخلهم منها امر عظيم وقالوا : سبحان الله ! كيف نرد اليهم من جاءنا مسلما ولا يردون من جاءهم مرتدا ؟ فقال عليه السلام انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا اما الامر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان اشد تأثيراً في قلوبهم لان الرسول اخبرهم انه رأى في منامه انهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر ابا بكر في ذلك فقال رضي الله عنه وهل ذكر انه في هذا العام ؟ ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين وكان الكاتب على بن ابي طالب فأملاه عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم فأمره الرسول بذلك ، ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل : لو نعلم انك رسول الله ما خالفناك اكتب محمد بن عبدالله فامر عليه السلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع فمحاها النبي بيده وكتبت نسختان : نسخة لقريش ونسخة للمسلمين وبعد كتابة الشروط جاءهم ابو جندل بن سهيل يحجل في قيوده وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه ، فقال عليه السلام : اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . انا قد عقدنا بين القوم صلحا واعطيناهم واعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم . هذا ، وقد دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ودخل بنو بكر في عهد قريش .

ولما انتهى الأمر امر عليه السلام اصحابه ان يحلقوا رؤوسهم

---

(١) قال في النهاية القراب شبه الجراب يطرح فيه الراكب سيفه بغمده وسوطه وقد يطرح فيه زاده من تمر وغيره اه التعليق على صحيح مسلم واحاديث الصلح رويت في صحيح مسلم بتوسعة ٥ـ١٧٤

وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم فاحتمل المسلمون من ذلك هماً عظيماً حتى انهم لم يبادروا بالامتثال فدخل عليه السلام على ام المؤمنين أم سلمة وقال لها : هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا فقالت يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك امراً عظيما في الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون ، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فاذا رأوك فعلت اتبعوك فتقدم عليه السلام الى هديه فنحره ودعا بالحلاق (١) فحلق رأسه ، فلما رأوه المسلمون تواثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا . ثم رجع المسلمون الى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر . ولما قرّ قرارهم جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط اخت عثمان لأمه فطلبها المشركون فقالت يا رسول الله إني امرأة وإن رجعت اليهم فتنوني في ديني فأنزل الله في سورة الممتحنة ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا إذا جاءَكُمُ المؤمناتُ مُهاجِراتٍ فامتحِنوهُنَّ اللهَ أعلمُ بإيمانِهِنَّ فإنْ علِمتُمُوهُنَّ مُؤمناتٍ فلا ترجِعوهُنَّ إلى الكُفّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لهمْ ولا هُمْ يَحِلُّونَ لهنَّ وآتوهمْ ما أنفقوا ولا جُناحَ عليكمْ أنْ تَنكِحوهُنَّ إذا آتيتموهُنَّ أجورَهُنَّ ولا تُمسِكوا بِعِصَمِ الكوافرِ واسألوا ما أنفقتمْ وليَسألوا ما أنفقوا ذلكمْ حُكمُ اللهِ يحكمُ بينكمْ واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ، ومتى حلفت لا ترد بل يعطى لزوجها المشرك ما انفقه عليها ويجوز للمسلم تزوجها . وفي الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة بل ترد الى اهلها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها . وقد تمكن أبو بصير ، عتبة بن أسيد الثقفي رضي الله عنه ، من الفرار الى رسول الله فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه فأمره عليه السلام بالرجوع معهما فقال : يا رسول الله أتردّني الى الكفار يفتنوني

---

(١) من هنا يفهم المسلم قبل ان يأمر غيره بوضع ما فعليه ان يقوم بتطبيقه فيرى أثر عمله .

في ديني بعد ان خلصني الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك ولاخوانك فرجاً ، فلم يجد بدأ من اتباعه فرجع مع صاحبيه . ولما قارب ذا الحليفة عدا على احدهما فقتله وهرب منه الآخر فرجع الى المدينة وقال : يا رسول الله وفت ذمتك أما انا فنجوت . فقال له اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة فذهب الى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكه ونجوا ، وسار اليه ابو جندل بن سهيل واجتمع اليه جمع من الأعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الأمداد فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به في إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق في إمساك من جاءه مسلماً فقبل منهم ذلك وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية حينما أمرهم عليه السلام برد أبي جندل ، وعلموا ان رأي رسول الله أفضل واحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال ابو بكر رضي الله عنه : ما كان فتح في الاسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الامور ما أراد . وفي رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه وتعالى في أولها ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ وفي تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمنا لك عن الصديق .

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في اواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش كاتب عليه السلام ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام . واتخذ اذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية

الكلبي بكتاب الى قيصر ملك الروم ، وأمره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليوصله الى الملك .

كتاب قيصر

وكان الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد بن عبد الله (١) الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين (٢) (قُلْ يا أهلَ الكِتابِ تَعالوا إلى كَلِمَةٍ سواءٍ بيننا وَبينكُمْ ألاَّ نَعبدَ إلا اللهَ ولا نُشرِكَ بهِ شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِنْ دونِ اللهِ فانْ تَوَلَّوا فقولوا اشهَدوا بأنَّا مسلِمونَ) .

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه: سلهم أيُّهم أقربُ نسباً بهذا الرجل الذي يَزْعمُ أنه نبيٌّ ؟ فقال أبو سُفيان : أنا لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره ، فقال قيصر أدنُ مني ثم أمر بأصحابه فجعلوا ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدّمت هذا أمامكم لأسأله عن

---

(١) رواه البخاري ومسلم زاد المعاد (٣ـ٦٠) والحديث هذا بعضه انظر بتمامه صحيح مسلم عن ابن عباس ٥ ـ ١٦٤

(٢) الفلاحين . [قال ابن حجر هو جمع اريسي وهو منسوب الى اريس وقد إنقلب همزته ياء والاريس وقد تقلب همزته ياء والاريس الاكار أي الفلاح وفي رواية ابن اسحاق عن الزهري فان عليك اثم الاكارين اه مختصراً . صحيح مسلم (التعليق) ٥ ـ ١٦٥ .]

هذا الرجل الذي يَزْعمُ أنه نبي وقد جعلتم خلفه كيلا تخجلوا من ردّ كذبه عليه اذا كذب ، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال هو فينـــا ذو نسبٍ قال هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قل لا . قال هـل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال لا ، قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟قال بل ضعفاؤهم ، قال فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال بل يزيدون،قال هل يرتدّ أحد منهم سخطةً لدينه ؟ قال لا ، قال هل يغدر إذا عاهد؟ قال لا ونحن الآن منه في ذمَة (١) لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال فهـل قاتلتموه ؟ قال نعم . قال فكيف حربكم وحربه ؟ قال الحرب بيننـــا وبينه سِجال مرة لنا ومرة علينا ، قال فبم يأمركم ؟ قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهي عمـا كان يعبـــد آباؤنا ويأمر بالصلاةِ والصدقِ والعفافِ والوفاء بالعهـد وأداء الامانة . فقال الملك : إني سألتك عن نسبـــه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومهـا ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا ، فلو كان أحد قال هـــذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقلت ما كان ليذر الكذبَ على النـاس ويكذب على الله ، وسألتك هـل كان من آبائه من ملك فقلت لا ، فلو كان من آبائه ملك اقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أأشراف النـاس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت بل يزيدون . وكذلك الايمان حتى يتمّ ، وسألتك هل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه فقلت لا وكذلك الايمانُ حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وإن الحرب بينكم وبينه سجال وكذلك الرسلُ تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمر فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصـدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الامانة ، وسألتك هل يغدرُ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدرُ ، فعلمت أنهُ نبي وقـد علمت أنه مبعوث ولم أظنّ

(١) رواية مسلم : مدة

أنه فيكم ، وإن كان ما كلمتني به حقاً فسيملك مَوْضِعَ قدمي هاتين ولو أعلم أني أخلص اليه لتكلفت ذلك قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدري ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أَمْرَ ابنِ أبي كَبْشَةَ أن يخافه مَلِكُ بني الأصفرِ ولما سار قيصر الى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ثم أمر بابوابها فأغلقت ثم قال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحوش الى الابواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال : ردّوهم عليّ فقال لهم إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فسكتوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الاسلام فذهب باثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام ، ولكنه ردّ دحية رداً جميلا .

كتاب أمير بصرى

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب الى أمير بصرى فلما بلغ مؤتة ، وهي قرية من عمل البلقاء بالشام : تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له أين تريد ؟ قال الشام ، قال لعلك من رسل محمد ؟ قال: نعم ، فامر به فضربت عنقه . ولم يقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره وقد وجد لذلك وجداً شديداً .

كتاب الحارث ابن أبي شمر

ووجه عليه السلام شجاع بن وهب إلى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبي شمر وكان يقيم بغوطتها وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم :) من محمد رسول الله الى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله

وصدّق . وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك . فلما قرأ الكتاب رمى به ، وقال منْ ينزعُ ملكي مني ! واستعد ليرسلَ جيشاً لحرب المسلمين وقال لشجاع أخبر صاحبك بما ترى . ثم أرسل الى قيصر يستأذنه في ذلك وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيء بايليا ما يلزم لزيارته فانه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها . فلما رأى الحرث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

كتاب المقوقس

ووجه عليه السلام حاطب بن أبي بلتعة بكتاب الى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر ، وكان فيه (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فانما عليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة الخ الآية) فأوصله له حاطب باسكندرية فلما قرأه قال : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب ألست تشهد أنَّ عيسى ابن مريم رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله اليه ؟ قال أحسنت : أنت حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة : إخراج الغائب المستور ، والاخبار بالنجوى ، وسأنظر . ثم كتب ردّ الجواب يقول فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك . أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما

ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب ، وأهديت اليك بغلة تركبها . والسلام) وإحدى الجاريتين مارية التي تسرَّى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده إبراهيم والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت . ولم يسلم المقوقس

كتاب النجاشي

ووجه عليه السلام عمرو بن أمية الضمري بكتاب الى النجاشي ملك الحبشة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الحبشة . سلام ، أما بعد فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أنَّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فاني رسول الله وإني أدعوك وجنودك الى الله عزَّ وجلَّ . وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى) .

ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام وقال لعمرو إني أعلم والله أن عيسى بشر به ولكن أعواني بالحبشة قليل فأنظرني حتى أكثر الأعوان والين القلوب . وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع الى رسول الله بالمدينة وكان من المهاجرين أمُّ حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبد الله بن جحش الذي كان أسلم وهاجر بها ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر فتزوَّج عليه السلام أم حبيبة وهي بالحبشة ، والذي زوجها له النجاشي بتوكيل منه عليه السلام .

كتاب كسرى

ووجه عليه السلام عبدالله بن حذافة السهمى بكتاب الى كسرى ملك الفرس وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله ، ادعوك بدعاية الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فان أبيت فانما عليك إثم المجوس) فلما وصله الكتاب مزقه استكباراً ، ولما بلغه عليه السلام ذلك قال (مزق الله ملكه كل ممزق) . وقد فعل ، فكانت مملكته اقرب الممالك سقوطاً وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه الى الرسول من يأتي به اليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ثم أرسل لعامله باليمن ينهاه عما أمره به أبوه .

كتاب المنذر بن ساوى

ووجه عليه السلام العلاء بن الحضرمي بكتاب الى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه الى الاسلام وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم أسلم أنت فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فانّ من (١) صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمّة الله وذمة الرسول من احب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبي فانّ عليه الجزية فأسلم وكتب في ردّ الجواب (أما بعد يا رسول الله فاني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم

(١) رواه البخاري عن أنس هداية الباري ٢ـ٢٢١

من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إليّ في ذلك أمرك ، فكتب اليه عليه السلام (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى . سلام عليك فاني أحمد الله اليك الذي لا إله إلا هو واشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فاني أذكرك الله عزّ وجلّ فانه من ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد اطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وانْ رسلي قد أثنوا عليك خيرا وإني شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه . وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية) .

كتاب ملكي عمان

ووجه عليه السلام عمرو بن العاص بكتاب الى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى جيفر وعبدا بني الجلندي . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني ادعوكما بدعاية الاسلام . أسلما تسلما ، فاني رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما وان ابيتما فان ملككما زائل وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما)

فلما دخل بناديها عمرو سأله عبد ابن الجلندي عما يأمر به الرسول وينهى ، فقال : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، فقال ما احسن هذا الذي يدعو اليه ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن اخي (١) اضن بملكه من ان

(١) ضن بالشيء يضن اي بخل فهو ضنين به . المختار من صحاح اللغة ص ٣٠٤

يدعه ويصير تابعا . قال عمرو إن اسلم اخوك ملكه رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم ؛ فقال عبد ان هذا لخلق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال ، ولما ذكر المواشي قال يا عمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه ؟ قال نعم ، فقال عبد : والله ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا . ثم إن عبدا أوصل عمرا لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما الان قلبه حتى اسلم هو وأخوه ومكناه من الصدقات .

كتاب هوذة بن علي

ووجه عليه السلام سليط بن عمرو العامري بكتاب الى هوذة بن علي ملك اليمامة وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الى هوذة بن عليّ : سلام على من اتبع الهدى . واعلم انّ ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك) فلما جاء الكتاب كتب في رده (ما احسن ما تدعو اليه واجمله وانا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر اتبعك) . ولما بلغ ذلك رسول الله قال . لو سألني قطعة من الارض ما فعلت . بادَ وبادَ (١) ما في يديه : فلم يلبث أن مات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة . وكان عليه السلام يولي على كل قوم قبلوا الاسلام كبيرهم .

---

(١) بده : فرقه والتبديد التفريق ومنه : شمل مبدد وتبدد الشيء : تفرق ا هـ مختار من صحاح اللغة ص ٣٢

السنة السابعة (١)

غزوة خيبر

وفي محرم السنة السابعة أمر عليه السلام بالتجهز لغزو يهود خيبر الذين كانوا اعظم مهيج للأحزاب ضد رسول الله في غزوة الخندق والذين لا يزالون مجتهدين في محالفة الأعراب ضد رسول الله ، كما قدمنا ذلك في قصة كعب بن الأشرف ، وقد استنفر رسول الله لذلك من حوله من الاعراب الذين كانوا معه بالحديبية ، وجاء المخلفون عنها ليؤذن لهم ، فقال عليه السلام لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد ، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً . وأمر منـاديا ينادي بذلك . ثم خرج عليه السلام بعد أن ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وكان معه من أزواجه أم سلمة ولما وصل جيش المسلمين الى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء فقال عليه السلام : (٢) (ارفقوا بأنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم) . وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلا بعضها عن بعض ، وهي حصون (٣) النطاة ، وحصون الكتيبة ، وحصون الشقّ (٤) والأولى ثلاثة : حصن ناعم ، وحصن الصعب . وحصن قلة ، والثانية حصنان : حصن أبيّ ؛ وحصن البرىء . والثالثة ثلاثة حصون حصن

---

(١) وقال مالك : كان في فتح خيبر في السنة السادسة والجمهور على انها في السابعة والخلاف مبني على أول التاريخ . زاد المعاد ٢-١٣٣

(٢) عن ابي موسى الاشعري رواه احمد في مسنده ٤-٤٠٢

(٣) حصن بخيبر (٤) حصن بخيبر

القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن السلالم ، فبدأ عليه السلام بحصون النطاة وعسكر المسلمون شرقيها بعيدا عن مدى النبل ، وأمر عليه السلام ان يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا فقطع المسلمون نحو اربعمائة نخلة . ولما رأى عليه السلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة ، وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع في ذلك اليوم شيئا ، وفيه مات محمود بن مسلمة اخو محمد بن مسلمة وصار عليه السلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ويخلف على العسكر أحد المسلمين حتى اذا كانوا في الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب ، بيهودي خارج في جوف الليل فأتى به رسول الله عليه السلام ، ولما أدرك الرجل الرعب قال إن أمنتموني أدلكم على أمر فيه نجاحكم . فقالوا دلنا فقد أمناك فقال إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غدا ، فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا فاني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات (١) ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فانكم تنصبون المنجنيق ويدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك ، فقال عليه السلام لمحمد بن مسلمة : سأعطى الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه ، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها ، حتى قال عمر بن الخطاب : ما تمنيت الامارة إلا ليلتئذ ، فلما كان الغد سأل عليه السلام عن علي بن أبي طالب فقيل له انه أرمد فأرسل من يأتيه به ولما جاء تفل في عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شيء ، ثم أعطاه الراية فتوجه مع المسلمين للقتال . وهناك وجدوا اليهود متجهزين ، فخرج يهودي يطلب البراز فقتله عليّ ، ثم خرج مرحب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام ، ثم حمل المسلمون على اليهود

---

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب أفتدفع في اصل الحصن فينقبونها وهم في جوفها

حتى كشفوهم عن مواقفهم وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء الى الحصن الذي يليه ؛ وهو حصن الصعب ، وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر ثم تتبعوا اليهود الى حصن الصعب فقاتل عنه اليهود قتالا شديداً حتى رد عنه المسلمون ولكن ثبت الحباب بن المنذر ومن معه وقاتلوا قتالا شديداً حتى هزموا اليهود فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه السلام منادياً يقول : كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئاً ، ثم ان الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا الى حصن قلة فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة ايام حتى استصعب عليهم فتحه ، وفي اليوم الرابع دلهم يهودي على جداول الماء التي يستقي منها اليهود فمنعوها عنهم فخرجوا وقاتلوا قتالا شديداً انتهى بهزيمتهم الى حصون الشق ، فتبعهم المسلمون وبدأوا بحصن أبي فخرج اهله وقاتلوا قتالا شديداً أبلى فيه أبو دجانة الأنصاري بلاء حسنا حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ووجد المسلمون فيه اثاثا كثيرا ومتاعا وغنما وطعاماً ، وهرب المنهزمون منه الى حصن البريء فتمنعوا به اشد التمنع وكان اهله اشد اليهود رميا بالنبل والحجارة حتى اصاب رسول الله بعض منه فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع في قلب اهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد فوجد فيه المسلمون اواني لليهود من نحاس وفخار فقال عليه السلام اغسلوها واطبخوا فيها ثم تتبع المسلمون بقايا العدو الى حصون الكتيبة وبدأوا بحصن القموص فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد علي بن ابي طالب ومنه سبيت صفية بنت حي بن اخطب .

ثم سار المسلمون لحصار حصني الوطيح والسلالم فلم يقاوم اهلهما بل سلموا طالبين حقن دمائهم وان يخرجوا من ارض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم الا ثوباً واحداً على ظهره فاجابهم رسول الله الى ذلك ، وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع واربعمائة سيف والف رمح وخمسمائة قوس عربية ووجدوا صحفا من التوراة فسلموها لطالبيها . وقد امر عليه السلام بقتل

كنانة بن أبي الحقيق لأنه انكر حليّ حي بن ابي اخطب وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها اساور ود مالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك .

هذا ، والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلا ، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلا ، وفي هذه الغزوة أهدت إحدى (١) نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لفظها حيث أعلم انها مسمومة وأكل منها بشر بن البراء فمات لوقته . واحتجم رسول الله ﷺ ، وجيء له بالمرأة التي فعلت هذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك فأجابت : قلت إن كان نبياً لن يضرّه وان كان كاذباً أراحنا الله منه ، فعفا (٢) عنها عليه السلام .

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوّج عليه السلام صفية بنت حييّ سيد بني النضير وأصدقها عتقها ، وقد أسلمت رضي الله عنها فشرفت بأمومة المؤمنين .

---

(١) زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم

(٢) عن ام سلمة . قالت يا رسول الله لا يزال يصيبك في كل عام وجع من الشاة المسمومة التي اكلت ، قال ما اصابني شيء منها الا وهو مكتوب علي وآدم في طينته .
رواه ابن ماجة زجاجة المصابيح . ١ـ٣٥

النهي عن (١) نكاح المتعة

ونهى عليه السلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة ، وهي النكاح لأجل. وقد كان حلاً في الجاهلية واستعمل في بدء الاسلام حتى حرّمه الشرع في هذه السنة . ونهى كذلك عن أكل لحوم الحمر (٢) الأهليـــة فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها .

---

(١) لم يحرم المتعة يوم خيبر وانما كان تحريمها عام الفتح هذا هو الصواب وقد ظن طائفة من أهل العلم انه حرمها يوم خيبر واحتجوا بما في الصحيحين : من حديث علي بن ابي طالب رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ : نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن اكل لحوم الحمر الأنسية وفي الصحيحين ايضاً ان عليا رضي الله عنه سمع ابن عباس : يلين في متعة النساء قال مهلاً يا ابن عباس فان رسول الله ﷺ نهى عن متعه النساء يوم خيبر وعن لحوم الحمر الأنسية وفي لفظ البخاري : عنه ان ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن اكل لحوم الحمر الأنسيه . ولما رأى هؤلاء ان رسول الله ﷺ اباحها عام الفتح ثم حرمها قالوا حرمت ثم ابيحت قال الشافعي :ولا ارى شيئاً حرم ثم ابيح ثم حرم الا المتعه قالوا نسخت مرتين ، وخالفهم في ذلك آخرون وقالوا لم تحرم الا عام الفتح و قبل ذلك كانت مباحه

وقال الامام احمد في مسنده :(باسناد صحيح) : ان رسول الله ﷺ : حرم لحوم الحمر الأهليه يوم خيبر وحرم متعة النساء .

وقصه خيبر ؛ لم يكن فيها الصحابه يتمتعون ولا استأذنوا ذلك رسول الله ﷺ ومن اراد التوسعه في الموضوع فليراجع زاد المعاد ٢-١٤٣ باختصار

(٢) تعليل التحريم انها رجس . وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة لأن لفظ الرسول مقدم بقوله انها رجس راجع زاد المعاد ٢-١٤٢

رجوع مهاجري (١) الحبشة

وحين رجوع المسلمين من خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبي طالب ومعه الأشعريون : أبو موسى وقومه ، بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين ، وفرح عليه السلام بقدمهم فرحا عظيما وأعطى للأشعريين من غنائم الحصون المفتوحة صلحا . وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين ، وقدم في هذا الوقت على النبي عليه السلام الدوسيون إخوان أبي هريرة رضي الله عنه وهو معهم فأعطاهم ايضاً رسول الله ﷺ .

فتح فدك

وبعد تمام الفتح أرسل عليه السلام من يطالب من يهود فدك . (٢) الانقياد والطاعة ، فصالحوا رسول على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصة ينفق منها على نفسه ويعول منها صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء (٣) ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين

---

(١) فجميع من قدم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ستة عشر رجلا راجع تهذيب السيرة ٢ـ٣٥٣
(٢) حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة .
(٣) قرية على ثمان مراحل من المدينة .

فتح وادى القرى

ثم دعا عليه السلام يهود وادي القرى الى الاستسلام فأبوا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلا وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها عليه السلام وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يخرجون منها. وكذلك صنع بأرض خيبر وكان يرسل اليهم عبدالله بن رواحه لتقدير الثمر وكان تقديره شديداً عليهم فأرادوا أن يرشوه فقال لهم: يا اعداء الله تعطوني السحت (١)! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس اليّ ولأنتم أبغض اليّ من القردة والخنازير ولا يحملني بغضى إياكم وحبي اياه على ألا أعدل. هذا، وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شرّ عدو كان يتربص بهم الدوائر مها كان بين الفريقين من العهود والمواثيق ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين.

اسلام خالد ورفيقه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين: وهم خالد بن الوليد المخزومي، وعمرو ابن العاص السهمي، وعثمان بن أبي طلحة العبدري، فسر بهم عليه السلام سروراً عظيما وقال لخالد: الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا الى خير، فقال يا رسول الله ادع الله لي أن يغفرَ تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك، فقال عليه السلام: الاسلام يقطع ما قبله.

---

(١) السحت. الحرام واسحت في تجارته إذا اكتسب السحت مختار من صحاح اللغة ص ٢٢٩

سرية

وفي شعبان بلغه عليه السلام أن جمعاً من هوازن بتربة (١) يظهرون المداوة للمسلمين ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلا فسار اليهم . ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمراً أحداً فرجع .

سرية

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرة بناحية فدك فلما ورد بلادهم لم يرَ منهم أحداً فأخذ نعمهم ، أما القوم فكانوا في الوادي فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل ولما اصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالا شديداً حتى قتل غالب المسلمين وجرح بشير جرحا شديداً حتى ظن أنه مات ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء الى رسول الله وأخبره الخبر . وفي رمضان أرسل عليه السلام غالب بن عبدالله الليثي الى اهل الميفعة (٢) في مائة وثلاثين رجلا فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضا وأسروا آخرين وفي اثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلا من المشركين ، ولما رأى المشرك الموت في يد أسامة تشهد فظن أسامة أن عدوه إنما قال ذلك تخلصا فقتله . ولما رجع المسلمون الى المدينة وأخبر رسول الله بفعلة أسامة قال : أقتلته بعد ان قال لا إله إلا الله فكيف تصنع بلا إله إلا الله ؟! قال : يا رسول الله إنما قالها متعوذا من القتل قال عليه السلام : فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟! فقال يا رسول الله : استغفر لي . قال

(١) واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها .

(٢) على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد .

عليه السلام فكيف بلا إله إلا الله ؟! فما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم وانزل الله في ذلك في سورة النساء ﴿ وَلا تقولوا لِمَنَ ألقى إليكمُ السَّلام لستَ مؤمناً تبتغونَ عرضَ الحياةِ الدُّنيا فعندَ اللهِ مغانمُ كثيرةٌ ﴾ ثم أمر عليه السلام اسامة ان يعتق رقبة كفارة لأنه قتل خطأ

سرية

وفي شوال بلغه عليه السلام أنَّ عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبرَ بأرض اسمها يمن وجبار للاغارة على المدينة ، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلثمائة رجل فساروا اليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أتوا محلتهم فأصابوا نعما كثيرة وتفرق الرعاء فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعليا بلادهم ولم يظفر المسلمون الا برجلين اسلما ثم رجعوا بالغنائم الى المدينة .

عمرة (١) القضاة

لما حال الحول ، على عمرة الحديبية ، خرج عليه السلام بمن صدَّ معه فيها ليقضي عمرته ، واستخلف على المدينة أبا ذرّ الغفاري . وساق معه الهدى ستين بدنة وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد . واحرم عليه السلام من باب المسجد المدني ولما انتهى الى ذي الحليفة قدم الخيل امامه فقيل يا رسول الله : حملت السلاح وقد شرطوا ألا تحمله ؟ فقال عليه السلام : لا تدخل الحرم به ولكن يكون قريباً

---

(١) كانت في سنة سبع من شهر ذي القعدة . تهذيب السيرة ٢ـ٣٦٤

منا فان هاجنا هائج فزعنا له . فلما كان بمر الظهران قابله نفر من قريش ففزعوا من هذه العدة وأسرعوا الى قومهم فأخبروهم فجاءه فتيان منهم وقالوا : والله يا محمد ما عرفت بالغدر صغيرا ولا كبيرا وإنا لم نحدث حدثا !! فقال : إنا لا ندخل الحرم بالسلاح . ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل عليه السلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كداء وامامه عبد الله بن رواحة يقول : لا إله إلا الله وحده صدق وعدة ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده . وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة لأن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب ، فقال عليه السلام : رحم الله أمرأً أراهم من نفسه قوة واضطبع(١)عليه السلام بردائه وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة وفعل مثله المسلمون . وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين وكما رأى عليه السلام في منامه .

زواج ميمونة

وتزوج ﷺ وهو بمكة ميمونه بنت الحارث الهلاليه زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيداً أحد وخالة عبدالله بن العباس وهي آخر نسائه زواجا ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان بسرف (٢) ولما خرج عليه السلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا ، ثم رجع عليه السلام الى المدينة فرحا مسرورا بما حباه الله من تصديق رؤياه .

---

(١) ادخل بعضه تحت غضوه اليمنى وجعل طرفه على منكبه الأيسرتهذب السيره ٢ـ٣٦٤

(٢) موضع قرب التنعيم .

السنة الثامنة

سرية

وفي صفر أرسل عليه السلام غالب بن عبدالله الليثي الى بني الملوح وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد (١) فسار القوم حتى اذا كانوا بقديد التقوا بالحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء ، وكان خصما لدودا فأسروه ، فقال لهم : ما جئت إلا للاسلام . فقالوا له ان تكن مسلما لن يضرك رباط ليلة والا استوثقنا منك . ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني الملوح فاستاقوا النعم والشاء وخرج الصريخ الى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به ولكن منّ الله على المسلمين فأرسل سيلا شديداً حال بينهم وبين عدوّهم حتى صار المشركون يرون نعمهم تساق وهم لا يقدرون على ردها .

سرية

ولما رجع غالب الى المدينة ظافراً أرسله عليه السلام في مائتي رجل ليقتص من بني مرّة بفدك ، وهم الذين اصابوا سرية بشير بن سعد ، فساروا حتى اذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه فقال بعد ان حمد الله واثنى عليه : (اما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وان تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فانه لا رأى لمن لا يطاع ، ثم آخى بين الجند فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان : لا يفارق أحد منكم

---

(١) موضع بين عسفان وقديد قرب التنعيم

زميله . واياكم أن يرجع الرجل منكم فاقول له : أين صاحبك ؟ فيقول : لا أدري ، فاذا كبرت فكبروا فلما أحاطوا بالعدوّ وكبر كبروا وجرّدوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد واستاقوا نعمهم فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة .

سرية

وفي ربيع الأول أرسل عليه السلام كعب بن عمير الغفاري الى ذات أطلاح من أرض الشام في خمسة عشر رجلا فوجدوا جمعاً كثيراً فدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوا وقاتلوا وكانوا أكثر عدداً فاستشهد المسلمون عن آخرهم الا رئيسهم كعب بن عمير فانه نجا وأتى بالخبر الى رسول الله فشق عليه وأراد ان يبعث إليهم من يقتص منهم فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك .

غزوة مؤتة

جهز عليه السلام في جمادي (١) الأولى جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث ابن عمير الأزدي رسوله إلى أمير بصرى وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم : إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فعبدالله بن رواحة . وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف فساروا وشيعهم عليه السلام وكان فيما وصاهم به : اغزوا باسم الله فقاتلوا عدوّ الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا

---

(١) وذلك كانت في السنة الثامنة .

ولا بصيراً فانيـا ولا تقطعوا شجراً ولا يهدموا بناء . ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤتة (١) مقتل الحارث بن عمير ، وهنـاك وجدوا الروم قد جمـــعوا لهم جمعا عظيما منهم ومن العرب المتنصره فتفـاوض رجال الجيش فيما يفعلونه : ايرسلون لرسول الله يطلبون منه مدداً أم يقدمون على الحرب ؟؟ فقال عبد الله ابن رواحة يا قوم والله ان الذي تكرهون هو ما خرجتم له — خرجـتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقـاتل بقوة ولا بكثرة ، ما نقاتل إلا بهـذا الدين الذي أكرمنا الله به فانما هي إحدى الحسنيين إما الظهور واما الشهادة ، فقال الناس صدق والله ابنُ رواحةَ ، ومضوا للقتال فلقوا هـذه الجموع المتكاثرة فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استشهد ، فاخـذ الراية جعفر بن أبي طالب وهو يقول :

يا َحبذا الجنةُ واقترابُها ... طيبةً وبارداً شرابُها
والروم روم َقد دنا عذابُها ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابها
عليَّ إذْ لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه ، فاخذ الراية عبـــدالله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد فقال يخاطب نفسه :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلِنّه ... طائعة أو لا لتكرهِنّه
ان أجلبَ الناسُ وشدوا الرنة(٢) ... مالي اراكِ تكرهين الجنة !
قد طالما كنتِ مطمئنـة ... هل أنتِ الا نُطفة في شنّه(٣)

---

(١) قرية قريبة من الكرك وهي مشارف الشام
(٢) صوت فيه ترجيع شبه بالبكاء التهذيب ٢-٣٦٩
(٣) السقاء البالي ٢-٣٦٩

ثم اقتحم بفرسه المعمعة ولم يزل يقاتل رضي الله عنه حتى استشهد فهم بعض المسلمين بالرجوع الى الوراء فقال لهم عقبة بن عامر يا قوم : يقتل الانسان مقبلا خير من أن يقتل مدبراً فتراجعوا واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالدبن الوليد وبهمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع ، إذ ما تعمل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً ، فانه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالا شديداً ، وفي غده خالف ترتيب المعسكر فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا . ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع الى الوراء حتى انحاز الى موتة ثم مكث يناوش الاعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الامداد تتوالى للمسلمين وخافوا أن يجرُّوهم الى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص ، وبذلك انقطع القتال . وقد(١) نعى النبي ﷺ زيداً وجعفراً وابنَ رواحةَ للناسَ قبل أن يأتيهم خبرَهم فقال : أخذ الرايةَ زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وكانت عينا رسول الله تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . وجاءه رجل وقال يا رسول الله إن نساء جعفر يبكين ، فأمره أن ينهاهنَّ فذهب الرجل ثم أتى ، فقال : قد نهيتهنَّ فلم يطعن ؟ فأمره فذهب ثانياً ، ثم جاء فقال : والله لقد غلبننا ، فقال عليه السلام : احثُ في أفواههنّ التراب . ولما أقبل الجيش الى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم يا فرار ، فقال عليه السلام بل هم الكرار ؛ ظنّ المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة ، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد في مهارته .

---

(١) الحديث عن انس أخرجه البخاري والنسائي وآخر الحديث : وانعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم لتذرفان ثم اخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح الله تعالى له . تيسير الوصول ٣ ـ ٢٠١ .

سرية

وفي جمادي الآخرة بلغه عليه السلام أن جمعاً من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين ، ثم أمده بأبي عبيده ابن الجرّاح في مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر ، فلحقوا عمراً قبل أن يصل الى القوم . وقد أراد رجال من الجيش أيقاد نار فمنعهم عمرو ، فأنكر عليه عمر بن الخطاب فقال أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه ، فامتثل . ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعه حتى تفرّق الاعداء منهزمين فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ، ثم رجعوا الى المدينة ظافرين ، وبينما هم في الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة فلما أصبح قال : إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول (وَلا تُلْقُوا بأيْديكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ) ثم تيمم وصلى ، ثم أمر بالسير حتى اذا وصلوا المدينة قام رسول الله عليه السلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جنبا ، فسأله عليه السلام عن ذلك فقال : منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين ، وصليت جنبا لأن الله يقول : (وَلا تُلْقُوا بأيديكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ) وإن أنا اغتسلت هلكت فتبسم عليه السلام واثنى على عمرو خيراً .

سرية

وفي رجب أرسل عليه السلام أبا عبيدة عامر بن الجرّاح في ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جُهينة التي تسكن ساحل البحر ، وزوّد عليه السلام هذا

الجيش جراباً من التمر . فساروا حتى اذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحن نصف شهر ينتظرون العدو وقد فني زادهم حتى أكلوا الخبط وهو ورق السمر يبلونه بالماء ويأكلونه الى ان تقرّحت أشداقهم . وكان في القوم الكريم ابن الكريم قيس بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزر في كل يوم جزور . وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة لأن قيسا كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه ، فخاف أبو عبيدة ألا يفي له أبوه بما استدان . فقال قيس : أترى سعدا يقضي ديون الناس ويطعم في المجاعة ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله ؟! ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا الى المدينة فقال قيس بن سعد لأبيه: كنت في الجيش فجاعوا ؟ قال : انحر ، قال : نحرت. قال : ثم جاعوا؟ قال : انحر ، قال نحرت . قال: ثم جاعوا ؟ قال: انحر، قال نحرت . قال: ثم جاعوا ؟ قال انحر ، قال نهيت .

غزوة الفتح الأعظم (١)

إذا أراد الله امراً هيأ أسبابه وأزال موانعه ، فقد كان عليه السلام يعلم أنه لا تذل العرب حتى تذل قريش ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوّق لفتحها ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التي أعطاها قريشاً في الحديبية وهو سيد مَن وفى . ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه فقد علمت أنّ قبيلة خزاعة دخلت في عهد رسول الله وقبيلة بكر دخلت في عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء في الجاهلية كمنت نارها بظهور الاسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله ﷺ على مسمع من رجل خزاعي فقام هذا وضربه فحرّك ذلك كامن الاحقاد وتذكر بنو بكر ثارهم فشدّوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدّة والرجال ، ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على

---

(١) كان فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان تهذيب السيرة ٢ ـ ٣٧٤ .

المشرين ، ولما رأى ذلك حلفاء السيد الأمين أرسلوا منهم وفداً برياســة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال : والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه . أما قريش فانهم لما رأوا أنَّ ما عملوه نقض للعهود التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشدَّ العقد ويزيد في المدَّة : فراكب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء بالمدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال : يا بنية أرغبتِ به عني أم رغبتِ بي عنه ؟ فقالت : ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فقال لقد أصابك بعدي شر . ثم خرج من عندها وأتى النبي في المسجد وعرض عليه ما جاء له، فقال عليه السلام : هل كان من حدث ؟ قال لا ، فقال عليه السلام فنحن على مدتنا وصلحنا ولم نزد عن ذلك . فقام أبو سفيان ومشى الى أكابر المهاجرين من قريش عليهم يساعدونه على مقصده فلم يجد منهم معيناً وكلهم قالوا : جوارنا في جوار رسول الله ، فرجع الى قومه ولم يصنع شيئاً فاتهموه أنه خانهم واتبع الاسلام فتنسك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة ؛ أما رسول الله ﷺ فتجهز للسفر وامر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة فقال له يا رسول الله أوليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ، ثم استنفر عليه السلام الاعراب الذين حول المدينة وقال : من كان يؤمن بالله واليــوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وطوى عليه السلام الاخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب والرسول عليه السلام لا يريد ان تقيم حرباً بمكة ؛ بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها . فدعا مولاه جلَّ ذكره وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ، فقــام حاطب بن أبي

بلتعة (١) أحد الذين شهدوا بدراً وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ وأرسله مع جارية لتوصله الى قريش على جمل فاعلم الله رسوله ذلك فأرسل في أثرها عليا والزبير والمقداد وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاباً فخذوه منها . فانطلقوا حتى أتوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها : أخرجي الكتاب ، قالت ما معي كتاب ! قالوا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ! فأخرجته من عقاصها فاتوا به رسول الله فقال عليه السلام : يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ولم افعله ارتداداً عن ديني ولا رضاه بالكفر بعد الاسلام فقال عليه السلام أما انه قد صدقكم ؛ فقال عمر . دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق : فقال : إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعلى الله اطلع على من شهد بدراً فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم ، وفي ذلك أنزل الله في سورة الممتحنة ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياءَ تُلقونَ اليهمْ بالمودَّةِ وقد كفروا بما جاءَكمْ مِنَ الحقّ يُخرجونَ الرسولَ وإياكُمْ أنْ تُؤمنوا باللهِ ربكم إن كنتم خرجتمْ جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي تُسرونَ اليهمْ بالمودَّةِ وأنا أعلمُ بما أخفيتمْ وما أعلنتمْ ومن يفعلهُ منكمْ فقد ضلَّ سواءَ السبيلِ ﴾ « ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من اشد

---

(١) انظر القصة بطولها في تفسير النسفي ص ٢٤٥ جزء ٤ وانظر تهذيب السيرة ٢ ـ ٣٨٢ وكديد بين عسفان وامج .

أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيـــدة بن الحارث شهيد بدر وصهره عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة شقيق زوجه أم سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديـــد الفرح وقـال :
﴿ لا تثريبَ عليكُمُ اليومَ يَغفرُ اللهُ لكم وَهوَ أرحمُ الرّاحمـــينَ ﴾ .
ولما وصل عليه السلام الكديد رأى أنَّ الصوم شق على المسلـــين فأمرهم بالفطر وأفطر هو ايضاً ، وقد قابل عليه السلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله فأمره أن يعـــود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة . ولما وصل عليه السلام مرَّ الظهران أمر بايقـــاد عشرة آلاف نار وكانت قريش قـــد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا ندرى وجهته فارسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديـــل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله . فاقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فاذا هم بنيران كأنها نيران عرفة . فقـال أبو سفيان ما هذه لكأنها نيران عرفـــه فقال بديل بن ورقاء : نيران بني عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فاتوا بهم رسول الله فاسلم أبو سفيان ، فلما سار قال للعباس : أحبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر الى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيـــان وهو يسأل عنهـــا ويقول مالي ولها ، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة فقال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ؛ فقـــال أبو سفيـــان ، يا عباس حبذا يوم الدمار ، ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيها رسول الله واصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقـــالة سعد ، فقال عليه السلام : كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة . ثم امر عليه السلام ان يتركز رايته بالحجون (١) وامر

(١) جبل بمعلاة مكة

خالد بن الوليد ان يدخل من اسفل مكة من كدى (١) ودخل هو من اعلاها من كداء ونادى مناديه : من دخل داره واغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار (٢) أبي سفيان فهو آمن وهذه أعظم منة له . واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله عظيم الاذى فاهدر دمهم وان تعلقوا بأستار الكعبة . منهم عبد الله بن سعد ابن أبي سرح الذي اسلم . وكتب لرسول الله الوحي ثم ارتد وافترى الكذب على الأمين المأمون فكان يقول : ان محمداً كان يأمرني أن اكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ! ومنهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية وهبار بن الأسود والحارث بن هشام وزهير بن أبي امية وكعب بن زهير ووحشى قاتل حمزة وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل واحد سوى هؤلاء إلا من قاتل ، فاما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صده فقاتلهم وقتل منهم اربعة وعشرين ، وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة ، واما جيش رسول الله ﷺ فلم يصادف مانعاً وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمس الرحل ، وأسامة بن زيد رديفه . وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، حتى وصل الى الحجون موضع رايته وقد نصبت له هناك قبة فيها ام سلمة وميمونة فاستراح قليلا ، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ الفتح حتى بلغ البيت وطاف سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنما فجعل عليه السلام يطعنها بعود في يده ويقول (٣) : جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد . ثم أمر بالآلهة فأخرجت

---

(١) كدي كقوى جبل مسفلة مكة على طريق اليمن وكداء كسحاب جل بأعلى مكة .

(٢) انظر الحديث بطوله في صحيح مسلم

(٣) صحيح مسلم ٥ــ١١٣ باب لازالة الاصنام

من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزلام فقال عليه السلام قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما(١) بها قط !! وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب الا قليلا ويوشك أن نذكر للقارىء اختفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية .

العفو عند المقدرة

ثم ان النبي ﷺ دخل الكعبة وكبر في نواحيها ، ثم خرج الى مقام ابراهيم وصلى فيه ، ثم شرب من زمزم وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة اليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه ، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس فقال عليه السلام : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال عليه السلام : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ويرحم الله الامام البوصيري حيث قال .

---

(١) قال ابن هشام : وحدثني بعض اهل العلم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم فرأى ابراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها فقال قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام : وهي السهام التي كانوا يستقسمون بها يتشيرونها في امورهم .

ما شأن ابراهيم والازلام قال تعالى : ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ٣ـ٣٩٦ تهذيب السيرة

واذا كان القطع والوصل لله تساوى التقريب والاقصاء
وسواء عليه فيما أتاه من سروره اللام والاطراء
ولو أن انتقامه لهوى النفس لدامت قطيعة وجفاء
قام لله في الأمور فأرضى الله منه تباين ووفاء
فعله كله جميل وهل ينضح الا بما حواه الاناء

ثم خطب عليه السلام خطبة أبان فيها كثيراً من الأحكام الاسلامية منها ألا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام الا مع ذي محرم ، ولا صلاة بعد الصبح والعصر ، ولا يصام يوم الاضحى ويوم الفطر . ثم قال : يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ؛ والناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ﷺ على الاسلام ، وممن أسلم في هذا اليوم معاوية بن أبي سفيان وأبو قحافة والد الصديق ، وقد فرح الرسول كثيراً باسلامه وجاء رجل يرتعد خوفا فقال له عليه السلام : (هوّن عليك فاني لست بملك إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكلُ القديدَ) .

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل ، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم ، فعبدالله ابن سعد بن أبي سرح لجأ الى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان وطلب منه أن يستأمن له رسول الله ، فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ثم أتى به النبي وقال : يا رسول

الله قد أمنته فبايعه فأعرض عنه عليه السلام مرارا ثم بايعه ، فلما خرج عثمان وعبدالله قال عليه السلام أعرضت عنه ليقوم اليه احدكم فيضرب عنقه فقالوا : هلا اشرت الينا ؟ فقال : لا ينبغي لنبيٍّ ان تكون له خائنة الاعين . واما عكرمة بن ابي جهل فهرب فخرجت وراءه زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت قد اسلمت قبل الفتح وقد اخذت له أمانا من رسول الله فلحقته وقد اراد ان يركب البحر فقالت : جئتك من عند ابرّ الناس وخيرهم لا تهلك نفسك وإني قد استأمنته لك فرجع . ولما رآه عليه السلام وثب قائما فرحا به وقال مرحبا بمن جاءنا مهاجرا مسلما . ثم اسلم رضي الله عنه وطلب من رسول الله ان يستغفر له كل عداوة عاداه اياه فاستغفر له ، وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين واغيرهم على الاسلام . واما هبار بن الاسود فهرب واختفى حتى إذا كان رسول الله بالجعرانة (١) جاءه مسلما وقال : يا رسول الله هربت منك واردت اللحاق بالاعاجم ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا رسول الله اهل شرك فهدانا الله بك وانقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل ، فقال عليه السلام : قد عفوت عنك . واما الحارث بن هشام وزهير بن ابي أمية المخزومي فأجارتهما أم هانىء بنت أبي طالب فأجاز عليه السلام جوارها ، ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلما قال الحمد لله الذي هداك ما كان مثلك يجهل الاسلام وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة . وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقي نفسه في البحر ، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي وقال : يا نبي الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمّنه فانك قد أمنت الاحمر والاسود ، فقال عليه السلام : أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال : اعطني علامة فأعطاه عمامته فأخذ عمير حتى اذ لقي صفوان قال له فداك

---

(١) موضع بين مكة والطائف وبعضهم يضبطه بسكون العين وفتح الراء مخففة .

أبي وامي جئتك من عند افضل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك ، قال صفوان : اني أخافه على نفسي ، قال هو أحلم من ذلك واكرم ، وأراه العمامة علامة الامان فرجع الى رسول الله وقال له : إنّ هـــذا يزعم أنك امنتني ، قال : صدق قال : امهلني بالخيار شهرين ، قال أربعة اشهر ، ثم أسلم رضي الله عنه وحسن اسلامه . واما هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت وجاءت الى رسول الله فرحب بها وقالت له والله يا رسول الله ما كان على ظهر الارض أهل خباء أحب الي أن يزوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خبـاء أحب الي ان يعزوا من أهل خبائك .

وفود كعب بن زهير

واما كعب بن زهير فلما ضاقت به الارض ولم يجد له مجيرا جاء المدينـة بعد ان قدمها رسول الله من مكة فأسلم وانشد قصيـــدته الـــتي يقول فيها :

وقال كل صديق كنت آمـــله ★ لا ألهينـك اني عنـك مشغول

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ★ فكل ما قدّر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وان طالت سلامته ★ يوما على آلة حدباء محمـول

إنبئت انّ رسول الله أوعدني ★ والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ★ قرآن فيها مواعيظ وتفضيل

وقال فيها مادحا :

انّ الرسول لسيف يستضاء به ★ مهند من سيوف الله مسلول

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول بردته . وأما وحشي قاتل حمزة

فكذلك أسلم وحسن إسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام . وقد جاء ابنا أبي لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه السلام.

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو ، فاستأمن له ابنه عبدالله فأمنه عليه السلام وقال : إن سهيلا له عقل وشرف ، وما مثل سهيل يجهل الاسلام ، فلما بلغت هذه المقالة سهيلا قال : كان والله برا صغيرا برا كبيرا . ثم أسلم بعد ذلك .

بيعة (١) النساء

هذا ، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء وكن يبايعن على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين الرسول في معروف ؛ ثم أمر عليه السلام بلالا بأن يؤذن على ظهر الكعبة ، وهذا بدء ظهور الاسلام على ظهر البيت الكريم فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حق حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم.

وأقام عليه السلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة وولى عليها عتاب بن أسيد . وجعل رزقه كل يوم درهما . فكان عتاب رضي الله عنه يقول : لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم .

---

(١) راجع ايام العرب في الجاهلية والاسلام ٢ - ١٠٣

قال : ولا تعصيني في معروف قالت ما أجلسنا هذا المجلس ونحن نريد ان نعصيك في معروف فقال رسول لعمر : بايعهن واستغفر لهن فبايعهن عمر .

هدم العزى (١)

وفي الخامس من مقامه عليه السلام بمكة أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى وهي اكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نخلة فتوجه اليها خالد وهدمها .

هدم سواع (٢)

وأرسل عليه السلام عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لهذيل ، وهيكله على ثلاثة أميال من مكة فذهب اليه وهدمه .

هدم مناة (٣)

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منها إلى قديد فتوجهوا اليها وهدموها .

---

(١) ضم العين وفتح الزاي قال البغوي اشتقوها من اسم الله العزيز وقال الضحاك وهو صنم وضعه سعدبن ظالم المواهب ٢-٣٤٨

(٢) بضم السين وفتح الواو في شهر رمضان سنة ٨ المواهب ٢-٣٤٩

(٣) قال تعالى : افريتم اللات والعزي ومناة الثالثة الاخرى سورة النجم آية ٢٠

غزوة حنين (١)

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان دانت للاسلام جموع العرب ودخلوا فيه أفواجاً ، أما قبيلتا هوازن وثقيف فأدركتها حمية الجاهلية واجتمع الأشراف منهما للشورى وقالوا : قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا فاجمعوا أمرهم على ذلك وولوا رياستهم مالك بن عوف النضري فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر الذين كان رسول الله مسترضعا فيهم وكان في القوم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأى وشدّة البأس في الحرب ، ولتقدم سنه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي. ثم إنّ مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم فلما علم بذلك دريد سأل مالكا عن السبب فقال : سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه ، فقال دريد : وهل يردّ المنهزم شيء ؛ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ، فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفا وراء المقاتلة ووراءهم الابل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين . أما رسول الله ﷺ فانه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير اليهم وخرج معه اثنا عشر الف غاز منهم

---

(١) كانت في سنة ثمان بعد الفتح سيرة ٢-٤٠٢

قال ابن هشام : وانزل الله عز وجل في يوم حنين : لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم الى قوله تعالى : وذلك جزاء الكافرين . تهذيب السيرة : ٢-٤١٥

الفان من أهل مكة والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة ، وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم ، وخرج في الجيش ثمانون من المشركين ، منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه السلام الغزاة وعقد الألوية ، فأعطى لواء المهاجرين لعليّ بن أبي طالب ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لاسيد بن حضير ، وكذلك اعطى ألوية لقبائل العرب الاخرى . ثم ركب عليه السلام بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر . هذا ، وقد أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً فان مقدمة المسلمين توجهت جهة العدوّ فخرج لهم كمين كان مستتراً في شعاب الوادي ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر فلووا أعنة خيلهم متقهقرين ، ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة . أما رسول الله ﷺ فثبت على بغلته في ميدان القتال وثبت معه قليل من المهاجرين والانصار منهم ابو بكر وعمر وعليّ والعباس وابنه الفضل ، وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعه بن الحارث ، ومعتب بن أبي لهب . وكان عليه السلام ينادي : إليّ أيها الناس ولا يلوى عليه أحد وضاقت بالمنهزمين الارض بما رحبت . أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالاسلام والذين لم ينزعوا عنهم ربقة الشرك فمنهم من فرح ومنهم من ساءه هذا الادبار . فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال أخ لصفوان بن أمية : الآن بطل السحر ، فقال له صفوان وهو على شركه : اسكت فض الله فاك ، والله لان يرثني رجل من قريش خير من أن يرثني رجل من هوازن . ومرّ عليه رجل من قريش وهو يقول : أبشر بهزيمة محمد واصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبدا ، فغضب صفوان وقال : ويلك أتبشرني بظهور الاعراب ؟ وقال عكرمة بن أبي جهل لذلك الرّجل : كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك ، الامر بيد الله ليس الى محمد منه شيء إن أديل عليه اليوم فانّ العاقبة له غداً . فقال سهيل ابن عمرو والله إن عهدك بخلافه لحديث ، فقال له : يا أبا يزيد إنا كنا على غير

شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع . وبلغت هزيمة بعض الفارين مكة ، كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب(١)

ثم قال للعباس وكان جهوري الصوت : نادِ بالأنصار يا عباس فنادى يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان فأسمع من في الوادي وصار الأنصار يقولون : لبيك لبيك ، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه وينزل عن بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم يروها فكرَّ المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكث فتل المشركين وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الاموال والنساء والذراري وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فأخذوا النساء والذراري وأسروا كثيراً من المحاربين ، وهرب من هرب . وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة ، وأسلم ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين .

هذا ، والذي حصل في هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب فان هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركي وأعراب وحديثي عهد بالاسلام ، وهؤلاء سيان عندهم نصر الاسلام وخذلانه ، ولذلك بادروا لأول صدمة الى الهزيمة وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله ، فلا ينبغى أن يكون في

(١) انظر الحديث بطوله رواه الشيخان والترمذي تيسير الوصول ٣ - ٢٠٩ وصحيح مسلم ٥ - ١٦٦ . وراجع المواهب اللدنية شرح الزرقاني عند قوله : انا النبي لا كذب . والاقوال بأنه شعر او رجز والخلاف في ذلك طويل . ٣ - ٢٠ .
اما لفظ : حنين بالتصغير كما ذكر المول في التنزيل ٣ - ٥ المواهب .

الجيش إلا من يقاتل خالصاً مخلصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقاً عن دينه ، فلا تميل نفسه الى الفرار خشية ما أعده الله للفارّين من ألم العقاب .

ثم أمر عليه السلام بجمع السبي والغنائم ، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين الف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة فجمع ذلك كله بالجعرانة . أما المشركون فتفرّقوا ثلاث فرق : فرقة لحقت بالطائف وفرقة لحقت بنخلة ، وفرقة عسكرت بأوطاس (١) .

سرية

فأرسل عليه السلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعري في جماعة منهم أبو موسى الأشعري ، فسار اليهم وبدّدهم وظفر بما بقي من الغنائم ؛ وقد استشهد أبو عامر في هذه الغزوة وخلف على الغزوة ابن أخيه أبا موسى فرجع ظافراً منصوراً .

غزوة الطائف (٢)

وسار عليه السلام بمن معه الى الطائف ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمع معهم من هوازن ؛ وجعل على مقدمته خالد بن الوليد . ومرّ عليه السلام بحصن لعوف بن مالك النضري فأمر بهدمه . ومرّ ببستان لرجل من ثقيف قد

---

(١) واد بديار هوازن .

(٢) وكانت تلك الغزوة في سنة ثمان . تهذيب السيرة ٢ ـ ٤١٦ وصحيح مسلم ٥ ـ ١٦٩ . والطائف ، بلد كبير على ثلاث مراحل او اثنين من مكة من جهة الشرق . المواهب ٣ ـ ٢٨

تمنّع فيه فأرسل اليه أن اخرجَ وإلا حرقنا عليك بستانك ؛ فامتنع الرجل فأمر عليه السلام بحرقه . ولما وصل المسلمون الى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم فعسكر المسلمون قرب الحصن فرمام المشركون بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبدالله بن أبي بكر وقد طاوله جرحه حتى أماته في خلافة أبيه ؛ ومنهم أبو سفيان بن حرب ففقئت عينه . وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين ولما رأى رسول الله أنّ العدوّ متمكنٌ من رميهم ارتفع الى محل مسجد الطائف الآن وضرب لأم سلمة وزينب قبتين هناك واستمرّ الحصار ثمانية عشر يوماً كان فيها ينادي خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد ، وناداه عبد ياليل عظيم ثقيف لا ينزل اليك منا أحد ولكن نقيم في حصننا فانّ فيه من الطعام ما يكفينا سنين فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا ، فأمر عليه السلام بأن ينصب عليهم المنجنيق فنصب ودخل جمع من الاصحاب تحت دبابتين (١) لينقبوا الحصن ؛ فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم . فأمر عليه السلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً ، فناداه أهل الحصن إن دعها لله وللرحم فقال : أدعها لله وللرحم : ثم أمر من ينادي بأنّ كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن فخرج اليه بضعة عشر رجلاً . ولما رأى عليه السلام أن تمنّع ثقيف شديد وأنّ الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب او المقام ، فقال : يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك ، فأمر عليه السلام بالرحيل وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال : اللهم اهدِ ثقيفاً وائتِ بهم مسلمين .

---

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها .

تقسيم السبي

ثم رجع عليه السلام الى الجعرانة حيث ترك السبي فأحصاه وخمسه وأعطى منه شيئاً كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بذلك ، وأعطى أناساً لم يسلموا ليحبب اليهم الاسلام ، ومن الأولين أبو سفيان أعطاه اربعين أوقية من الذهب ومائة من الابل ، وكذلك ابناه معاوية ويزيد فقال له : بأبي أنت وأمي : لأنت كريم في السلم والحرب . ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه ثم استزاده فأعطاه مثلها ، وقال : يا حكيم إنّ هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك فيه ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى . فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها . ثم قال والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه . وأعطى عليه السلام عيينة بن حصن مائة من الابل ، وكذلك الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس . وأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاء كان رآه يرمقه فقال له : هل يعجبك هذا ؟ فقال نعم ، قال هو لك . فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد ؛ وكان سبب إسلامه . وكان عليه السلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم . وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جعل الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم . وقد عاد ذلك بفائدة عظمى فان كثيرين ممن أعطوا في هذا اليوم ولم يكونوا أشربوا في قلوبهم حب الاسلام صاروا بعد من أجلاء المسلمين وأعظمهم نفعاً كصفوان بن أمية ومعاوية بن أبي سفيان والحارث بن هشام وغيرهم . ثم أمر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم وقسمه على الغزاة بعد ان اجتمع اليه الأعراب وصاروا يقولون له :

اقسم علينا حتى الجأوه الى شجرة فتعلق رداؤه ، فقال : ردّوا ردائي أيها الناس ، فوالله إن كان لي شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كدودا . ثم قام الى بعيره واخذ وبرة من سنامه وقال : ايها الناس والله ما لي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس . (١) والخمس مردود عليكم ، فأدّوا الخياط والمخيط فان الغلول (٢) يكون على اهله عاراً وشنارا ونارا يوم القيامة . فصار كل من اخذ شيئاً من الغنائم خلسة يرده ولو كان زهيداً . ثم شرع يقسم فأصاب الرجل اربعة من الابل واربعون شاة والفارس ثلاثة امثال ذلك ، فقال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه وقال : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ؟! فلم يؤده غضبه ان ينتقم لنفسه حاشاه عليه السلام من ذلك بل لم يزد على أن نصح حذر وقال له عمر وخالد بن الوليد : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه ، فقال لا لعله ان يكون يصلي فقال ، خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ! فقال ﷺ : إني لم أومر أن انقب عن قلوب الناس ولا اشق عن بطونهم . ولما اعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب وترك الانصار غضب بعضهم حتى قالوا : إن هذا لهو العجب يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم !!؟ فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا قال : يا معشر الانصار ما مقالة بلغتني عنكم ؟ (٣) الم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي : وعالة (٤) فأغناكم الله

---

(١) روى احمد وابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن عبادة وابن اسحاق عن ابن عمر المواهب الدينية ٣ــ٣٥

(٢) الاختلاس من الغنيمة

(٣) وفي حديث عن انس رواه الشيخان المواهب الدينية ٣ــ٣٩

(٤) جمع عائل وهو الفقير

بي ؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم بي ؟ إنّ قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة؟ وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أغضبتم يا معشر الانصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألفت به قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم الثابت الذي لا يزلزل ؟ ألا ترضون يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحلكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الانصار ولو سلك الناس شعبا وسلك الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار . فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسمار حظاً ، ثم انصرف عليه السلام وتفرقوا

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه ﷺ وفد هوازن برأسهم زهير بن صرد وقالوا : يا رسول الله ان فيمن أصبتم الامهات والعمات والخالات .وهن مخازي الاقوام ونرغب الى الله واليك يا رسول الله . وقال زهير . ان في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ، ثم قال أبياتا يستعطفه بها :

امنن علينا رسول الله في كرم ★ فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ★ اذ فوك مملوءة من محضها الدرر
انا لنشكرُ للنعماء ان كفرت ★ وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
انا نؤمل عفواً منك نلبسه ★ هُدى البرية أن تعفو وتنتصر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ★ من أمهاتك ، ان العفوَ مشتهرُ

(١) فقال ﷺ : ان أحب الحديث إليّ أصدقه ، فأختاروا إحـــدى الطائفتين إما السبي وإما المال . وقد كنت انتظركم حتى ظننت أنكم لا تقدمون فقـالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً اردد علينا نساءنا وابناءنا فهـــو أحب الينـا ولا نتكلم في شاة ولا بعير ، فقـال ﷺ : أما مالي ولبني عبدالمطلب فهو لـكم ، فاذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولوا : نحن نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله بعد أن تظهروا اسلامكم وتقولوا نحن اخوانكم في الدين . ففعلوا . فقـال ﷺ لاصحابه : (أما بعد فانّ اخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم ، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتي نعطيه اياه من اول مـا يفيء الله علينـا فليفعل ، فقال المهاجرون والانصار : ما كان لنا فهو لرسول الله وامتنـع من ذلك جماعة من الاعراب كالاقرع بن حابس وعيينـة بن حصن والعباس بن مرداس فأخذه الرسول منهم قرضا وأمر ﷺ بأن تحبس عائلة مالك بن عوف النضري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبدالله ابن أمية . فقال له الوفد : أولئك سادتنا ، فقال ﷺ : انما أريـــد بهم الخير . ثم سأل عن مالك فقالوا هرب مع ثقيف فقال أخبروه انه ان جاءني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل ، فلما بلغ ذلك مالـكا نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجعرانة فأسلم وأحرز ماله ، واستعمله عليه السلام على من اسلم من هوازن . (٢)

---

(١) رواه البخارى وغيره من طريق الزهري عن عروة المواهب اللدنية ٤ـ٣

(٢) رواه الامام احمد في مسنده عن عروة بن الزبير ٤ـ٣٢٦

عمرة الجعرانة (١)

ثم ان الرسول ﷺ اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته ، وكانت اقامته بالجعرانه ثلاث عشرة ليلة . ثم أمر عليه السلام بالرحيل فسار الجيش آمناً مطمئنا حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة

وغزوة حنين هي التي فرق الله بها جموع الشرك وأدال دولته وأفقد سراة أهله فان هوازن لم تترك وراءها رجلا تمكنه الحرب الا ساقته ولم تترك لها بعيراً ولا شاة الا جاءت به معها فأراد الله اعزاز الاسلام بخذلان أعدائه واخذ اموالهم فانكسرت حدة المشركين ولم يبق فيهم من يمانع او يدافع ولذلك يمكننا ان نقول ان انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب ، فلم يبق فيهم الا فئات قليله يسوقهم الطيش الى شهر السلاح ، ثم لا يلبثون ان يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة

سرية

ولما رجع عليه السلام الى المدينة ارسل قيس بن سعد في اربعمائة ليدعو صداء (قبيلة تسكن اليمن) الى الاسلام فجاء الى رسول الله رجل منهم فقال: يا رسول الله اني جئتك وافداً عمن ورائي فاردد الجيش وانالك بقومي فأمر عليه السلام برد الجيش

---

(١) وذلك كانت في سنة ثمان ٢ـ٣١ ٤ تهذيب السيرة

وفود صُداء [1]

وخرج الرجل الى قومه فقدم بخمسة عشرَ رجلاً منهم فنزلوا ضيوفا على سعد بن عبادة ، ثم بايعوا رسول الله على الاسلام وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا . ولما رجعوا فشا فيهم الاسلام وقدم على رسول الله منهم مائة في حجة الوداع .

سرية

ثم أرسل عليه السلام بشر بن سفيان العدوى الى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فرض عليهم ، فلما علم بذلك رسول الله أرسل اليهم عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب فجاءهم وحاربهم واخذ منهم احد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا وتوجه بالكل الى المدينة فأمر عليه السلام بجعلهم في دار رملة بنت الحارث .

وفود تميم

فجاء في أثرهم وفد تميم وفيه عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو ابن الاهتم فجلسوا ينتظرون الرسول فلما ابطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات

---

(١) صداء بضم الصاد والدال وهو حي من اليمن ، قاله البخاري والصدائي نسبة الى صحابي شهد فتح مصر المواهب اللدنية ٤ ـ ٦٠

بصوت جاف : يا محمد اخرج الينا نفاخرك فان مدحنا زين وإن ذمناشين ، فخرج اليهم عليه السلام وقد تأذى من صياحهم وفيهم نزل في اوائل سورة الحجرات ﴿ إنَّ الذينَ يُنادونكَ مِنْ وَراءَ الحجراتِ أكثرهمْ لا يَعقلونَ ، ولَو أنهمْ صَبروا حتى تَخرجَ اليهمْ لكانَ خَيراً لهمْ واللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾ . وكان الوقت وقت الظهر فأذن بلال ودخل النبي للصلاة فتعلقوا به يقولون نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم عليه السلام : لا بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا) ثم صلى الظهر واجتمع حوله رجال الوف يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم . وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر فقال انه لمطاع في ابديته سيد في عشيرته ، فقال الزبرقان : حسدني يا رسول الله لشرفي وقد علم أفضل مما قال . فقال عمرو : إنه لزمن المروءة ضيق العطن لئيم الخال فرئي الغضب في وجه رسول الله لاختلاف قولي عمرو فقال : يا رسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الثانية . رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت . فقال عليه السلام (انَّ من البيان لسحرا) . ثم أسلم القوم فرد النبي عليه السلام عليهم أسرهم وأحسن جائزتهم ، واقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون في الدين .

سرية

ثم بعث عليه السلام الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق ، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلا متقلدين سلاحهم احتفالا بقدومه ومعهم إبل الصدقة ، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم

من العداوة في الجاهلية ، فرجع مسرعا إلى المدينة وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر ، فسار اليهم في عسكره خفية حتى اذا كان يناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح ، فأتاهم خالد فلم يرَ منهم إلا طاعة ، فرجع وأخبر الرسول فأرسل عليه السلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات وفي الوليد نزل في اوائل الحجرات ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا إنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أنْ تصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمينَ ﴾

سرية

ثم بلغ رسول الله أنّ جمعاً من الحبشة رآهم أهل جدة في مراكبهم يريدون الاغارة عليها فأرسل لهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة ، فذهب حتى وصل جدة ونزل في المراكب ليدركهم ، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك ، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ولم يلق المسلمون كيداً فرجع علقمة بمن معه . ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا وأمرّ عليهم عبدالله بن حذافة السهمي ، وكان فيه دعابة فأوقد لهم في الطريق ناراً وقال لهم . ألستم مأمورين بطاعتي ؟ قالوا : نعم قال : عزمت عليكم الا ماتوا ثبتم في هذه النار ؛ فقال بعضهم : ما اسلمنا الا فراراً من النار !! وهم بذلك بعضهم فمنعهم عبدالله . وقال : كنت مازحا ؛ فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال (١) : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

---

(١) الحديث بطوله عن علي بن أبي طالب أخرجه الخمسة الا الترمذي . تيسير الوصول ٣ـ٢١١

السنة التاسعة

سرية

في ربيع الاول أرسل عليه السلام عليّ بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم الفلس (صنم لطيء) فسار اليه وهدمه وأحرقه . ولما حارب عباده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبيهم وكان فيه سفانة بنت حاتم طيء . ولما رجع عليّ الى المدينة طلبت سفانة من رسول الله ان يمن عليها فأجابها لأنه كان من سننه أن يكرم الكرام فدعت له ، وكان من دعائها : شكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر . وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولاجعل لك الى لئيم حاجة ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردها عليه ، وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في اسلام أخيها عدى بن حاتم الطائي الذي كان فرّ الى الشام عندما رأى الرايات الاسلامية قاصدة بلاده ، وكان من حديث مجيئه أنّ أخته توجهت اليه بالشام وأخبرته بما عوملت به من الكرم فقال لها : ما ترين في أمر هذا الرجل ؟ فقالت : أرى ان تلحق به سريعاً فان يكن نبياً فللسابق اليه فضل ، وأن يكن ملكا فأنت أنت . قال : والله هذا هو الرأي .

وفود عدي بن حاتم

فخرج حتى جاء المدينه ولقى رسول الله فقال عليه السلام : من الرجل قال عدي بن حاتم ، فأخذه إلى بيته وبينا هما يمشيان اذ لقيت رسول الله امرأة

عجوز فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها ، فقال عدي والله ما هو
بملك . ثم مضى رسول الله حتى اذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوة
ليفاً فقدمها الى عدي وقال اجلس على هذه ، فقال بل انت تجلس عليها ،
فامتنع عليه السلام وأعطاها له وجلس هو على الارض . ثم قال يا عدى :
أسلم تسلم ، قالها ثلاثا ، فقال عدي على إني على دين — وكان نصرانياً — فقال
له عليه السلام : انا أعلم بدينك منك ، فقال عدى : أأنت اعلم بديني مني ؟
قال نعم . ثم عدد له اشياء كان يفعلها اتباعا لقواعد العرب وليست من دين
المسيح في شيء كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم . ثم قال يا عدى : إنما
يمنعك من الدخول في الدين ما ترى ، تقول انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قدرة
لهم وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى
لا يوجد من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة
عدوهم وقلة عددهم : أتعرف الحيرة ؟ قال لم أرها وقد سمعت بها ، قال :
فوالله ليتمن هذا الامر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار
أحد ، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ،
وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم .
فأسلم عدى رضي الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك .

غزوة تبوك [1]

بلغ رسول الله ﷺ أن الرّوم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده ، وكان
ذلك في زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار والناس

---

(١) ولقد كانت تلك الغزوة في رجب سنة تسع تهذيب السيرة ٢ـ١٤٤

يحيون المقام في ثمارهم وظلالهم ، فأمر عليه السلام بالتجهز وكان قلما يخرج في غزوة إلا ورّى بغيرها ليعمى الاخبار على العدو إلا في هذه الغزوة فانه أخبر لبعد الشقة ولشدة العدو ليأخذ الناس عدتهم لذلك ، وبعث الى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك وحثّ الموسرين على تجهيز المعسرين فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً ، فقال ﷺ : اللهم أرض عن عثمان فاني راضٍ عنه . وجاد أبو بكر بكل ماله وهو اربعة آلاف درهم ، فقال ﷺ : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاد عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وجاد عبدالرحمن بن عوف بمائة أوقية ، وجاد العباس وطلحة بمال كثير . وتصدّق عاصم بن عديّ بسبعين وسقاً من تمر ، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن وجاءه ﷺ سبعة أنفس من فقراء الصحابة يطلبون اليه أن يحملهم . فقال : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . فجهز عثمان ثلاثة منهم ، وجهز العباس اثنين ، وجهز يامين بن عمرو اثنين . ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون ألفاً وولى على المدينة محمد بن مسلمة وعلى أهله علي بن أبي طالب وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبدالله بن أبيّ وقال : يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد !! أيحسب محمد أنّ قتال بني الأصفر معه اللعب ؟ والله لكأني أنظر الى أصحابه مقرّنين في الحبال . واجتمع جماعة منهم وقالوا في حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الارجاف فبلغه ذلك فأرسل اليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب . وجاء اليه جماعة ، منهم الجدّ ابن قيس ، يعتذرون عن الخروج فقالوا يا رسول الله أئذن لنا ولا تفتنا لأنا لا نأمن من نساء بني الأصفر ، وجاء اليه المعذرون من الأعراب - وهم

أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة - ليؤذن لهم فأذن لهم . وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم ، وقد عتب الله عليه في ذلك الاذن بقوله في سورة براءة : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ثم قال في حقهم : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ ثم كذبهم الله في عذرهم فقال : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جل ذكره : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون في إسلامهم منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة . ولما خلف ﷺ علياً قال المنافقون : قد استثقله فتركه ؛ فأسرع الى رسول الله وشكا له ما سمع ، فقال ﷺ : (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟) . ثم سار ﷺ بالجيش وأعطى لواءه الاعظم أبا بكر الصديق ، وفي إعطاء اللواء لأبي بكر آخر غزوة للرسول وتخليف علي على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القارىء . وفرّق عليه السلام الرايات فأعطى الزبير راية المهاجرين ، وأسيد بن حضير راية الأوس ، والحباب بن المنذر راية الخزرج . ولما مرّ الجيش بالحجر وهي ديار ثمود قال ﷺ لأصحابه : (لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون) ليشعر قلوبهم رهبة الله وكان مستعملاً على حرس الجيش عباد بن بشر ، وكان أبو بكر يصلي بالجيش ولما وصلوا الى تبوك ، وكانت أرضاً لا عمارية فيها ، قال الرسول لمعاذ بن جبل يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا مليء بساتين ، وقد كان .

ولما استراح الجيش لحقه ابو خيثمه وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان قد رشت كل منها عريشتها وبرّدت فيها ماء وهيأت طعاماً وكان يوماً شديد الحر ، فلما نظر ذلك قال : يكون رسول الله في الحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء ! ما هذا بالنصف . ثم قال : والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهيآ لي زاداً . ففعلتا . ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه وخرج يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك .

وفود صاحب أيلة

هذا ، ولم ير ﷺ بتبوك جيشاً كما كان قد سمع فأقام هناك أياماً جاءه في أثنائها يوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء (١) وأهل أذرح (٢) وأهل ميناء ، فصالح يوحنا رسول الله على إعطاء الجزية ولم يسلم . وكتب له الرسول كتاباً هذا صورته :

كتاب صاحب أيلة

بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم (٣) في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم

---

(١) قرية في جنوب الشام .
(٢) المدينة تلقاء السراة .
(٣) القافلة والقوم يسيرون .

حدثاً فانه لا يحوز ماله دون نفسه وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر .

كتاب أهل أذرح وجرباء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة . والله كفيل بالنصح والاحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارها . ثم إن الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك الى ما هو أبعد منها من ديار الشام فقال له عمر : إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال عليه السلام : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر ، فقال : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الاسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك فلو رجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً ، فتبع عليه السلام مشورته وأمر بالقفول فرجع الجيش الى المدينة .

مسجد الضرار

ولما كان على مقربة منها بلغه خبر مسجد الضرار وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين وجاء جماعة منهم الى الرسول طالبين منه أن يصلي لهم فيه ، فسألهم عن سبب بنائه فحلفوا بالله إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . فأمر عليه السلام جماعة من أصحابه لينطلقوا اليه ويهدموه ففعلوا ، هذا ولما استقر عليه السلام بالمدينة

جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذبا فقبل منهم عليه السلام علانيتهم ووكل ضمائرهم الى الله واستغفر لهم .

حديث الثلاثة الذين خلفوا

وجاءه كعب بن مالك الخزرجي ، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الأوسيان مقرين بذنوبهم . فلما دخل عليه كعب تبسم تبسم الغضب وقال : ما خلفك ؟ فقال : يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أوتيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط عليّ فيه ، ولئن حدثتك حديث صدق تغضب عليّ فيه ؛ إني لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لي من عذر ، فقال عليه السلام : أما هـذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك . وقال صاحباه مثل قوله فقال لهما عليه السلام كما قال لكعب ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم . واستأذنت زوج هلال بن أمية في خدمة زوجها لأنه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها ، ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم فأرسل لهم عليه السلام من يبشرهم بهذه النعمة الكبرى فتلقاهم الناس أفواجاً أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله . فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسرورا فقال أبشر يا كعب بخير يوم يمرّ عليك منذ ولدتك أمك ؛ فقال : من عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله . فقال كعب : يا رسول الله إنّ توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ورسوله ؛ فقال عليه السلام : أمسك

عليك بعض مالك فهو خير لك . ثم قرأ عليه السلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحباه في سورة براءة ﴿ وَعلىَ الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أنْ لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنَّ الله هو التوّاب الرّحيم ﴾

وفود ثقيف (١)

وعقب مقدمه عليه السلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف ، وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم تبع اثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل المدينة فأسلم وسأله أن يرجع الى قومه ويدعوهم الى الاسلام فقال له إنهم قاتلوك فقال يا رسول الله أنا أحب اليهم من أبكارهم فخرج الى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم لأنه كان فيهم محبباً مطاعا ، فلما جاء الطائف واظهر لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلا منهم يكلمه وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى وقال : لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجلا فبعثوا معه خمسة من أشرافهم فخرجوا متوجهين الى المدينة : ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا وكانوا يغدون الى رسول الله كل يوم ويخلفون في رحالهم أصغرهم سنا عثمان بن أبي العاص فكان اذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن

---

(١) كان في شهر رمضان سنة تسع تهذيب السيرة

واذا رآه نائما استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن وهو يكتم ذلك عن اصحابه ثم أسلم القوم وطلبوا أن يعين لهم من يؤمهم فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصه على الاسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين . (١)

كتاب اهل الطائف

ثم كتب كتابا من جملته : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله الى المؤمنين ان عضاه وج وصيده حرام لا يعضد شجره ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك فانه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يؤجل هدم صنمهم شهرا حتى يدخل الاسلام في قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه فرضي بذلك عليه السلام ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم : أنا أعلمكم بثقيف . اكتموا عنهم اسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أنَّ محمدا طلب أموراً عظيمة أبيناها عليه ، سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنا وشرب الخمر والربا ، فلما حلوا بلادهم : جاءتهم ثقيف فقال الوفد : جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف ودان الناس له فعرض علينا أمورا شديدة ، وذكروا ما تقدّم فقالوا والله لا نطيعه أبدا فقالوا لهم أصلحوا سلاحكم ورموا حصونكم واستمدوا للقتال فأجابوا واستمروا من ذلك يومين أو ثلاثة ، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم فقالوا : والله ما لنا بحربه من طاقة ارجعوا اليه وأعطوه ما سأل ، فقال الوفد : قد قاضيناه وأسلمنا ، فقالوا لم كتمتم علينا ذلك ؟ قالوا حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان فأسلموا

---

(١) انظر المواهب اللدنية ٤ـ٦

هدم اللات

ولما بلغ رسول الله اسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفي لهدم اللات صنم ثقيف بالطائف فتوجهوا وهدموه حتى سوّوه بالأرض .

حج أبي بكر

وفي أخريات ذي القعدة أرسل عليه السلام أبا بكر ليحج بالناس فخرج ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدى عشرون بدنة أهداها رسول الله ، وساق ابو بكر خمس بدنات . ولما سافر نزل على رسول الله اوائل سورة براءة فأرسل بها علياً ليبلغها الناس في يوم الحج الأكبر وقال : لا يبلغ عني الا رجل مني ، فلحق ابا بكر في الطريق فقال الصديق هل استعملك رسول الله على الحج ؟ قال لا ولكن بعثني اقرأ او اتلو براءة على الناس . فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم عليّ ثلاث عشرة آية من اول سورة براءة تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم وامهالهم اربعة اشهر يسيحون فيها في الأرض كيف شاءوا واتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم الى مدتهم . ثم نادى : لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وكان عليّ يصلي في هذا السفر وراء ابي بكر رضي الله عنهما .

وفاة ابن ابي

وفي ذي القعدة مات عبدالله بن ابيّ وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم تطل مثلها وشيع جنازته حتى وقف على قبره ، وانما فعل ذلك تطبيباً لقلب ولده عبدالله بن عبدالله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبدالله بن ابيّ فيهم ، وقد نزع ربقة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من اعمال السيد الكريم ﷺ . وقد نهى الله رسوله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين فقال جل شأنه في سورة براءة ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ ابداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾

وفاة أم كلثوم

وفي هذه السنة توفيت ام كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله عنهما .

السنة العاشرة

سرية

في ربيع الآخر أرسل عليه السلام خالد بن الوليد في جمع لبني عبد المدان بنجران من ارض اليمن وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاث مرات، فإن ابوا قاتلهم . فلما قدم اليهم بث الركبان في كل وجه يدعون الى الاسلام ويقولون : أسلموا تسلموا ، فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا ، فأقام خالد

بينهم يعلمهم الاسلام والقرآن وكتب الى رسول الله بذلك ، فأرسل اليه ان يقدم بوفدهم ففعل . وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدا احداً بظلم ، قال صدقتم . وامر عليهم زيد بن حصين .

سرية

وفي رمضان ارسل عليه السلام علياً في جمع الى بني مذحج (قبيلة يمانية) وعممه بيده وقال : سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم الى قول : لا إله الا الله ، فان قالوا نعم فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك ولأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس . ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك فلما انتهى اليهم اتى جموعهم فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل فصف عليّ اصحابه وامرهم بالقتال فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكف عن طلبهم قليلاً ثم لحقهم ودعاهم الى الاسلام فأجابوا وبايعه رؤساؤهم وقالوا : نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله ، ففعل . ثم رجع الى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع .

بعث العمال الى اليمن

ثم بعث عليه السلام الى اليمن عمالا من قبله فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن (١) وبعث ابا موسى الأشعري على الكورة السفلى

(١) جبل بعلاة مكة .

ووصاها ﷺ بقوله (١) : (يسرًا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا) وقال لمعاذ : (إنك ستأتي قوما اهل كتاب فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله فان أطاعوا لك بذلك فاخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب) . وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ، أما أبو موسى فقدم على الرسول ﷺ في حجة الوداع .

حجة الوداع (٢)

وفي السنة العاشرة حج ﷺ بالناس حجة ودّع فيها المسلمين ولم يحج غيرها ، وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذى الحجه وولى على المدينة أبا دجانة الأنصاري ، وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفا ، وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبى فقال : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ولم يزل ﷺ سائراً حتى دخل مكة ضحى من الثنية العليا وهي ثنية كداء . ولما رأى البيت قال : اللهم زده تشريفاً وتعظيما ومهابة وبرّاً ، ثم طاف بالبيت سبعاً واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم شرب من ماء زمزم ، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته . وكان إذا صعد الصفا يقول : لا

---

(١) أخرجه الخمسة الا الترمذي عن ابي موسى الأشعري تيسير الوصول ٣ـ٢١١

(٢) قال الحافظ: يجوز الفتح والكسر للحاء، والواو كذلك بالفتح والكسر المواهب اللدنية ٣ـ١٠٤

إله إلا الله ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، وفي الثامن من ذي الحجـــة توجه الى منى فبـات بهـــا .

خطبة الوداع

وفي التاسع منه توجه الى عرفة وهنـاك خطب خطبته الشريفة التي بـين فيها الدين كله أسه وفرعه ، وهاك نصها : الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فـلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عبـاد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لـكم فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هـــذا ، أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هـذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهـد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . ان ربا الجـاهليه موضوع وان أول ربآ أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب وان دماء الجاهليه موضوعـة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وأن مآثر الجـاهلية موضوعة غــير السدانه والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد في أرضكم هذه ولـكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس ان النسيء (١) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله ؛ وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادي وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس : ان لنسائكم عليكم حقاً ولكن عليهنّ حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة . فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهنّ (٢) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهنّ ضربا غير مبرح ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف ؛ وانما النساء عندكم عوان ولا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فلا ترجعنّ بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس انّ ربكم واحد وانّ أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من

---

(١) كانت العرب تحرم أربعة اشهر : ثلاثة متواليات . وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر رجب ، وكانوا ربما استطالوا هذه الاشهر المتوالية لحاجتهم الى الحرب والقتال فأجلوا المحرم وحرموا صفرا من العام المقبل ،فهذا هو الذي عابه القران عليهم لاتباعهم الهوى في عقيدتهم .

(٢) العضل : هو الحبس والتضيق .

تراب ، أكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى . الا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر . من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله) . (١) وفي هذا اليوم امتن الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة ﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دينكمْ وَاتممتُ عليكمْ نعمتيِ ورَضيتُ لكمُ الاسلامَ ديناً ﴾ فلا غرابة ان اتخذه المسلمون عيداً ويوما سعيدا يظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى ، ثم انه عليه السلام ادى مناسك الحج من رمي الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد ان اقام بمكة عشرة ايام قفل الى المدينة ، ولما رآها كبر ثلاثا وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آئبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

الوفود

في هذه السنة والتي قبلها كان وفود العرب الى رسول الله ليبايعوه على الاسلام وكانوا يقدمون افواجا ، ولما في اخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الأدب ان يعرفها رأينا ان نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً وينير بصيرتك فنقول :

---

(١) راجع الحديث بطوله اتحاف الانام بخطب سيد الانام ص ٦٦

وفود نجران (١)

ومن الوفود وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحيرة واردية الحرير مختمين بالذهب ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاءوا بها هدية للنبي ﷺ فلم يقبل البسط وقبل (٢) المسوح . ولما جاء وقت صلاتهم صلوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه السلام للأسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قبلكم ، فقال : عليه السلام يمنعكم من الاسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا ، قالوا : فمن مثل عيسى من غير أب ؟ فأنزل الله في ذلك في سورة آل عمران ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وليظهر الله لهم أنهم في شك من أمرهم أنزل ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ ﴾ فدعاهم ﷺ لذلك فامتنعوا ورضوا باعطاء الجزية وهي ألف حلة في صفر والف حلة في رجب مع كل حلة أوقية من ذهب ، ثم قالوا أرسل معنا أمينا فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة :

---

(١) نجران بفتح النون وسكون الجيم وهي بلد كبير على سبع مراحل من مكة الى جهة اليمن في رواية البيهقي الملح أنه كتب اليهم يدعوهم الى الاسلام فان أبيتم فالجزية فان ابيتم فقد اذنتكم بحرب . المواهب اللدنية ٤-٤٣

(٢) المسح : بوزن الملح : البلاس والجمع امساح ومسوح وهو ثوب من الشعر غليظ . اه مختار الصحاح ص ٦٢٤

وفود ضمام بن ثعلبة(١)

ومن الوفود ضمام بن ثعلبة ، بينا رسول الله بين اصحابه متكئا جاء رجل من أهل البادية ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول فأناخ جمله في المسجد ثم قال : ايكم ابن عبدالمطلب ؟ فدلوه عليه فدنا وقال : اني سائلك فمشدد عليك المسألة فلا تجد (٢) على في نفسك . فقال سل ما بدا لك فقال انشدك بالله : آلله ارسلك الى الناس كلهم ، فقال نعم ، فقال انشدك بالله : آلله امرك ان نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة ؟ قال اللهم نعم ، فقال انشدك بالله . آلله امرك ان من اموال اغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال اللهم نعم . قال انشدك بالله : آلله امرك ان نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهراً ؟ قال اللهم نعم ، قال انشدك بالله : آلله امرك ان نحج هذا البيت من استطاع اليه سبيلا قال : اللهم نعم ، قال فاني قد آمنت وصدقت وانا ضمام بن ثعلبة(٣) ولما ولى قال عليه السلام : فقه الرجل . ثم ذهب ضمام الى قومه ودعاهم الى الاسلام وترك عبادة الأوثان فأسلموا كلهم .

وفود عبد القيس

ومن الوفود عبد القيس ، وكان من خبرهم ان الرسول كان جالساً بين

---

(١) كسر الضاد وفتح الميم روى مسلم : قصة عقب حديث طلحة ولكن روى البخاري : من حديث انس بن مالك ٤ـ٤٤

(٢) أي لا تغضب . بكسر الجيم والجزم على النهي من الموجدة المواهب اللدنية ٤ـ٤٦

(٣) وزاد مسلم : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا انقص فقال النبي صلى الله عليه وسلم لئن صدق ليدخلن الجنة راجع المواهب اللدنية ٤ـ٤٧

أصحابه يوماً فقال لهم : سيطلع (١) عليكم من هنا ركب هم خير أهـــل المشرق لم يكرهوا على الاسلام قد انضوا الركائب وأفنوا الزاد ، اللهم (٢) اغفر لعبد القيس . فلما أتوا ورأوا النبي ﷺ رموا بأنفسهم عن الركائب بـــاب المسجد وتبادروا الى رسول الله يسلمون عليه وكـان فيهم عبد الله بن عوف الأشج وكان اصغرهم سناً فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمـــع المتاع وأخرج ثوبين أبيضين فلبسها ثم جاء يمشي هونا حتى سلم على رسول الله وكان رجلا دميا ففطن لنظر الرسول الى دمامته ، فقال يا رسول الله : انه لا يستقي في مسوك جلود الرجال وانما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه ، فقال ﷺ (٣) : إن فيك خصلتين يحبها الله ورسوله : الحلم والأناة . وقد قال ﷺ لهذا الوفد : مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى ، فقالوا . يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة (٤) وانه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وانا لا نصل اليك الا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل ، فقال : آمركم بالايمـــان بالله . أتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وان تعطوا من المغنم الخمس وانهاكم عن الدباء (٥) والحنتم (٦) والنقير (٧) والمزفت (٨) والمراد بذلك ما ينبذ في هذه الأواني فقال الاشج : يا رسول الله ان ارضنا ثقيلة وخمـــة وانا اذا لم نشرب هذه الاشربة عظمت بطوننا فرخص لنا في مثل هذه واشار الى يده ، فأومأ

---

(١) واخرج البيهقي وابو يعلي والطبراني بسند جيد عن مزيدة المواهب ٤ـ٦
(٢) وهي قبيلة كبيرة يسكنون البحرين من أطراف العراق المواهب اللدنية ٤ـ١٣
(٣) رواه مسلم من حديث ابي سعيد المواهب اللدنية ٤ـ١٦
(٤) لان ديارهم كانت بساحل الخليج الفارسي وهي ديار ربيعة وبينهم وبين الحجاز ارض نجد
(٥) القرع اليابس (٦) هو جرار مدهونة بدهان اخضر
(٧) هو أصل النخلة ينقر (٨) ما طلي بالزفت .

عليه السلام بكفيه وقال يا أشج : ان رخصت لك في مثل هذه شربته في مثل هذه — وفرج بين يديه وبسطها — حتى اذا ثمل احدكم من شرابه قام الى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف . وانما خص عليه السلام ونهيهم بما ذكر لكثرة الاشربة بينهم .

وفود بني (١) حنيفة

ومن الوفود بنو حنيفة وكان معهم مسيلمة الكذاب وكان مسيلمة يقول : ان جعل لي الامر من بعده اتبعته ، فأقبل عليه السلام ومعه قيس بن شماس وفي يد رسول الله قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في اصحابه فقال : ان سألتني هذه القطعة ما اعطيتكها واني لاراك الذي منه رأيت (٢) . وكان عليه السلام رأى في منامه ان في يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما فأوحى اليه ان انفخهما فنفخهما فطارا فأولهما ﷺ كذابين يخرجان من بعده ، (٣) فكان مسيلمة احدهما والثاني الاسود العنسي صاحب صنعاء . وقد اسلم بنو حنيفة .

---

(١) قبيلة كبيرة ينزلون اليمامة بين مكة واليمن وكان عددهم سبعة عشر المواهب ٤ - ١٩

(٢) عن ابي سعيد الخدري تهذيب السيرة ٢-٥٠٧

(٣) عن ابي هريرة لفظ البخاري : في المغازي ليس فيه هذه الجملة المواهب اللدنية ٤-٢٣

وفود طيء (١)

ومن الوفود وفد طيء وفيهم زيد الخيل رئيسهم وقد قال ﷺ في حقه : ما ذكر لي رجل من العرب الا رأيته دون ما قيل فيه الا زبدالخيل ، وسماه ﷺ زيد الخير .

وفود كندة (٢)

ومنهم وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس وكان وجيهاً مطاعاً في قومه ولما دخلوا على رسول الله خبأوا له شيئاً وقالوا اخبرنا عما خبأناه لك فقال سبحان الله انما يفعل ذلك بالكاهن وان الكاهن والتكهن في النار . ثم قال : ان الله بعثني بالحق وانزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقالوا أسمعنا منه فتلا عليه السلام ﴿ والصافاتِ صفًا فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً ان الهكم لواحدٌ ربُّ السمواتِ والارضِ وما بينهما وربُّ المشارقِ ﴾ ثم سكت وسكن ودموعه تجري على لحيته فقالوا :

---

(١) قال ابن عبد البر:وقيل مات في اخر خلافة عمر وذكره الدارقطني والطبراني في الصحابة واعتده في الاسابة المواهب اللدنية ٤-٢٦

(٢) كندة بكسرة الكاف وسكون النون وهي قبيلة من اليمن ينسبون الى كندة . المواهب ٤-٢٧

انا نراك تبكي ؟ أفمن مخافة من ارسلك تبكي ؟ قال ان خشيتي منه ابكتني ؛ بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف ان زغت عنه هلكت ، ثم تلا ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا ﴾ ثم قال لهم عليه السلام : الم تسلموا ؟ قالوا بلى ، قال : ما بال هذا الحرير في اعناقكم فعند ذلك شقوه والقوه .

وفود ازد شنوءة [1]

ومنهم وفد ازد شنوءة ورئيسهم [2] صرد بن عبدالله الازدي فأسلموا وامره عليهم وامره ان يجاهد بمن اسلم من كان يليه من اهل الشرك .

وفود رسول ملوك حمير

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم : الحارث بن عبد كلال ، والنعمان ومعافر ، وهمدان . وكانوا قد اسلموا وارسلوا رسولهم بذلك فكتب اليهم النبي ﷺ :

---

(١) بفتح الالف وسكون الزاى . المواهب اللدنية ٤-٧٣

(٢) صرد بضم الصاد وفتح الراء . المواهب ٤-٣٢

كتاب ملوك حمير

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى الحارث بن عبد كلال والى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان . أما بعد فاني أحمد الله اليكم الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فانه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبي وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة . أما بعد فان محمداً النبي أرسل الى زرعة بن ذي يزن إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً معاذ بن جبل وعبدالله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي ، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً . أما بعد فان محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت من المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً ؛ ولا تخونوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم به خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفود همدان (١)

ومنها وفود همدان وفيهم مالك بن نمط ، وكان شاعراً مجيداً فلقوا

(١) بفتح الهاء وإسكان الميم ، شعب عظيم من قحطان . المواهب ٤ـ٣٤

رسول الله مرجعه من تبوك عليهم مقطعات من الحبرات اليمنية والعمائم العدنية، وقد أنشد (١) مالك لرسول الله ﷺ :

حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأنّ رسول الله فينا مصدّق ... رسول أتى من عند ذي العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشدّ على أعدائه من محمد

وقد أمّره ﷺ على من أسلم من قومه ، وقد قال الرسول في حق همدان : نعم الحي همدان ما أسرعها الى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال وفيهم أوتاد .

وفود تجيب (٢)

ومنها وفد تجيب ـ قبيلة من كندة ـ وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلاً منهم ، ومعهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم فسرّ بهم عليه السلام وأكرم مثواهم ، وقالوا : يا رسول الله إنا سقنا اليك حق الله في أموالنا ، فقال عليه السلام : (ردّوها فاقسموها على فقرائكم) فقالوا : يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا ، قال أبو بكر : يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا . فقال عليه السلام : إنّ الهدى بيد الله فمن أراد به خيراً شرح صدره للايمان . وجعلوا يسألونه عن القرآن فازداد

---

(١) وهذه أبيات حسان كما ذكر في المواهب واما مالك بن النمط يرتجز بين يديه صلى الله عليه وسلم اليك جاوزن سواد الريف . المواهب ٤ـ٣٥

(٢) تجيب : ضم أوله ،وفتحه وهي بطن من كندة وعايه المحدثون والادباء . المواهب ٤ـ٥٠

ﷺ رغبة فيهم ، ثم أرادوا الرجوع الى أهليهم فقيل لهم : ما يعجلكم ؟ قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا وإياه وما ردّ علينا ثم جاءوا الى رسول الله فودّعوه فأجازهم بأفضل ما كان يجيز به الوفود . ثم قال لهم : هل بقي منكم أحد ؟ قالوا غلام خلفناه في رحالنا وهو أحدثنا سناً ، قال : فأرسلوه الينا فأرسلوه فأقبل الغلام وقال : يا رسول الله أنا من الرهط الذين آتوك آنفاً فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي . قال وما حاجتك ؟ قال : تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي (١) . فقال عليه السلام : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه ، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه .

وفود ثعلبة

ومنها وفد ثعلبة وفد على رسول الله أربعة منهم مقرّين بالاسلام فسلموا عليه وقالوا : يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرّون بالاسلام وقد قيل لنا إنك تقول : لا إسلام لمن لا هجرة له فقال عليه السلام (حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم) ، ثم قال لهم كيف بلادكم ؟ فقالوا مخصبون ، فقال : الحمد لله . ثم أقاموا في ضيافته أياماً ، وحين إرادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواق من فضة .

وفود بني سعد بن هُذَيم (٢)

ومنها وفد بني سعد بن هُذيم من قضاعة ، قال النعمان منهم : قدمت على

---

(١) رواه الديلمي وغيره المواهب ٤ـ٥٠ .

(٢) بضم الهاء وفتح الذال من قضاعة شعب من معد وقيل من اليمن .

رسول الله وافداً في نفر من قومي وقد أوطأ رسول الله البلاد وأزاح العرب ، والناس صنفان : اما داخل في الاسلام راغب فيه واما خائف السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم(١) المسجد حتى انتهينا الى بابه فوجـــدنا رسول الله يصلي على جنازة في المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم وقلنا حتى يصلي رسول الله ونبايعه ، ثم انصرف رسول الله فنظـر الينا فدعا بنا فقال : ممن أنتم ؟ فقلنا من بني سعد بن هـذيم فقال : أمسلمون أنتم ؟ قلنا نعم ، فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك فقال عليه السلام أينما أسلمتم فأنتم مسلمون ، قال : فأسلمنا وبايعنا رسول الله بأيدينا ، ثم انصرفنا الى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا فبعث عليه السلام في طلبنا ؛ فأتى بنا اليه فتقدم صاحبنا فبايعه ﷺ على الاسلام فقلنا يا رسول الله انه أصغرنا وانه خادمنا فقال سيد القوم خادمهم بارك الله عليه . قال النعمان : فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبي ﷺ له . ثم أجازهم وانصرفوا .

وفود بني فزارة

ومنها وفد بني فزارة ، وفد على رسول الله جماعة منهم مقرين بالاسلام وهم(٢) مُسْنتون فسألهم عليه السلام عن بلادهم ، فقال رجل منهم يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وجاعت عيالنا فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا الى ربك وليشفع لنا ربك اليك . فقال عليه السلام : سبحان

(١) تقصد
(٢) فزارة : فتح الفاء والزاي قبيلة من قيس عيلان . ومسنتون : مجدبون بضم الميم وسكون السين أسنتت : أجدبت المواهب ٤ـ٥٢

الله ، وبلك هذا ! أنا أشفع الى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا اليه لا اله الا هو العلي العظيم وسع كرسيه السموات والارض فهي تئط (١) من عظمته وجلاله كما يئط الرجل الحديث ، أي من ثقل الحمل ثم صعد عليه السلام المنبر ودعا الله عزّ وجلّ حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة (٢) .

وفد بني أسد

ومنها وفد بني أسد وفيهم ضرار بن الأزور وطليحة بن عبدالله الذي ادعى النبوة بعد ذلك فأسلموا وقالوا يا رسول الله أتيناك ندرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث الينا فأنزل الله في ذلك ﴿ يَمُنُّونَ عليكَ أنْ أسلموا قلْ لا تَمُنُّوا عليَّ اسلامَكُمْ بلْ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هداكُمْ للأيمانِ انْ كنتمْ صادقينَ ﴾ (٣) . وسألوا رسول الله ﷺ عما كانوا يفعلون في الجاهلية من العيافة (٤) والكهانة (٥) وضرب الحصباء فنهاهم عن ذلك كله ، ثم سألوه عن ضرب الرمل فقال علمه نبي فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا ، ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض ، وبعد ذلك ودعوا وانصرفوا بعد أن أجيزوا (٦) .

---

(١) أي تصوت

(٢) ومثله في الصحيحين من حديث انس المواهب ٤ـ٥٣

(٣) سورة الحجرات آية ١٧

(٤) هي زجر الطير والتخرف على الغيب . والعيافة بكسر العين

(٥) هي الاخبار عن الكائنات في المستقبل

(٦) بفتح الهمزة والسين علمه نبي : قال البرهان : هذا النبي لا أعرف اسمه والشاي في حفظي انه ادريس وفي مسلم : فمن وافق خطه فذاك ومعناه على الصحيح من وافق خطه فهو مباح له ولكن لا طريق لنا الى العلم اليقين. المواهب ٤ـ٥٥

وفود بني عُذْرَة (١)

ومنها وفد بني عذرة ، ووفد بني بَلِيّ ، ووفد بني مُرَّة ، ووفد خَوْلان وهي قبائل باليمن وقد أمرهم عليه السلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار لمن جاوروا ، وألا يظلموا أحداً فان الظلم ظلمات يوم القيامة .

وفود بني مُحارِب (٢)

ومنها وفد بني محارب وكانوا من الذين ردوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعو القبائل الى الله . فما أعظم منة الله الذي أتى بهؤلاء ، وكانوا ألد الأعداء ، مسلمين منقادين .

وفود غَسّان (٣)

ومنها وفد غسان ، ووفد بني عبس ، ووفد النخع . وكان عليه السلام يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الاخلاق ويجيزهم بما يرضيهم ويعلمهم الايمان والشرائع ليعلموا من وراءهم وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لاظهار الدين بين الأعراب في البوادي .

---

(١) ضم العين وسكون الزاي وفتح الراء وفدوا في صفر سنة (٩) وكان عددهم (١٢) وبلي فتح الباء وكسر اللام وشد الياء المواهب ٤ـ٥٦

(٢) بضم الميم وكسر الراء ابن سعد بن قيس عيلان عام حجة الوداع سنة (١٦) المواهب ٤ـ٥٩

(٣) بفتح الغين وشد السين اسم ماء نزل عليه قوم من الازد برمضان سنة (١٠) وكانوا ثلاثة نفر . المواهب ٤ـ٦١

وفاة ابراهيم بن النبي عليه السلام

وفي هذه السنة توفي ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

السنة الحادية عشر

سرية

لأربع بقين من صفر جهز عليه السلام جيشاً برياسة أسامة بن زيد الى ابني (١) حيث قتل زيد بن حارثة والد أسامة وقال له (سر الى موضع قتل ابيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحا على أهل ابني وحرق عليهم وأسرع السير لتسبق الاخبار ، فان اظفرك الله فأقل اللبث فيهم وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك) . وكان مع أسامة فيهذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم ابو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد . ثم عقد عليه السلام لأسامة اللواء وقال له : اغز باسم الله في سبيل الله وقاتل من كفر بالله . وقد انتقد جماعة على تأمير أسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشر من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين فأبلغ الرسول في هذه المقالة فغضب غضباً شديداً وخرج فقال : أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن طعنتم في تأمير أسامة فقد طعنتم في تأميري اياه من قبله ؟ وايم الله إنه كان لخليقاً بالامارة وإنَّ ابنه من بعده لخليق بها ، وإنه كان لمن احب الناس إليَّ وإنهما لمظنة لكل خير فاستوصوا به خيرا فانه من خياركم .

---

(١) محل قريب من مؤتة .

ولم يتم لهذا الجيش الخروج في عهد المصطفى ﷺ لأن المرض بدأه فاختاره الله للرفيق الأعلى وسيرى القارىء إن شاء الله خروج هذا الجيش متمماً في كتابنا اتمام الوفاء بسيرة الخلفاء .

مرض الرسول صلى الله عليه وسلم

لما تم عليه الصلاة والسلام ما كلف به وأدى ما اؤتمن عليه وهدى الله به أمته اختاره الله للرفيق الأعلى فجلس على المنبر مرة وكان فيما قال (إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده فبكي أبو بكر وقال : يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فقال عليه السلام : (إن أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، فلو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام . لا يبق في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر) . وقد بدأه عليه السلام مرضه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً كان في خلالها ينتقل الى بيوت أزواجه ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرّض في بيت عائشة الصدّيقية فأذن له . ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال : هريقوا عليّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد الى الناس . فأجلس في مخضب وصب عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتن وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه .

صلاة أبي بكر بالناس

ولما تعذر عليه الخروج الى الصلاة قال (١) : مروا أبا بكر فليصل بالناس فرضيه عليه السلام خليفة له في حياته . ولمـــا رأت الأنصار اشتداد وجع الرسول أطافوا بالمسجد فدخل العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فخرج ﷺ متوكئاً على عليّ والفضل وتقدم العباس أمامهم والنبـيُّ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر وثار النـاس اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ؛ هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم ؛ ألا إني لا حق بربي وانـكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم ، فان الله تعالى يقول ﴿ وَالعصر إن الانسانَ لفي خُسرٍ إلا الذينَ آمنوا وَعملوا الصالحاتِ وَتواصوا بِالحقِّ وَتواصوا بِالصبر ﴾ وان الأمور تجري باذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فانّ الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ﴿ فَهلْ عَسيتمْ انْ توليتمْ أنْ تُفسدوا في الأرضِ وَتقطعوا أرحامكمْ ﴾ وأوصيكم بالأنصار خيرا فانهم الذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم ، ألم يشاطروكم في الثمار ؛ ألم يوسعوا لكم في الديار ؛ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؛ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم الا ولا تستأثروا عليهم . ألا واني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، ألا فان موعدكم الحوض ، ألا فمن

---

(١) رواه البخاري .

أحب أن يرده علي غدا فليكفف يده ولسانه الا فيما ينبغي . وبينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر يصلي بهم اذا برسول الله ﷺ قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصل الصف وظنَّ أن رسول الله يريد أن يخرج الى الصلاة ، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله فأشار اليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ دنياه ولحق بمولاه ، وكان ذلك في يوم الاثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ (٨ حزيران ـ يونيو سنة ٦٣٣) فيكون عمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية كاملة وثلاثة ايام واحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يوما ، وكان أبو بكر غائبا بالسنح وهي منازل بني الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد فسلَّ عمرُ سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله وقال انما أرسل اليه كما ارسل الى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة . والله اني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم فلما أقبل أبو بكر وأخبر الخبر دخل بيت عائشة وكشف عن وجه رسول الله فجثا يقبله ويبكي ويقول : توفي والذي نفسي بيده ، صلوات الله عليك يا رسول الله ما اطيبك حياً وميتاً ! بأبي أنت وأمي ، لا يجمع الله عليك موتتين ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : وألا من كان يعبد محمداً فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) وتلا قوله تعالى ﴿ انكَ

مَيتٌ وَأنهم مَيتونَ ﴾ وقوله ﴿ وَما محمدٌ الا رَسولٌ قد خَلت من قبلهِ الرسلُ أفائنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انقلبتمْ عَلىَ أعقابكم وَمنْ يَنقلبْ عَلىَ عَقبيهِ فَلن يَضرَّ اللهَ شيئاً وَسيجزي الله الشاكرينَ ﴾ قال عمر : فكأني لم اتل هذه الآية قط . ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الاربعاء حتى انتهى المسلمون من اقامة خليفة عليهم فغسل ودفن ؛ وكان الذي يغسله عليٌّ بن ابي طالب ويساعده العباس وابناه الفضل وقثم واسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله وكفن في ثلاثة اثواب ليس فيها قميص ولا عمامة . ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره في بيته ودخل الناس عليه ارسالا متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم احد ، ثم حفر له لحد في حجرة عائشة حيث توفي وازله القبر عليٌّ والعباس وولداه الفضل وقثم ورش قبره بلال بالماء ورفع قبره عن الأرض قدر شبر .

توفي رسول الله ﷺ وترك للمسلمين ما ان اتبعوه لم يضرهم شيء . كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وترك اصحابه البررة الكرام يوضحون الدين ويتممون فتح البلاد ويظهرون في الدنيا شمس الدين الاسلامي القويم حتى يتم الله كلمته ويحق وعده ، وقد فعل . فنسأل الله ان يقدرنا على اداء شكره على هذه المنة العظمى والنعمة الكبرى .

شمائله عليه السلام

منح الله سبحانه نبينا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله او بعده . ولا بد ان نأتي لك في هذا الباب (١) بنبذة يسيرة

(١) جل ما ذكر في الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله ،

من محاسن صفاته واحاسن آدابه لتكون لك انموذجا تسير عليه حتى تكون على قدم نبيك صلى الله عليه وسلم فتستحق الحمد في الدنيا والذخر في الأخرى .

فاعلم ارشدني الله واياك وهدانا للصراط السوي ان خصال الجلال والكمال في البشر نوعان : ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة ، ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويقرب الى الله زلفى . فأما الضروري فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلته عليه السلام من كمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وفصاحة اللسان وقوة الحواس والأعضاء واعتدال الحركات وشرف النسب وعزة القوم وكرم الارض ، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة اليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه . اما المكتسبة الأخروية فسائر الاخلاق العلية والآداب من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع ، والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة واخواتها وهي التي يجمعها حسن الخلق فاذا نظرت رعاك الله الى خصال الكمال التى هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدته عليه السلام حائزا لجميعها محيطا بشتات محاسنها . فأما الصورة وجمالها وتناسب اعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من انه صلى الله عليه وسلم كان ازهر اللون (١) ادعج (٢) انجل (٣) اشكل (٤) اهدب الاشفار (٥) ابلج (٦) ازج (٧) اقنى (٨) افلج (٩) مدور الوجه واسع الجبين كث اللحية

---

(١) نير اللون او حسنه (٢) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها

(٣) واسع العين مع حسن (٤) في بياض عينيه حمرة

(٥) كثير شعر حروف الاجفان (٦) مضيء الوجه مشرقه

(٧) دقيق الحاجبين في طوله .

(٨) مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها (٩) مفرج بين الثنايا والرباعيات .

يملأ صدره ، سواء البطن عظيم الصدر عظيم المنكبين (١) ضخم العظام عبل (٢) العضدين والذراعين والأسافل رحب الكفين والقدمين سائل الأطـــراف أنور المتجرد ، دقيق المسربة (٣) ربعـــة القد ، ليس بالطويل البائن (٤) ولا القصير المتردّد (٥) . ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب الى الطـــول إلا طاله ﷺ رجل الشعر إذا افترّ ضاحكا افترّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام ، وإذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه ، احسن الناس عنقاً ليس بمطهم (٦) ولا مكلثم (٧) متماسك البدن ضرب اللحم . قال البراء بن عازب : ما رأيت من ذي لمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئاً احسن من رسول الله كأن الشمس تجري في وجهه وإذا ضحك يتلألأ في الجدر ، وفي حديث ابن أبي هالة : يتـــلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . وقال عليّ في آخر وصفـه له (٨) : من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثـــله صلى الله عليه وسلم .

أما نظـافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم أتمها بنظافة الشرع . قال عليه السلام : بني الدين على النظـافة ، وقال أنس : ما شممت عنبراً قط ولا مسكا ولا شيئاً أطيـب من ريـح رسول الله ، وعن جابر أنه عليه السلام مسح خده قال فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها

---

(١) المنكب مجمع رأس العضد والكتف (٢) ضخ (٣) المسربة شعر دقيق من الصدر الى البطن
(٤) مفرط الطول (٥) المتناهي في القصر (٦) المطهم البائن الكثير اللحم
(٧) المكلثم صغير الذقن .
(٨) رواه الترمذي في الشمائل .

من جؤنة عطار . قال غيره : مسها بطيب أو لم يمسها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحهـا يضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحهـا . وروى البخاري في تاريخه الكبير عن جابر : لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه .

وأما وفور عقله ﷺ وذكاء لبه وقـوة حواسه وفصاحة لسانـه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقـل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته للعامة مـع عجيب شمائله وبديع سيره ، فضلا عما أفاد من العلم وقرره من الشرع دون تعـلم سابق ولا ممـارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب ، لم يمتر في رجحان عقـله وثقوب فهمه لأول بديهه . وكان عليه السلام إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه وبذلك فسر قوله تعـالى ﴿ وتقلبكَ في الساجدينَ ﴾ وقالت عائشة : كان عليه السلام يرى في الظلمة كما يرى في الضوء وكان يعد في الثريا أحد عشر نجما وجاءت الأخبار أنه صرع ركانة اشد اهل وقته ، وكان دعاه الى الاسلام وقال ابو هريرة : ما رأيت احـداً اسرع من رسول الله ﷺ في مشيه كأنما الأرض تطوي له ، إنا لنجهد انفسنا . هو غير مكترث . وفي صفته عليه السلام ان ضحكه كان تبسما اذا التفت التفت معا واذا مشى مشى تقلعـا كأنما ينحط من صبب (١) . واما فصاحة اللسان وبلاغة القـول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع ، وبراعة منزع . وايجاز مقطع ؛ وفصاحة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتي جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل امة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في مـنزع

(١) رواه الترمذي في الشمائل .

بلاغتها ، حتى كان كثير من اصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله . من تأمل حديثه وسبره علم ذلك وتحققه ، وليس كلامه مع قريش كـكلامه مع أقيال حضرموت وملوك اليمن وعظماء نجـد بل يستعمل لـكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ وما انتهجته من طرق البلاغة ليبين للناس ما نزل اليهم وليحدث الناس بما يعملون .

وأمّا كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه فقد ألفَ الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازي فصاحة وبلاغة كقوله : المسلمون تتكافأ دماؤهم ؛ ويسعى بذمّتهم أدناهم وهم يد على من سواهم. وقوله : الناس كأسنان المشط والمرء مع من أحب ، ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له : والناس معادن ، وما هلك امرؤٌ عرف قـدره ، والمستشار مؤتمن ، ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم . وقوله أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، وإنَّ أحبّكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفـون ويؤلفون . وقوله : لعله كان يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما لا يغنيه ، وقـوله : ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله . ونهيه عن قيل وقال وكثرة السـؤال وإضاعة المال ومنع وهات وعقوق الأمّهات ووأد البنات . وقوله اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ، وخـير الأمـور أوسطها . وقوله : أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضـك يوماً ما ، وقوله الظلم ظلمات يوم القيامة ، وقوله في بعض دعائه : اللهم إني أسـألك رحمة تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتصلح بها رغائبي وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدي وتردُّ بها ألفتي وتعصمني بها من كل سوء ، اللهمَّ إني أسألك الفوز في القضاء ونزل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء . الى غير ذلك مما روته الكافة عن مقـاماته ومحاضراته وخطـبه

وأدعيته ومخاطباته وعهوده مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز سبقاً لا يقدّر قدره . وقد قال أصحابه : ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال وما يمنعني وإنما نزل القرآن بلساني لسان عربيّ مبين ، وقال مرّة أخرى : بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد . جمع بذلك قوّة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهي الذي مدّده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشر .

وأمّا سروُ نسبه وكرم بلده ومنشأه فمما لا يحتاج الى إقامة دليل عليه ولا بيان مشكل ولا خفي منه فانه نخبة بني هاشم ونخبة قريش وصميمها وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده . وقد قدّمنا لك في اوّل الكتاب ما فيه الكفاية في هذا المقام .

أمّا ما تدعو اليه ضرورة الحياة فمنه ما الفضل في قلته ، ومنه ما الفضل في كثرته ، ومنه ما تختلف الاحوال فيه . فالأول كالغذاء والنوم ولم تزل العرب والحكماء قديماً تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما ، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة ، مسبب لمضار الدنيا والآخرة جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس وامتلاء الدماغ وقلته دليل على القناعة وملك النفس وقمع الشهوة ، مسبب للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن كما أنّ النوم دليل على الفسولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة ، مسبب للكسل وعادة العجز وتضييع العمر في غير نفع وقساوة القلب وغفلته وموته . وكان عليه السلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل وحض عليه . قال عليه السلام : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ! حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ولأن كثرة النوم

من كثرة الأكل والشرب . وقالت عائشة رضي الله عنها : لم يمتلىء جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قط وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب وفي صحيح الحديث : ﴿ أما أنا فلا آكل متكئاً ﴾ والاتكاء هو التمكن للأكل والتقعدد في الجلوس له كالتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته ، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه والنبي عليه السلام انما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعيا ويقول : انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد . وكذلك نومه كان قليلا ومع ذلك فقد قال : إنَّ عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي .

واما ما الفضل في كثرته فكالجاه وهو محمود عند العقلاء عادة بقدر جاهه عظمه في القلوب وقد قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام ﴿ وَجيهاً في الدُّنيا وَالآخرةِ ﴾ . وكان النبي ﷺ قد رزق الحشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النبوَّة عند الجاهلية وبعدها وهم يكذبونه ويؤذون اصحابه ويقصدون أذاه في انفسهم خفية حتى اذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته كما ذكرنا ذلك مراراً . وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روي عن قيلة انها لما رأته أرعدت من الفرق فقال : يا مسكينة عليك السكينة . وفي حديث أبي مسعود أنَّ رجلا قام بين يديه فأرعد فقال له عليه السلام : هون عليك فاني لست بملك .

واما عظيم قدره بالنبوَّة وشريف منزلته بالرسالة وانافة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم .

وأما ما تختلف فيه الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله ككثرة المال فصاحبه على الجملة معظم عند العامة لاعتقادها توصله به الى حاجته وتمكنه في اغراضه والافليس فضيلة في نفسه ، فمتى كان بهذه الصورة وصاحبه منفقا له في مهماته ومهمات من قصده وأمله يصرفه في مواضعه مشتريا به المعالي والثناء الحسن والمنزلة في القلوب كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا : واذا صرفه في وجوه البر وأنفقه في سبيل الخير وقصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة : كان فضيلة عند الكل بكل حال ومتى كان صاحبه ممسكا له غير موجهه وجوهه حريصا على جمعه عاد كثره كالعدم كان منقصة في صاحبه ولم يقف به على جدد السلامة بل أوقعه في وهدة رذيلة البخل ومذمة النذالة . فالتمدح بالمال ليس لذاته بل للتوسل به الى غيره وتصريفه في متصرفاته ، ونبينا ﷺ أوتي خزائن الأرض ومفاتيح البلاد ، وأحلت له الغنائم ، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب ومادانى ذلك من الشام والعراق وجلب اليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهما بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين وقال (ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لديني) وأتته دنانير مرة فقسمها وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام فقسمها وقال الآن استرحت . ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته اليه وزهد فيما سواه فكان يلبس ما وجده فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر . أنت ترى رسول الله ﷺ حاز فضيلة المال بالزهد فيه وانفاقه على مستحقيه .

واما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفـة . وهي المسماة بحسن الخلق ، فجميعها قد كانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال في غايتها حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قالت عائشة : كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه . وقال عليه السلام : بعثت لأتمم مكارم الأخـلاق ، وقال أنس : كان عليه السلام أحسن الناس خلقا . وكانت له هذه الآداب الكريمة كما كانت لاخوانه من الانبياء جبلة خلقوا عليها ثم بتمكن الأمر لهم وترادف نفحات الله عليهم وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم النبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفـة ، دون نهاية ولا ممارسة : وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة ولكنا نذكر أصولها ونشير الى جميعها وتحقيق وصفه عليه السلام بها إن شاء الله .

فأصل فروعها ، وعناصر ينابيعها ، ونقطة دائرتها ، العقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة ويتفرع عن هذا ثقوب الرأي وجودة الفطنة والاصابة وصدق الظن والنظر للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن السياسة والتدبير واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل ، وقد بلغ عليه السلام منه ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه يعلم ذلك من تتبع مجاري احواله واطراد سيره وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سيره وحكم حديثه وعلمه بما في التوراة والانجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الامثال وسياسات الأنام وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة والشيم الحميدة الى فنون العلوم التي أتخذ أهلها كلامه فيها قدوة وإشارته حجـة ، كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك ، دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم ولا الجلوس الى علمائهم بل نبي أمي لا يعرف شيئاً من ذلك ،

شرح الله صدره . وأبان أمره ، وعلمه . وبحسب عقله كانت معارفه عليه السلام الى سائر ما علمه الله واطلعه عليه من علم ما يكون وما كان وعجائب قدرته وعظيم ملكوته . قال تعالى ﴿ وَعلمكَ َما لم َتكنْ َتعلمُ وكانَ َفضلُ اللهِ َعليكَ َعظيماً ﴾ .

واما الحلم والاحتمال والعفو والقدرة والصبر على ما يكرهه فمما أدّب الله به نبيه فقال : ﴿ ُخذِ العفوَ وَأمر بالعرفِ وَأعرض َعنِ الجاهلينَ ﴾ وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال ، يا محمد إنّ الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له ﴿ وَاصبرْ َعلىَ َما أصابكَ إنّ ذلكَ مِنْ َعزم الأمور ﴾ وقال ﴿ وُليعفوا وَليصفحوا ألا ُتحبونَ أن َيغفرَ الله لكم واللهُ َغفورٌ رَحيمٌ ﴾ وقال ﴿ وَلمنْ َصبرَ وَغفرَ إنّ ذلكَ لمنْ َعزم الأمورِ ﴾ وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه السلام بنهاية هذه الاوصاف . فما من حليم إلا عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة ، ونبينا لا يزيد مع كثرة الايذاء إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما . قالت عائشة رضي الله عنها ما خير عليه السلام في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فان كان إثما كان ابعد الناس منه وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله . ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أحد وطلب منه أن يدعو عليهم قال : اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون . وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزأوا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه ثم قاتلوه وحرّضوا عليه غيرهم من مشركي العرب حتى تمالأ عليه جمعهم ، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح وقال ، ما تقولون اني فاعل بكم ؟ قالوا خيراً اخ كريم وابن أخ كريم فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وعن أنس : كنت مع النبي عليه السلام وعليه برد

عليظ الحاشيه فجذبه أعرابيٌ بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ثم قال يا محمد احمل لي على بعيريَّ هذين من مال الله عندك فانك لا تحمل لي من مالك ولا من مال ابيك ، فسكت النبي ثم قال : المال مال الله وانا عبده ، ثم قال : ويقادمنك يا أعرابيُ ما فعلت بي ، قال لا ، قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك عليه السلام ثم أمر ان يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر ومنها الشجاعة والنجدة : فكان عليه السلام منها بالمكان الذي قالت عائشة . ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى ، وما ضرب بيده شيئاً قط الا ان يجاهد في سبيل الله وما ضرب خادماً ولا امرأة ؛ فصلى الله تعالى عليه واقرَّ عينه باتباع المسلمين سنته .

واما الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان عليه السلام لا يوازي في هذه الاخلاق الكريمة ولا يباري . وصفه بهذا كل من عرفه ، قال جابر رضي الله عنه : ما سئل عليه السلام من شيء فقال لا . وقال ابن عباس : كان عليه السلام(١) أجود الناس بالخير واجود ما كان في شهر رمضان ، وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة ، وقالت خديجة في صفته عليه السلام مخاطبة له(٢) : انك تحمل الكل وتكسب المعدوم . وحسبك شاهداً في هذا الباب ما فعله مع هوازن من رد السبى اليها وما فعله يوم تقسيم السبي من اعطاء المؤلفة قلوبهم عظيم الاعطية وقد استوفينا ذلك في موضعه . وحمل اليه عليه السلام تسعون الفاً فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها . وجاءه رجل فسأله فقال : ما عندي شيء ولكن ابتع عليَّ

(١) رواه البخاري

(٢) رواه البخاري عن عائشة في حديث بدء الوحي

فاذا جاءني شيء قضيناه فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه : فكره ذلك عليه السلام فقال له رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش اقلالا . فتبسم عليه السلام وعرف البشر في وجهه وقال : بهذا امرت والأخبار بجوده وكرمه عليه السلام كثيرة يكفي منها لتعليمك ما ذكرناه لا يجهل ، وقد حضر المواقف الصعبة وفرّ الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، وما من شجاع الا احصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وحسبك ما فعله في حنين وأحد مما ذكرناه مستوفي . وقال ابن عمر : ما رأيت اشجع ولا انجد ولا اجود ولا ارضى من رسول الله ﷺ ، وقال علي : إنا كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون احد أقرب الى العدوّ منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدوّ وكان من اشد الناس يومئذ بأساً . وقال أنس : كان عليه السلام اشجع الناس واحسن الناس وأجود الناس لقد فزع اهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم عليه السلام راجعاً قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عرى والسيف في عنقه وهو يقول . لن تراعوا .

واما الحياء والاغضاء فكان عليه السلام أشدّ الناس حياء وأكثرهم عن العورات اغضاء ، قال أبو سعيد الخدري : كان عليه السلام أشدّ حياء من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه في وجهه ، وكان عليه السلام لطيف البشرة رقيق الظاهر ، لا يشافه أحداً بما يكرهه حياء وكرم نفس . قالت عائشة : كان عليه السلام اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا ، بل يقول ما بال أقوام يصنعون او يقولون كذا ، ينهى عنه ولا يسمى فاعله . وقالت رضى الله عنها : لم يكن عليه

السلام فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخابا بالأسواق ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح .

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع اصناف الخلق فبما انتشرت به الاخبار الصحيحة ، قال علي رضي الله عنه : كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة والينهم عريكة وأكرمهم عشرة ، وكان عليه السلام يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، ويتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه او قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء ، بهذا وصفه ابن ابي هالة ، وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه . قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ﴾ ، وقال تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وكان عليه السلام يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعا ويكافيء عليها ، وكان يمازح اصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويجيب دعوة الحر ، والعبد ، والامة ، والمسكين ويعود المرضى في اقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر . وقال أنس ما التقم أحد أذن النبي يحادثه فنحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه ، وما أخذ احد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه

بالمصافحة ، ولم يُرَ قط مادًّا رجليه بين اصحابه حتى يضيق بها على احـد ، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعـزم عليه في الجلوس عليها إن ابي ويكنى اصحابه ويدعوهم بأحب اسمائهم تكرمـة لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام . وكان أكثر النـاس تبسما وأطيبهـم نفساً ما لم ينزل عليه القرآن أو يعظ أو يخطب .

وأما الشفقة والرأفة والرحمة بجميـع الخلق فقد وصفه الله بها في قوله (عَزيزٌ عَليه مَا عَنتم حَريصٌ عَليكم بِالمؤمنينَ رَءوف رَحـيم) وقال (وَما أرسلناكَ إلا رَحمة للعالمينَ) . روى أن اعرابياً جاءه يطلب منـه شيئاً فاعطـاه ثم قال : أأحسنت اليك قال الاعرابيّ : لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وارسل اليه وزاده شيئاً ثم قال : أأحسنت اليك ؟ فقـال : نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام إنك قلت ما قلت وفي نفس اصحـابي من ذلك شيء فان احببت فقل بين ايديهم ما قلت بين يديَّ حـتى يذهب ما في صدرهم عليك . قال ، نعم فلما كان الغـد ـ أو العشيّ ـ جاء فقـال عليـه السلام : إنّ هــذا الاعرابي قال ما قال فزدناه فزعم انه رضى أكذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من اهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام : مثلي ومثـل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعهـا الناس فلم يزيدوها إلا نفـوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فاني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بـين يديها فأخذ لها من قمام الارض فردها حتى جاءت واستناخـت وشدّ عليهـا رحلها واستوى عليها ، واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتمـوه دخل النار . وقال عليه السلام : لا يبلغني أحد منكم عن اصحـابي شيئاً

فاني احب ان اخرج اليكم وانا سليم الصدر ، وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوَّز (١) في صلاته ، وعن ابن مسعود كان عليه السلام يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا .

واما خلقه عليه السلام في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فروي عن عبدالله بن ابي الحمساء قال . بايعت النبي عليه السلام ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته ان آتيه بها مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو مكانه ، فقال : يا فتى لقد شققت عليّ ، انا هنا منذ ثلاث انتظرك ! وكان اذا أتى بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة وكان عليه السلام يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . ووفد عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه فقال له اصحابه نكفيك . فقال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني احب أن اكافئهم . وفي حديث خديجة : ابشر فوالله لا يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .

واما تواضعه عليه السلام على علو منصبة ورفعة رتبته فكان اشد الناس تواضعاً واقلهم كبراً . وحسبك انه خير بين أن يكون نبياً ملكا أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً . وخرج عليه السلام مرة على اصحابه متوكئاً على عصا فقاموا ، فقال . لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً ؛ وقال ، انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد . وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين اصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس وقال عليه السلام :

(١) تجوز في صلاته أي خفف ـ مختار الصحاح ص ١١٧

لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله .
وحج عليه السلام على رحل رث وعليه قطيفة ما تساوي اربعة دراهم فقال :
اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة . هذا ، وقد فتحت عليه الارض
واهدي في حجه هذا مائة بدنة ، ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش
المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى يكاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى . وعن
أبي هريرة رضي الله عنه : دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل
وقال للوازن زن وأرجح ، ثم قال : فوثب الى يد رسول الله ﷺ يقبلها
فجذب يده وقال : هذا تفعله الاعاجم بملوكها ولست بملك إنما انا رجل منكم ،
ثم اخذ السراويل فذهبت لاحمله قال : صاحب الشيء احق بشيئه أن
يحمله .

وأما عدله عليه السلام وامانته وعفته وصدق لهجته فكان آمن
الناس وأصدقهم لهجة منذ كان ، اعترف له بذلك محادوه وأعداؤه
وكان يسمى قبل نبوته الأمين . وقد قدمنا ذلك في سيرته عليه
السلام قبل النبوة وفي الحديث عنه عليه السلام . مالمست يده يد امرأة
قط لايملك رقها . قال أبو العباس المبرد : قسم كسرى أيامه فقال : يوم
الريح يصلح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للهو والشرب ، ويوم
الشمس للحوائج . ولكن نبينا عليه السلام جزأ نهاره ثلاثة أجزاء جزء
لله وجزء لأهله وجزء لنفسه ، ثم جزأ جزأه بين الناس فكان
يستعين بالخاصة على العامة ويقول : أبلغوا حاجة من لايستطيع إبلاغي
فان من أبلغ حاجة من لايستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر وكان
عليه السلام لا يأخذ أحداً بذنب أحد ولا يصدق أحداً على أحد

وأما وقاره عليه السلام وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فكان عليه السلام أوقر الناس في مجلسه لايكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان إذا جلس احتبى بيديه ، وكذلك كان أكثر جلوسه محتبيا . وكان كثير السكوت لايتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان كلامه فصلا لافضول ولا تقصير ، وكان يضحك أصحابه عند التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانه لاترفع فيه الاصوات ولا تؤبن فيه الحرم . إذا تكلم أطرق جلساءه كأنما على رؤسهم الطير . وقال ابن أبي هالة : كان سكوته صلى الله عليه وسلم على أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر وقالت عائشه رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً لوعده العاد لأحصاه ، وكان يحب الطيب والرائحة الحسنة ويستعملها كثيراً ويحض عليهما ، ومن مروءته صلى الله عليه وسلم نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلي ، والأمر بالسواك وإنقاء البراجم والرواجب (مواصل الاصابع من ظاهر الكف وباطنها) .

وأما زهده عليه السلام فقد قدَّمنا لك فيه ما فيه الكفاية . وحسبك شاهداً على تقلله من الدنيا وإعراضها عن زهرتها ، وقد سيقت اليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها ، أن توفى عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهوديٌ في نفقة عياله وهو يدعو ويقول : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ، وقالت عائشة رضي الله عنها ، ما شبع عليه السلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله ، وقالت : ما ترك عليه السلام ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ، ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا سطر شعير في رف لي ،وقال: إني عرض عليَّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يا رب أجوع يوماً

وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرَّع اليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك . وقالت عائشة : إنا كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً ، إن هو إلا التمر والماء . وعن أنس : ما أكل عليه السلام على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق ولا رأى شاة سميطاً قط . وفي حديث عائشة كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه فثنيناه ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : ما فرشتم لي ؟ فذكرنا له ذلك فقال : ردُّوه بحاله فانَّ وطأته منعتني الليلة صلاتي ، وقالت عائشة : لم يمتلىء جوف النبي عليه السلام شبعاً ولم يبعث شكوى الى أحد ، وكانت الفاقة أحب اليه من الغنى ،وإن كان ليظل جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك ؛ فيقول : يا عائشة ما لي وللدنيا إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي إن ترفت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم . وما من شيء أحبُّ اليَّ من اللحوق باخواني وأخلائي . قالت : فما أقام بعد إلا أشهراً شهراً حتى توفي صلوات الله عليه وسلامه .

وأمَّا خوفه ربه وطاعته له وشدَّة عبادته فعلى قدر علمه ، ولذلك قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون اطت (صوَّتت) السماء وحق لها ان تئط ما فيها موضع اربع اصابع الا وملك واضع جبهته ساجد لله ، والله لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون

الى الله تعالى ، لوددت اني شجرة تعضد . وكان عليه السلام يصلي حتى ترم قدماه فقيل له : اتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (افلا اكون عبداً شكوراً !) . وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان عمل رسول الله ﷺ ديمة وايكم يطيق ما كان يطيق ؟ وقالت : كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم . وقال عوف بن مالك : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلي فقمت معه فاستفتح البقرة فلا يمرُّ بآية رحمة الا وقف فسأل ولا مرَّ بـآية عذاب الا وقف وتعوّذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة . ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك . وقال بعضهم : اتيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه ازيز كأزيز المرجل وفي وصف ابن ابي هالة : كان متواصل الاحزان دائم الفكرة ليست له راحة . وعن علـي رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقـال : (المعرفة راس مالي ، والعقل اصل ديني ، والحب اساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله انيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلم سلاحي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمتي ، والعجز فخري ، والزهد حرفتي ، واليقين قوتي ، والصدق شفيعي ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلقي ، وقرّة عيني في الصلاة ، وثمرة فؤادي في ذكره ، وعمري لأجل امتي ، وشوقي الى ربي) . فجزاه الله من نبي عن امته خيراً . ورحم الله عبداً تأمل في هذه الشمائل الكريمة والخصال الجميلة فتمسك بها واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحوز شفاعته يوم الفزع الأكبر ويرضى الله عنه ، فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير بمنك وكرمك يا ارحم الراحمين .

معجزاته عليه السلام

اذا تأمل المتأمل ما قدمناه من جميل اثر هذا السيد الكريم وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته ، وقد كفى هذا غير واحد في اسلامه والايمان به كعبد الله بن سلام فانه قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر اليه فلما استبنت وجهه عرفت ان وجهه ليس بوجه كذاب . وروى مسلم أن ضماداً لما وفد عليه قال له صلى الله عليه وسلم (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال له ضماد : أعد عليَّ كلماتك هؤلاء فقد بلغن قاموس البحر هات يدك ابايعك . ولما بلغ ملك عمان أن رسول الله عليه السلام يدعوه الي الاسلام قال : والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفي بالعهد وينجز الموعود واشهد أنه نبي . وقال ابن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة　　　لكان منظره ينبيك بالخطر

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من المعجزات ما لا يفي به العد فهو أكثر الأنبياء آية وأظهرهم برهاناً . وسنذكر لك في هذا الفصل من الآيات ما تقرّ به عينك ويزداد به يقينك مما رواه الجم الغفير من

الصحابة رضوان الله عليهم وأثبته المحدثون في صحاحهم . ونبدأ منها بأظهرها شأنا وأوضحها بيانا وهو القرآن الشريف وإعجازه :

اعلم ان كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الاعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط انواعها في اربعة : —

أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب ، وذلك انهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم . وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الالباب . جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة : يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به الى كل سبب ، فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من اوصافهم أجمل من سمط اللآل فيخدعون الالباب ويذللون الصعاب ويذهبون الاحن ويهيجون الدمن ويجرئون الجبان ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا . منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي ، ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة والالفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية ، وكلاهما له في البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة والقدح الفالج والمهيع الناهج ، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم ، قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا على كل باب من ابوابها وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها فقالوا في الخطير والمهين وتفننوا في الغث والسمين ، وتقاولوا في القل والكثر وتساجلوا في النظم

والنثر فما راعهم الا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . احكمت آيته وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر ايجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت في الحسن مطالعه وحوت كل البيان مجامعه وبدائعه . واعتدل مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم افسح ما كانوا في هذا الباب مجالا واشهر في الخطابة واكثر في الشعر والسجع ارتجالا وأوسع في الغريب واللغة مقالا ، بلغتهم التي بها يتحاورون ومنازعهم التي عنها يتناضلون ، صارخا بها في كل حين ومقرعاً لهم بضعة وعشرين عاماً على رءوس الملأ اجمعين ﴿ أم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فَأتوا بِسورةٍ مِثلِهِ وادعوا مِن استطعتم مِنْ دونِ اللهِ إن كنتم صادقين ﴾ ﴿ وإن كنتم في رَيب مما نَزلنا على عَبدنا فَأتوا بِسورة مِنْ مِثلِهِ وادعوا شُهداءَكم مِنْ دونِ اللهِ انْ كنتم صادقينَ فان لم تَفعلوا ولَنْ تفعلوا ﴾ ﴿ قُل لئن اجتمعتِ الانسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضهم لبعض ظَهيراً ﴾ . ﴿ قُل فَأتوا بعشرِ سُور مثلِهِ مُفتريات ﴾ فلم يزل يقرّعهم أشد التقريع ويوبخهم أشد التوبيخ ويسفه احلامهم ويحط اعلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وديارهم واموالهم وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته ، يخادعون انفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاعتزاز والافتراء وقولهم (ان هذا الا سحر يؤثر ، وسحر مستمر وافك افتراه واساطير الاولين) والمباهتة والرضا بالدنية كقولهم ﴿ قلوبنا غلف وفي اكنة مما تدعونا اليهِ وفي آذاننا وَقر ومن بيننا وبينكَ حجاب ﴾ . ﴿ ولا تسمعوا لهذا القرآنِ والغوا فيه) والادعاء مع العجز كقولهم (لو نَشاءُ لَقلنا مِثلَ هذا) وقد قال لهم (ولن

تفعلوا) فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم ، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم والا لم يخف على أهل الميز منهم انه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين واتوا اليه مذعنين وانت اذا تأملت قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وقوله (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ، وقوله « ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » وقوله « وقيل يا ارض ابلعي ماءك يا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين » وقوله « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » واشباهها من الآى ، بل ا كثر القرآن ، حققت ما بينته من ايجاز الفاظها وكثرة معانيها وديباجة عباراتها وحسن تأليف حرفها وتلاؤم كلها ، وان تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا جمة وعلوماً زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها وكثرت المقالات في المستنبطات عنها .
ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آية المتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها ، ثم اذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها وتناصف في الحسن وجه مقابلتها ، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معادة لمعادها .

الوجه الثاني من اعجاز القرآن صورة نظمه العجيب والاسلوب الغريب المخالف لاساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آية وانتهت فواصل كلماته اليه ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له

ولا استطاع احد مماثلة شيء منه بل حارت فيه عقولهم وتدلهت دونه احلامهم ولم يهتدوا الى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم او سجع او رجز او شعر والاعجاز بكل واحد من النوعين والايجاز والبلاغة بذاتها او الاسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع اعجاز لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منهما اذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها .

الوجه الثالث من الاعجاز ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوقع فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي اخبر كقوله تعالى (لَتدخلن المسجدَ الحرامَ ان شاء الله آمنينَ) وقوله عن الروم (وَهم مِن بعدِ غَلبهمْ سَيغلبونَ في بِضع سنينَ) وقوله (ليظهرهُ عَلىَ الدين كله) وقوله (وَعدَ اللهُ الذينَ آمنوا مِنكم وَعملوا الصالحاتِ ليستخلفنهم في الارضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهمُ الذي ارتضى لهم وليبدلنهم مِنْ بَعدِ خوفهم أمناً) وقوله (اذا جَاء نَصرُ اللهِ والفتحُ ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دِينِ اللهِ افواجاً) فكان جميع هذا كما اخبر ، فغلبت الروم فارس ، ودخلت الناس في الدين افواجا واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم في وقت من اقصى بلادالاندلس غربا الى أقاصي الهند شرقا . ومن بلاد الاناضول شمالا الى اقاصي السودان جنوبا . وقوله (انا نَحنُ نَزلنا الذكرَ وانا لهُ حافظون) فكان كذلك الى الان والحمد لله ، وقوله (سَيهزمُ الجمعُ ويولونَ الدُبرَ) فكان كذلك في بدر والآية نزلت بمكة وقوله (قَاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) فكان كذلك مما اطلع عليه قارىء هذه السيرة وما فيه من كشف اسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم كقوله (وَيقولونَ في انفسهمْ لولا يُعذبنا اللهُ بِما نَقولُ » وقوله « يَخفونَ في انفسهمْ مَا لا يبدونَ لك » وقوله « مِن الذينَ هادوا يُحرفون الكلم عنْ مواضعهِ ويقولون سمعنا

وَعصينا واسمعْ غيرَ مُسمع ورَاعنـا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ الى غير ذلك من الآيات البينات .

الوجه الرابع ما انبأ به من اخبـار القرون السالفة والامـم البـائدة والشرائـع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفـذ من اخبـار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده عليه السلام على وجهـه ويأتي به على نصه فيقر العـالم بذلك على صحته وصدقه، وإن مثله لم ينله بتعليم وقد علموا أنه ﷺ أميّ لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة لم يغب عنهم ولا جهل حاله احد منهم . وكثيراً ما كان يسأله كثـير من أهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منـه ذكراً كقصص الانبياء وبدء الخلق وما في الكتب السابقة مما صدقه فيها العلمـاء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها . ولم يؤثر أن واحداً منهـم أظهـر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحاً ولا سقيما من صحفه بعد ان قرعهم ووبخهم بقوله ﴿ قُل فأتوا بالتوراةِ فاتلوها إن كنتم صادقينَ ﴾ ومما يدل على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحداهم فيه الله بقوله ﴿ قُل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عندَ الله خالصة من دون الناسِ فتمنوا المـوتَ إن كنتم صادقينَ) ثم ختم عدم إجابتهم بقوله : (ولَن يتمنوهُ أبداً بما قدمتْ أيديهم) فمـا سمع عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو بلسانه مـع أنهـم كانوا أحرص الناس على تكذيبه . ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا ، وقد قدَّمنا ذلك في فصل وفودهم . ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر : الروعة التي تلحق قلوب سامعيه والهيبة التي تعتريهم عـند تلاوته لقوة حاله وانافة خطره حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفـوراً ولهذا قال ﷺ : ان القرآن صعب مستصعب على من كرهه ، وهو الحكم ،

واما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته اياه مع تلاوته توليه اقبالا وتكسبه هشاشة لميل قلبه اليه وتصديقه به . قال تعالى (تَقشعر مِنه جُلودُ الذينَ يخشونَ رَبهم ثم تَلينُ جُلودهم وَقلوبهم الى ذكرِ اللهِ) وقال تعالى (لوْ انزلنا هذا القرآنَ عَلىَ جَبل لرأيته خاشعا مُتصدعاً مِن خشية الله) . ومن وجوه اعجاز القرآن كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال : (انا نَحن نَزلنا الذكر وانا له لحافظونَ) وقال (لا يَأتيه الباطل مِن بَين يَديه ولا مِن خلفه) وسائر معجزات الانبياء لم يبق الا خبرها والقرآن الى وقتنا هذا حجة قاهرة ومعارضة ممتنعة والاعصار كلها طافحة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة والملحد فيهم كثير والمعاند للشرع عتيد ، فما منهم من اتى بشيء يؤثر في معارضته ولا ألف كلمتين في مناقضته ، ولا قدر فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك الا بزند شحيح ، بل المأثور عن كل من رام ذلك القاؤه في العجز بيديه النكوص على عقبيه . ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه السلام في القرآن قال : (انَّ الله انزل هذا القرآن آمراً وزاجراً وسنة خالية ومثلا مضروبا ، فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم ؛ ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طول الرد ولا تنقضي عجائبه (١) . هو الحق ليس بالهزل . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ، ومن حكم به أقسط ، ومن عمل به اجر ، ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم . ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ،

---

(١) رواه الترمذي عن علي بألفاظ متقاربة تيسير الوصول ١ـ٨٤

والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب) .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم : انشقاق القمر ، وقد قدمنا حديثه مستوفي .

ومن معجزاته ﷺ نبع الماء من بين اصابعه وتكثيره ببركته ، وقد روى هذا الجم الغفير من الصحابة منهم انس وجابر وابن مسعود ، قال أنس : رأيت رسول الله ﷺ وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس ماء للوضوء فلم يجدوه فأتى النبي ﷺ بوضوء فوضع في الاناء يده وامر الناس ان يتوضأوا منه قال فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم فقيل كم كنتم ؟ قال زهاء ثلاثمائة . وقال ابن مسعود : بينما نحن مع النبي ﷺ وليس معنا ماء فقال لنا اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فصبه في اناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين اصابعه . وقال جابر . عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا : ليس عندنا ماء الا ما في ركوتك فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين اصابعه كأمثال العيون ، قيل : كم كنتم ؟ قال لو كنا مائة الف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة ، وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة ومثل هذا في هذه المواطن الحفيلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة الى المحدث به لأنهم كانوا اسرع شيء الى تكذيبه لما جلبت عليه نفوسهم من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل ، فهؤلاء قد رأوا هذا واشاعره ونسبوا حضور الجم الغفير له ولم ينكر عليهم احد من الناس ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم له .

ومما يشبه تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته . كما ورد عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهي تلمع بشيء من ماء مثل الشراك فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ثم غسل عليه السلام فيه وجهه ويديه وأعاده فيها فجرت بماء كثير فاستقى الناس . وفي رواية ابن اسحاق فانخرق من الماء ما له حسٌ كحس الصواعق ، ثم قال يوشك يا معاذ ، ان طالت بك حياة ، ان ترى ما هنا قد ملىء جنانا . وقد قدمنا ذلك في غزوة تبوك . وروى عن البراء وسلمة بن الاكوع تكثير عين الحديبية بدعوته عليه السلام . وروى ابو قتادة ان الناس شكوا الى رسول الله العطش في بعض أسفاره فدعا بالميضأة فجعلها في ضبنه (ما بين الكشح الى الابط (ثم التقم فمها فالله اعلم أنفث فيها أم لا ، فشرب الناس حتى رووا وملأوا كل اناء معهم فخيل لي انها كما اخذها مني وكانوا اثنين وسبعين رجلا ، ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم في محال مختلفة بحيث لا يشك احد في صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها .

ومن ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ ، وروى طلحة أن عليه السلام اطعم ثمانين أو سبعين رجلا من اقراص من شعير جاء بها أنس تحت ابطه فأمر بها عليه السلام ففتتت وقال فيها ما شاء الله أن يقول ، وروى جابر انه عليه السلام اطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق ، وقال جابر فأقسم بالله لاكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز ، وكان عليه السلام قد بصق في العجين والبرمة وبارك ، وروى أبو ايوب أنه صنع لرسول الله وابي بكر طعاماً يكفيهما فأطعم منه عليه السلام مائة وثمانين رجلا . وروى مثل ذلك كثير من الصحابة ، كعبدالرحمن

ابن ابي بكر ، وسلمة بن الاكوع ، وأبي هريرة ، وعمر بن الخطاب ، وانس بن مالك ، رضوان الله عليهم اجمعين .

ومن معجزاته عليه السلام قصة حنين الجذع ، قال جابر بن عبدالله كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل فكان عليه السلام اذا خطب يقوم الى جذع منها ، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار . وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره ، وفي رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوه به . وفي رواية المطلب : وانشق حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت ، زاد غيره فقال عليه السلام : ان هذا بكى لما فقد من الذكر ، وزاد غيره : والذي نفسي بيده لو لم التزمه لم يزل هكذا الى يوم القيامه تحزنا على رسول الله فأمر به فدفن تحت المنبر ، وهذا الحديث خرجه أهل الصحة ورواه من الصحابة كثيرون ورواه عنهم من التابعين ضعفهم ومن دون عدتهم يقع العلم ان اعتنى بهذا الباب . والله المثبت على الصواب .

ومن معجزاته عليه السلام ابراء المرضى وذوي العاهات فقد اصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها عليه السلام فكانت احسن عينيه واحدهما ، وبصق على اثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد فما ضرب عليه ولاقاح ، وأصاب ابن ملاعب الاسنة استسقاء فبعث الى النبي عليه السلام فأخذ بيده حثوة من الارض فتفل عليها ثم اعطاها رسوله فأخذها يرى أنه قد هزىء به فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله . وتقدم حديث عليٍّ ورمده في غزوة خيبر وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عدّه ورواه ثقاة المسلمين الاعلام .

أما ما منحه الله اياه من اجابة دعواته فروى عن أنس بن مالك قال قالت أمي أم سليم : يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له ، فقال اللهم اكثر ما له وولده وبارك له فيما آتيته ، قال أنس : فوالله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي ليعادّون اليوم نحو المائة . ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانون ألفاً ، وتصدق مرّة بعير فيها سبعمائة بعير وردت عليه تحمل من كل شيء فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها واحلاسها .

ودعا لمعاوية بالتمكين في الأرض فنال الخلافة ، ودعا لسعد باجابة الدعوة فما دعا لأحد الا استجيب له . وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب ان يعز الاسلام به . وقال لأبي قتادة : أفلح وجهك ، اللهم بارك في شعره وبشره فمات وهو ابن سبعين سنة كأنه ابن خمس عشره ، ودعواته عليه السلام المستجابة اكثر من أن تحصى يطلع عليها قارىء سيرتنا هذه .

أما ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فما سارت به الركبان ، فمن حذيفه رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه اصحابي هؤلاء وانه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه وما أدرى أنسى أصحابي أم تناسوه ، والله ما ترك عليه السلام من قائد فتنة الى ان تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته . وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما علم به اصحابه مما وعدهم به من الظهور على اعدائه وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق وظهور

الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة الى مكة لا تخاف إلا الله وان المدينة ستغزي ويفتح خيبر على يد عليٍّ في غد يومه ، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر ، وقدمنا كثيراً من ذلك في هذه السيرة وقدمنا ما في القرآن من ذلك . وهذا يغنينا عن الاطالة في هذا المقام فحسبك ما سمعت .

ومما ينير بصيرتك أيها القارىء ما من الله به على رسولنا من عصمته له من الناس وكفايته من آذاه . قال تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ وقال : (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) وقال : (أليس الله بكاف عبده) وقال : (إنا كفيناك المستهزئين) ولما نزل (والله يعصمك من الناس) صرف حجابه وقال انصرفوا فقد عصمني الله وقدمنا حديث دعثور وإرادته قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعصمة الله انبينا وذكرنا كثيراً مما حصل من ابي جهل لما أراد بالرسول المكايد فكفاه الله شره . وما منّ الله به عليه ليلة الهجرة وحديث سراقة في الطريق . وعلى الجملة فيكفينا من هذا الباب أنه عليه السلام مكث بين أعداء ألداء بمكة ثلاث عشرة سنة وبين مشلبهم من المناقفين واليهود عشر سنين فما تمكن أحد من ايصال أذى اليه ﷺ : بل كفاه مولاه شر أعدائه حتى أظهر الدين وتممه .

والحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ونسأله ان يوفق قارئي هذه السيرة الى اتباع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلى اصحابه وانصاره .

لقد منّ الله علي بتحقيق سيرة نبيه ﷺ، فأطلب من الله العزيز القدير أن ينفع بهذه السيرة المحمدية كل من اطلع على هذا الكتاب المختصر في سيرة سيد البشر محمد ﷺ.

وأسأله أن يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يوفقنا لاتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد يقول قائل أنني قد اختصرت في بعض الاماكن ومن الضرورة التوسعة، فأقول: أن كتب السير كثيرة ومطولة فلذا: ما اطلت وحاولت دائماً الايجاز والاختصار حتى يكون كتابا مختصراً شاملا في كل باب ولكي يسهل قراءته وحفظه ومطالعته على كل مسلم.

فشكراً وحمداً لله الكبير المتعال، وأطلب من الله الحي السميع البصير التجاوز عن سيآتي وتقصيري مع الله الواحد الاحد الفرد الصمد، والحمد لله رب العالمين وتم طبع هذه السيرة النيرة على يد الاستاذ احمد ربيع جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً، وذلك في شهر محرم سنة ١٣٨٢ وشهر حزيران سنه ١٩٦٢. والله الموفق للخيرات والبركات وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

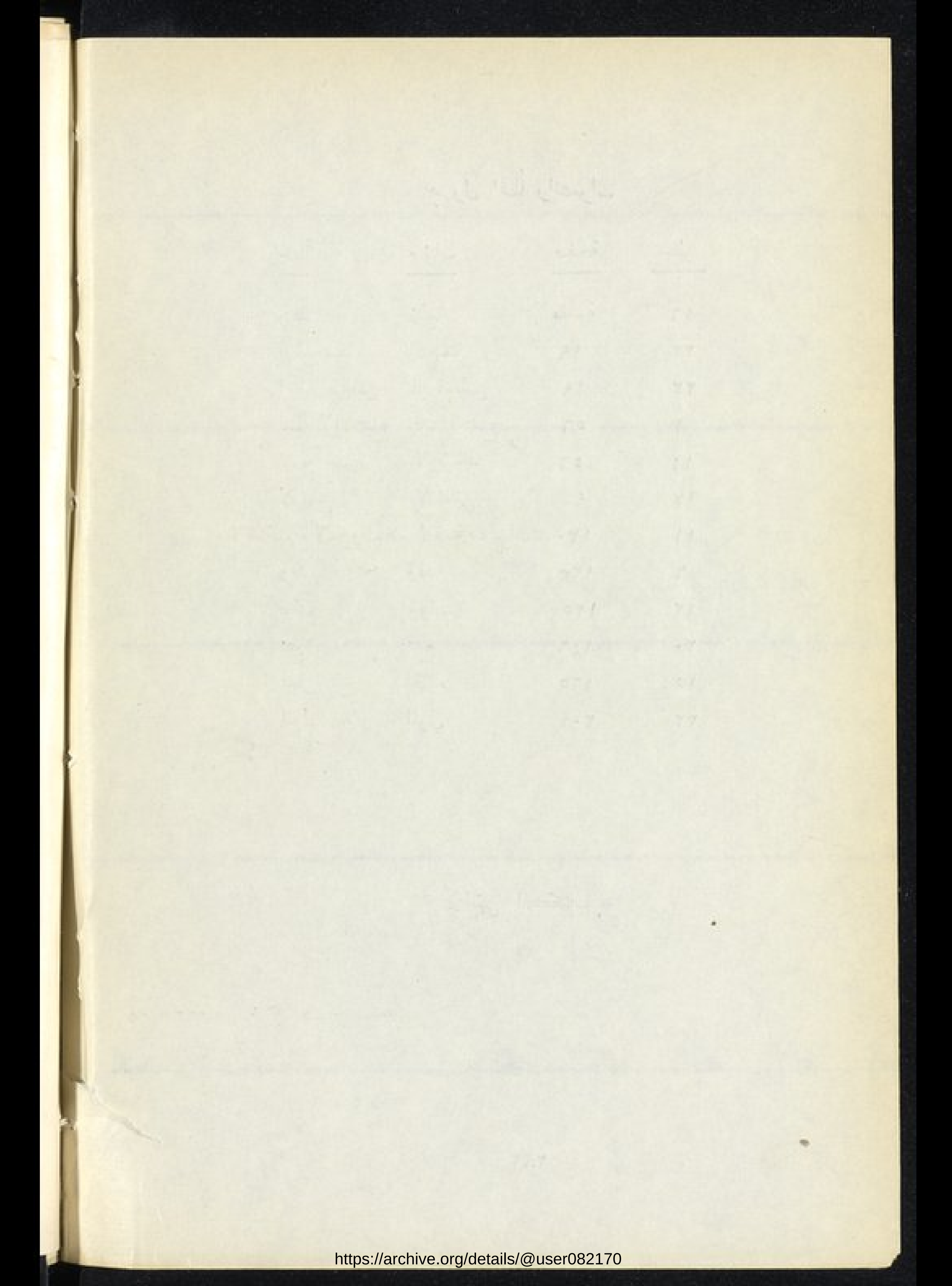
صفوة السقا

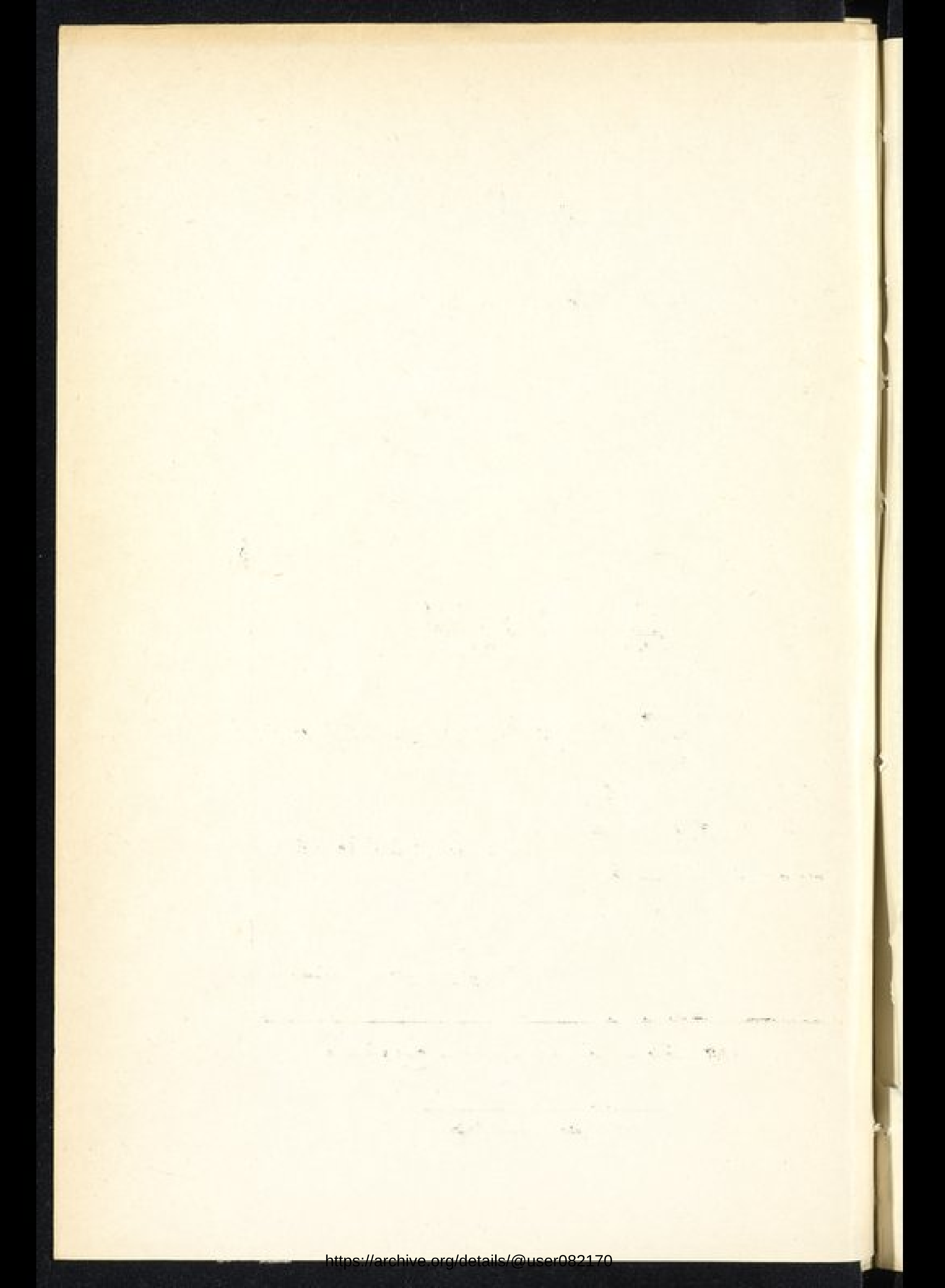
فهرس نور اليقين

جدول الخطأ والصواب

خطأ	صواب	صفحة	سطر
زعيم	زعيما	مقدمة	١٦
اكنجمنا	المنجمنا	١٩	٢٢
اكبر قليطس	البرقليطس	١٩	٢٢
فان الله الاجماع	فان الاجماع	٥٦	١
لا يوأخذ	لا يؤخذ	٥٦	١١
لا تطفي	لا تطغي	٩١	١٧
لاقامة دعائم الامن والسلام	لاقامة دعائم الملك	١٢٠	١١
وقد	وفد	١٢٣	٦
بوتهم	بيوتهم	١٢٥	١٢
سمع	سمح	١٤٦	٢٠
انظر	انظره	١٦٥	١٥
المول	المولى	٢٠١	٢٢







اصدار

المؤسسة الثقافية

دار الزهراء

للتأليف

المطبوعات الدينية

- شرح نور اليقين في سيرة سيدنا محمد ﷺ
- المجموعة الصغرى للفوائد الكبرى
  - البرهان المؤيد - احمد الرفاعي
  - عنوان التوفيق في آداب الطريق
  - الكوكب المتلالي شرح قصيدة الامام الغزالي
- مسند ابي حنيفه رضي الله عنه

مكتبة ربيع - حلب - باب النصر - هاتف ١٣٠٨٢

مطبعة الشرق - حلب ١٨٧١٢